العقيد الركن
أحمد الزيدي
محمد رسول الله
لا إله إلا الله
عليه السلام
الإمام علي و الحرب
سياسة الحرب
و السوق العسكري
و التعبية عند الإمام
للطباعة والنشر والتحقيق
Bibliotheca Alexandrina
0093710



الامام علي(عليه السلام) والحرب

سياسة الحرب والسوق العسكري

والتعبية عند الامام


دار
الكرام
للطباعة والنشر والتحقيق

الامام علي (عليه السلام) والحرب

سياسة الحرب والسوق العسكري
والتعبية عند الامام

العقيد الركن

أحمد الزيدي



- الامام علي (عليه السلام) والحرب
- المؤلف: العقيد الركن أحمد الزيدي

- الطبعة الأولى / عدد النسخ ٢٠٠٠

اهداء

الى أمير الحرب.. والمحراب.. والمنبر
الى أمير المؤمنين..
أقدم هذا الجهد المتواضع متقرباً به الى الله ورسوله واليه، راجياً ان ينفعني في دنياي وآخرتي

العقيد الركن أحمد الزيدي
٢٩ / ذي الحجة / ١٤١٤
الموافق ٨ / حزيران / ١٩٩٤

▫ بين يدي الكتاب ▫

١ - المقدمة

٢ - حياة الامام علي(ع)

٣ - وصفه

▫ المقدمة ▫

ــ تناول الكثير من الكتّاب مختلف جوانب حياة الامام علي بالبحث والدراسة، واكتشفوا خلال مسيرة البحث الطويلة تلك - والتي لن تنتهي أبداً - الكثير من الصفات النادرة النبيلة التي كان يتمتع بها الامام، واخرجوها للعالم على شكل كتب، صدرت منها العشرات، أصبحت تُتداول في كل بيت ومكتبة، تشهد للامام بالحجة الواضحة بما يمتلكه من تلك المواهب والصفات، فمنهم من كتب عن شجاعته، ومنهم من كتب عن عدالته، ومنهم من كتب عن زهده، وفصاحته، بحيث لم يبق مما هو معروف من الصفات الحميدة الا ووجد بأنه المبرّز والمتقدم فيها، وعلى كثرة ماكُتب عنه (عليه السلام)، فإن جانبا آخر مهماً من حياته لم تتم معالجته بالصورة التي تُبرِز مايملكه من قدرات وامكانيات كبيرة وفهم واسع في هذا المجال، أعني به مجال القيادة العسكرية والقدرة على ادارة الحرب والتخطيط لها، وربما كان سبب ذلك يعود الى ان كل من تناول صفاته وقدراته الأخرى في البحث والدراسة، لم يكن يمتلك الخبرة والقدرة المهنية التي تؤهّله لأن ينعطف على هذا الجانب، فيبحث فيه مكتشفا كنوزه الرائعة، أي أن كل من كتب عن الامام علي، استطاع أن يبرز في الجوانب التي يمتلك فيها خبرة أو اختصاصاً مكّنه من أن يخوض في ما خاض فيه، خارجاً بنتائج وآراء مهمة وجيدة، أما الجانب العسكري في حياة الامام علي فانه يحتاج هو الآخر الى من يمتلك الخبرة في هذا المجال، لتمكّنه من البحث والدراسة، منتهياً الى إبراز هذا الجانب الهام من حياة الامام الزاخرة المليئة بالكفاح والجهاد المتواصل حتى آخر يوم من حياته الشريفة، دفاعاً عن المُثل والقيم الاسلامية والانسانية التي نذر حياته من أجلها، ولنقف على الدروس والعبر الغنية المستخلصة من جهاده هذا، الذي عُمّد بالدم والكفاح والمعاناة.

ــ وكُتب التاريخ العربي والاسلامي مليئة بمشاهد فريدة ناصعة له، تستحق منا أن نلتفت اليها، نافضين عنها غبار الزمن، مُقدَّمةً بحلّة معاصرة، يتقبلها ذوق العسكري والمثقف على حد سواء، وربما كان من الأسباب التي جعلت الكتّاب

المعاصرين يُحجمون عن الكتابة في هذا الجانب، هو كون حروب الامام علي الكبرى كانت داخلية، وان البحث فيها سيكون مدعاة لاثارة هواجس البعض ومشاعرهم، الا أننا لانجد ذلك مبرراً لأن نقف أمام هذا التراث العظيم من الخبرة والموهبة، موقف الاهمال، ونحن هنا نهدف الى الدراسة المجردة البعيدة عن الخوض في الأسباب التي أدت الى هذه الحروب تفصيلياً، والتي يمتلك ازاءها الكثير من المسلمين مواقف فكرية مختلفة، كانت ولا تزال جزءاً من أسباب الاختلاف بينهم.

ـ لا يعني هذا باننا سوف نعزل الحرب كاملة عن أسبابها، وهي سياسية - لأننا لن نوفّق بصورة كاملة الى الوصول الى عرض جاد وحقيقي، لأن الحرب أساساً هي احدى وسائل السياسة، بل انها آخر وسيلة من وسائلها، فهي اذن جزء لاينفك منها، وقبل أن تنشب الحرب، فان للسياسة أساليبها وجهودها، تأخذ دورها الأساسي في تحقيق الأهداف، وعندما تنشب الحرب، تتوقف الى حد كبير وتختفي وسائلها المعتمَدة سابقاً، وتنصرف الى خدمة الحرب، وبالقدر الذي تحقق فيه هذا الأمر، فانها تساعد على بلوغ هدف الحرب، وعندما ترتبك السياسة، عملها وأساليبها، فانها تربك الحرب وتُضعف الجهود في ساحاتها، وعندما تتوقف الحرب، ولو لفترة معينة، تبدأ الجهود السياسية فوراً بالعمل، الوفود، المذكرات، الوسطاء.. الخ، فعندما توقفت الحرب، خلال حرب صفين في الأشهر الحرم، بدأ النشاط السياسي يأخذ دوره، وحالما توقف الجهد السياسي، عندما لم تصل الأمور الى نهاية مرضية للطرفين، فان السياسة اختفت، وبدأت الحرب تتكلم وتعمل بلغة السيف والرمح والسهام، كما تفعل الآن وتتكلم بلغة البندقية والمدفع والطائرة والصاروخ، حدث مثل هذا قبل حرب الجمل، والنهروان أيضا.

ـ لقد بذلت جهداً كبيراً في جمع المعلومات المتعلقة بحروب الامام علي، التي وجدتها كالصورة الممزّقة المنثورة في صفحات العديد من الكتب، فجمعتها الى بعضها البعض، مكوناً منها الصورة المطلوبة بأفضل مايكون، وعندما كنت أقرأ كتب التاريخ، كنت استخلص المعلومات من بين دفاتها، فأجدها كالدّر واللؤلؤ، فاضعها أمامي، حتى تكوّن منها كنزٌ عظيم، أوقعني في حيرة، بذلت جهداً فيه كي أوفَّق الى اختيار أكثرها ملائمة لكتابي هذا.

ــ لقد كانت المدرسة التي تعلّم منها الامام ، كل شيء، بما في ذلك فنون الحرب والقيادة العسكرية، هي مدرسة الرسول الكريم محمد بن عبد الله(ص)، التي كانت زاخرة بالتجارب، فلقد أظهر النبي قدرة فائقة في فهم الحرب ومبادئها: الأمن، المباغتة، الاقتصاد بالجهد، الشؤون الادارية، المحافظة على الهدف، قابلية الحركة، الاعتماد على الهجوم، حشد القوى، الاستخبارات وجمع المعلومات عن العدو والأرض والطقس، كما أنه ابتدع أساليب جديدة في القتال، وهي الغارات بسرايا سريعة الحركة، ينتقل قسم منها على الخيول، والآخر على الجمال، كما أنه يُعتبر أول من نظم جيشاً عربياً، أرسله خارج حدود الجزيرة العربية وهو الجيش الذي أرسله الى الشام، حيث دارت وقعة مؤتة مع الروم. من هذا المنهل نهل الامام علي علمه، وأتقن فنون الحرب وادارتها، ولم يتخلّف عن أية معركة قادها الرسول الكريم ضد أعداء الدعوة الاسلامية، بل أشركه فيها كلها، وكان الفارس والبطل، الذي اعتمد فيها النبي عليه وحده دون غيره، كما حدث في وقعة خيبر مع اليهود، أو كان له القول الفصل فيها، كما حدث في معركة الخندق، عندما جندل عمر بن عبد ود العامري، مصيباً المشركين بالخوف والرعب، محطماً تصميمهم على مواصلة الحرب، والاستمرار في محاصرة المدينة المنورة، مركز الدعوة الاسلامية، يقول اللواء الركن مصطفى طلاس في كتابه (الرسول العربي وفن الحرب) صفحة ٣٠٣: ان النبي(ص) استخلف الامام علي على المدينة في وقعة تبوك، الا أن الواقدي ذكر في كتابة (المغازي)"[١]"، أن النبي استخلف على المدينة في تلك الوقعة سباع بن عرطفة الغفاري، ويقال انه استخلف عليها محمد بن مسلمة، ومحمد لم يتخلف عن النبي غير هذه المرة.

ــ اقدم جزيل شكري وامتناني لكافة الأخوة الذين قدموا لي يد المساعدة في عملي، هذا، واخص منهم، علماء الدين، الذين لفتوا انتباهي الى بعض المسائل الشرعية، التي كنت أجهل قسماً منها، وكذلك الذين قدموا لي جزءاً من المصادر التي اعتمدت عليها في بحثي، او الذين أرشدوني الى بعض الأفكار والمعلومات، او الذين قدموها لي، والله الموفق وبه المستعان.

---

(١) المغازي، الواقدي، الجزء الثاني ص ٩٩٥ . [قرأت مغازي الرسول كلها فلم أجد الامام متخلفاً عن احداها.
* كلما يرد نهج البلاغة في الهوامش فيقصد به النهج لابن ابي الحديد الطبعة الحجرية، الا اذا ورد خلاف ذلك «المؤلف»].

▫ حياة الامام ▫

ــ وهو ابو الحسن، علي بن ابي طالب، واسم ابيه، عبد مناف بن عبد المطلب، واسم جده شيبة بن هاشم، واسم هاشم، عمر بن عبد مناف بن قصي، الغالب عليه من الكنية أبو الحسن، وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله، ابا تراب، وجده نائماً في تراب قد سقط عنه رداؤه وأصاب التراب جسده، فجاء حتى جلس عند رأسه وأيقظه، وجعل يمسح التراب عن ظهره، ويقول: اجلس انما انت ابو تراب، فكانت من أحب كناه صلوات الله عليه، اليه، وكان يفرح اذا دُعي بها، فدعت بنو أمية خطباءها ان يسبوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصة له ووصمة عليه، فكأنما كسوه بها الحلي والحلل، كما قال الحسن البصري رضي الله عنه، وكان اسمه الأول الذي سمته به أمه حيدرة، باسم ابيها أسد بن هاشم، والحيدرة الأسد، فغير ابوه اسمه وسماه علياً، وقيل ان حيدرة اسم كانت قريش تسميه به، والقول الأول أصح، يدل عليه خبره يوم برز اليه مرحب وارتجز فقال:

«انا الذي سمتني أمي مرحبا»، فاجابه عليه السلام رجزاً، «انا الذي سمتني أمي حيدرة»[1].

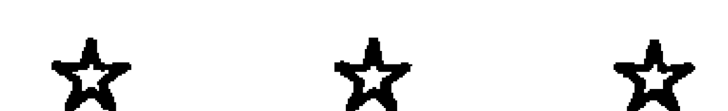
ــ ابن عم الرسول الكريم، وزوج ابنته فاطمة الزهراء، وولداه الحسن والحسين، اللذان قال عنهما النبي: «الحسن والحسين إمامان، ان قاما وان قعدا»، و«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، كان الامام علي اصغر بني أمه، وجعفر أسن منه بعشر سنين، وعقيل أسن منه بعشر سنين، وطالب أسن من عقيل بعشر سنين، وفاطمة بنت أسد أمهم جميعاً.

☆ ☆ ☆

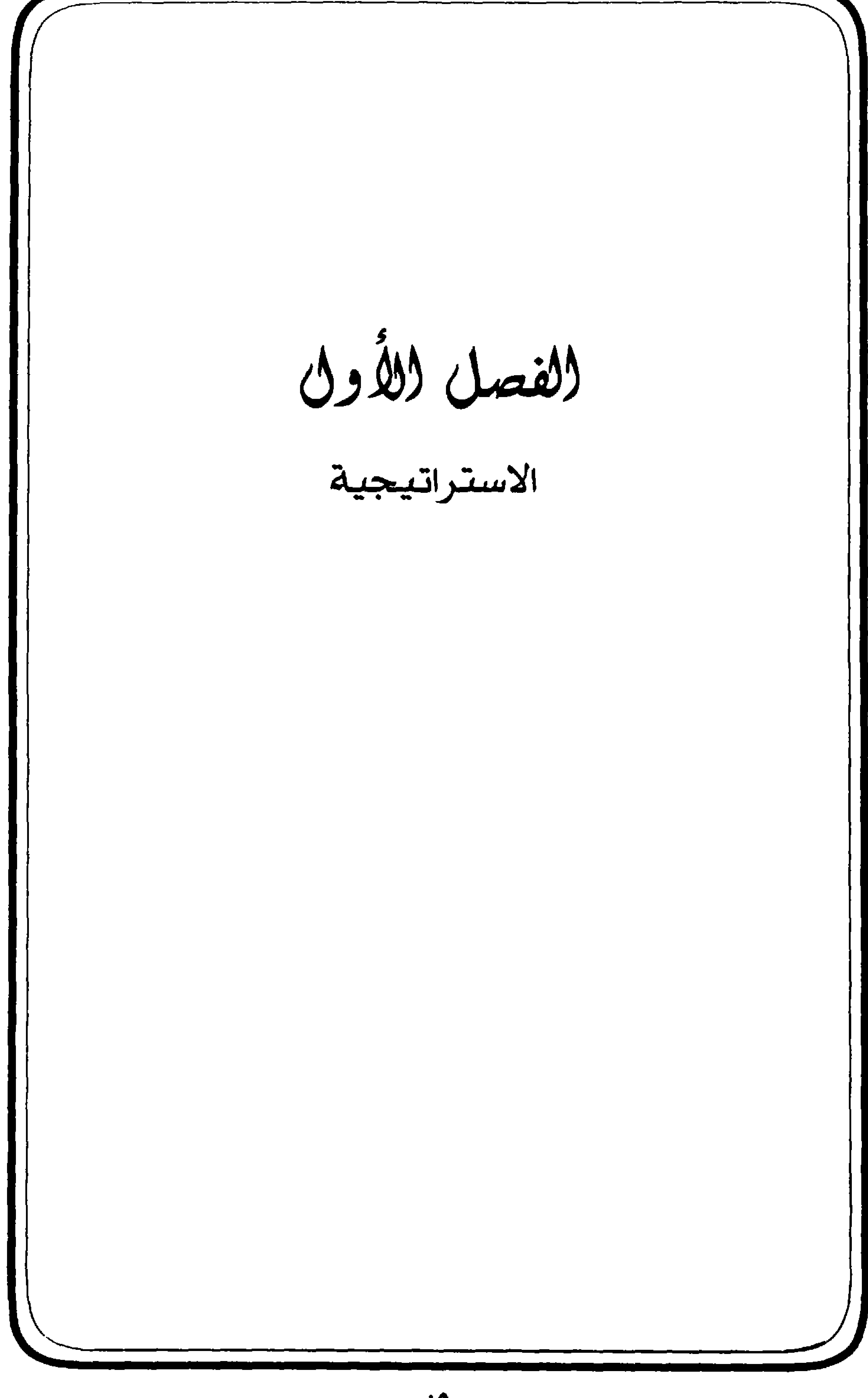
(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، مجلد ١ / ص ٤ .

□ وصف الامام □

ــ يقول نصر بن مزاحم في كتابه وقعة صفين ص ٢٣٣ واصفاً الامام: كان علي رجلاً دحداحاً[١]، أدعج العينين، كأن وجهه القمر ليلة البدر، ضخم البطن، عريض المشربة[٢]، شثن الكفين، ضخم الكسور[٣]، كأن عنقه ابريق فضة، أصلع ليس في رأسه شعر الا خفاف من خلفه[٤]، لمنكبيه مشاش كمشاش السبع الضاري[٥]، اذا مشى تكفأ به ومار به جسده[٦]، له سنام كسنام الثور[٧]، لاتبين عضده من ساعده[٨]، قد أُدمجت ادماجاً، لم يمسك بذراع رجل قط الا أمسك بنَفَسِه فلم يستطع أن يتنفس، وهو الى السمرة، أذلف الأنف[٩]، اذا مشى الى الحرب هرول، وقد أيده الله بالعز والنصر. وقد بدّل ابن أبي الحديد وصفه «رجلاً دحداحاً» الى «رجل ربعة».



(١) الدحداح: القصير السمين، وفي نسخة أخرى: ربعة [موقعة صفين].
(٢) المشربة: الشعر وسط الصدر الى البطن.
(٣) شثن: غليظ. والكسور: الأعضاء.
(٤) الخفاف، بالضم: الخفيف ، وبالكسر: جمع خفيف.
(٥) المشاش، بالضم: رؤوس العظام، مثل المنكبين والمرفقين والركبتين.
(٦) تكفأ جسده: تمايل. والمور: التحرك والمجيء والذهاب، كما تتكفأ النخلة العيدانة.
(٧) في الأصل: «البعير» وسنام كل شيء أعلاه.
(٨) العضد: مابين المرفق الى الكتف، يذكّر ويؤنّث، والساعد: الذراع.
(٩) الذلف: قصير الأنف وصغيره.



الفصل الأول

الاستراتيجية

الاستراتيجية

ـ الاستراتيجية السياسية هي الهدف أو الأهداف، التي تضعها الدولة لنفسها، وتسمّى أيضا، الاستراتيجية العليا، وتتفرّع عنها أنواع أُخرى من الاستراتيجيات، كالاستراتيجية العسكرية، والاقتصادية.. والزراعية، وغيرها، وربما اتفقت بعض الدول على استراتيجية سياسية موحّدة، كالذي حدث في الحرب العالمية الثانية، فقد كانت استراتيجية الحلفاء، ومن ضمنهم الاتحاد السوفيتي، القضاء على النظام النازي واستسلام اليابان دون قيد أو شرط، وبما ان الحرب كانت ولازالت وسيلة من وسائل السياسة، يُمارس فيها الحوار بالمدفع والصاروخ والطائرة وبقية الأسلحة، بدلاً من المذكرات الدبلوماسية والسياسة الأخرى، لذا فان الاستراتيجية العسكرية سوف تكون واسعة وعميقة بالقدر الذي تكون فيه الاستراتيجية السياسية (عظيمة وقوية)[1]، وعندما كانت الاستراتيجية السياسية، في الحرب العالمية الثانية، عظيمة وقوية الى أقصى الحدود، فان العالم كله تقريباً أصبح ساحات حرب طاحنة، اشتركت فيها قوات ضخمة بلغت الملايين من الجنود، والآلاف من الطائرات والدبابات وكميات لاتحصى من الأسلحة الأخرى، وأساطيل كبيرة جابت كل بحار العالم، بل انها انتهت باستخدام الأسلحة الذرية التي أُلقيت من قِبل أميركا فوق مدينتي هيروشيما وناكازاكي، لتعلن استسلام اليابان دون قيد أو شرط، والاستراتيجية العسكرية، هي أقرب الاستراتيجيات الى الاستراتيجية العليا للدولة، وأكثرها التصاقاً بها.

ـ تعرف الاستراتيجية - وهي مشتقة بالأصل من الكلمة اليونانية (ستراتاجم)[2] والتي تعني الخدعة والحيلة - بأنها: «عبارة عن وسيلة لتحقيق اهداف تحددها لها السياسة. وتنبع سياسة بلد ما من الفلسفة السائدة فيه، وهكذا يتعلّق مصير الانسان، بالفلسفة التي يختارها لنفسه والاستراتيجية التي

(١) الوجيز في الحرب، كلاوزفيتز، ص ٤٧٧ .
(٢) حرب الأفكار، عقيد ركن متقاعد عزيز قادر، ص ١٦٨ .

يستخـدمها لتحقيـق انتصـار هذه الفلسفة»[١]. وتختلف الاستراتيجية اذن وفقاً لفلسفة النظام الذي يُنتجها، واختلاف مصالحه القومية عـن مصالح الآخريـن.

الاستراتيجية العسكرية

ــ ولأن الاستراتيجية العليا تختلف من نظام الى آخر، تبعاً لعقيدته وفلسفته، فان الاستراتيجية العسكرية هي الأخرى سوف تختلف أيضا، لانها أساسا نتاجاً للأولى، لذا فإننا سنجد تعاريف كثيرة متباينة طرحها المفكرون العسكريون والقادة السياسيون، تبعاً لطبيعة النظام الذي يشتركون في إدارته، او يوجهونها كلياً.

ــ عرّف الجنرال البروسي كلاوزفيتز، أشهر المفكرين العسكريين خلال القرن التاسع عشر، الاستراتيجية العسكرية بما يلي: «ان الاستراتيجية هي استخدام الاشتباك وسيلة للوصول الى هدف الحرب»[٢]، أي استخدام القتال (المعارك) وسيلة من وسائل الوصول الى هدف الحرب، وأضاف اليها ما أسماه بـ«العناصر الاستراتيجية»، وهي خمسة عناصر لها علاقة مباشرة بالاستراتيجية العسكرية وهي: العناصر المعنوية، والبدنية، والهندسية، والجغرافية، والاحصائية، وتشمل كل مجموعة منها اتجاهات عمل ومؤثرات مختلفة وهي:

١ - العناصر المعنوية: وتشمل كل ما له علاقة بالصفات والتأثيرات المعنوية والفكرية.

٢ - العناصر البدنية: وتبحث حجم القوات وتشكيلها، وتناسب صنوف الأسلحة... الخ.

٣ - العناصر الهندسية: وتتعلق بزوايا خطوط العمليات، والحركات الدائرية او البعيدة عن المركز، عمليات الخرق والاحاطة والتطويق والالتفاف، حيث

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٨ .

(٢) الوجيز في الحرب، كلاوزفيتز، ص ١٧٠ .

اصبحت طبيعتها الهندسية عاملاً ذا أهمية في حساباتنا.

٤ ـ العناصر الجغرافية: وتشمل الأرض، والمناطق الحاكمة، الجبال والأنهار، الغابات والطرق، أي كافة العوارض الطبيعية، ونوع التأثير الذي يتركه كل واحد منها على العمليات، واختيار الشكل المحدد لها بذاته.

٥ ـ العناصر الاحصائية: وتبحث في وسائل التموين، سكك الحديد، عدد العجلات التي يمكن تحويلها لخدمة الجهد الحربي، وتشمل أيضا - في الوقت الراهن بعد التطور الهائل الذي شهدته حقول الصناعة المختلفة - المعامل والورشات القابلة للتحوّل من الانتاج المدني الاعتيادي الى الانتاج الحربي.

ـ يعارض ليدل هارت تعريف كلاوزفيتز هذا في كتابه «الاستراتيجية وتاريخها في العالم»، ويرفض اعتبار الاشتباك الوسيلة الوحيدة للوصول الى هدف الحرب، ويقدم تعريفا آخر: «الاستراتيجية هي فن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق هدف السياسة»[١]، كي يشمل كافة الوسائل العسكرية المتيسرة وليس الاشتباك وحده، رابطاً الهدف بالسياسة وليس الحرب، وهو تعريف أكثر شمولية.

ـ اما الجنرال الفرنسي اندريه بوفر فيعرفها بأنها: «فن حوار القوى، او بالاحرى فن حوار الارادات التي تستخدم القوة لحل خلافاتها»[٢].

ـ أما القائد البروسي «مولتكه» فيعرف الاستراتيجية بانها: «اجراء الملائمة العملية للوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد للوصول الى الهدف المطلوب»[٣].

ـ اما هيئة أركان حرب القوات المسلحة الأمريكية فقد حددت مفهوم الاستراتيجية عام ١٩٥٩ بأنها: «فن وعلم استخدام القوات المسلحة للدولة لغرض تحقيق أهدافها السياسية عن طريق استخدام القوة المسلحة، او التهديد باستخدامها»[٤].

ـ وعلى الرغم من كون النظام السوفيتي قد انتهى، لكننا نورد وجهة النظر السوفيتية، لاظهار كيف ان الاستراتيجية تتأثر تأثراً مباشراً بنوع النظام الذي

---

(١) الاستراتيجية وتاريخها في العالم، ليدل هارت، ص ٣٩٧ .
(٢) البحر في الاستراتيجية الحديثة، ل. دبليو مارتن، ص ٨ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٨ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٨ .

ينتجها، واهدافه التي ينشدها والتي تشدها اليه. ويعرفها المارشال سوكولوفسكي في كتابه «الاستراتيجية العسكرية السوفيتية» بأنها: «نظام المعلومات العلمية والعملية عن القواعد القياسية للحرب كصراع مسلح يخدم مصالح طبقية معينة، وعلى أساس خبرة الحروب والموقف العسكري السياسي، والامكانيات الاقتصادية والمعنوية للدولة، والوسائل الجديدة للصراع المسلح ونظرات العدو المحتملة، تقوم الاستراتيجية بدراسة أحوال وطبيعة الحرب المقبلة، وفي الوقت نفسه هي ميدان النشاط العلمي للقيادات السياسية العليا، والقيادة العسكرية العليا، والرئاسات المختلفة التي تهدف الى فن تجهيز الدولة»[1]، ويبدو التأثير الايديولوجي واضحا على التعريف، رغم كونه متماسكاً الى حد ما، وهو يلبي حاجة فلسفة النظام نفسه، لانه يتحدث عن القواعد القياسية للحرب كصراع مسلح، وهو يعني بالمفهوم الماركسي، ثبات أسس معالجة الحرب والالتزام بهذا السياق «العلمي»، مما يعني في آخر المطاف، إفراغ الاستراتيجية من المفاهيم الانسانية، كالصدفة في الحرب، وظهور مواقف غير محسوبة، ولأن الحرب هي اللعبة الوحيدة التي تخضع للصدفة والمجهول[2]، فان هناك تعارضاً واضحاً مع الاحتمالات الانسانية، ومن الناحية العسكرية الصرفة، فان الجيش الأحمر كان لايسمح لأي نوع من الصدفة أن تجد لها مكاناً خلال الاداء العسكري، ولا العامل الانساني الذاتي ان يجد له طريقا، بحيث انعكس ذلك على التنظيم العسكري للجيش الأحمر نفسه، الى الدرجة التي أصبح فيها الضابط السياسي، والذي يشكل وجوده الالتزام بالخطط الموضوعة، موجوداً في ملاك الجيش في مختلف المستويات، حتى سرية المشاة والدبابات وبطريات المدافع، وكل الوحدات الفرعية في نفس المستوى، لامكان ضبط الحركة كلها في اطارها المرسوم في الخطط فقط، مع العلم بأن جيوش العالم الأخرى، خارج ماكان يسمى بالمعسكر الاشتراكي، يقتصر وجود ضابط التوجيه السياسي فيها على مستوى الفوج وما يعادله فقط.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨ .

(٢) كما حصل عند اسقاط ثلاث طائرات سمتية لدول التحالف في شمال العراق بواسطة طائرات مقاتلة صديقة، قيل عن طريق الخطأ.

ـ اما الجنرال ستروكوف، فيوضح الاستراتيجية بقوله: «تتضمن الاستراتيجية دراسة أساليب وأشكال خوض الصراع المسلح واعداد القوات المسلحة واستخدامها في الحرب»، وهي «تهتم بخوض الحرب بالكامل وبالحملات العسكرية».

ـ في مقدمة كتاب «الاستراتيجية البحرية» تأليف برنارد برودي، يتعرض اللواء أركان حرب سعد الدين صبور الى الاستراتيجية مختصراً معناها «ان الاستراتيجية هي التهديد للحرب، ثم ادارة الحرب نفسها، وهي في أضيق تعريف لها (فن القيادة العسكرية او البحرية) أو (فن ادارة وتوجيه المعارك) وهي تختلف عن التكتيك، وهو فن استخدام الجنود او السفن في المعركة، كما يختلف عزف الفرقة الموسيقية (الأوركسترا) باكملها عن عزف كل آلة على حدة»[1]، وفي هذا يدخل مفهوم عسكري جديد هو التكتيك.

ـ ان اغلب التعاريف التي أوردناها عن الاستراتيجية العسكرية، يجمعها قاسم مشترك بصورة واضحة، وهو أن مفهوم الاستراتيجية يشمل الخطط والوسائل والقرارات التي تعالج الحرب، والذي يخدم الهدف السياسي الذي تقرره القيادة السياسية. ان التعريفات التي ذكرناها يتعلق معظمها ويتصل بمدى صلة القيادة العسكرية التي تضع وتنفذ الخطط الاستراتيجية بالسياسة العامة للدولة التي تقف وراءها وتحدد أهدافها.

ـ لتطور وسائل الاتصال التي وصلت الى درجة من الرقي ما يجعل ميادين وساحات الحرب على امتداد الكرة الأرضية تُنقل على شاشات التلفزيون في مقرات قيادة العمليات في الدول الكبرى، تقدم تفاصيل دقيقة عمّا يجري في تلك الساحات من حركة القوات البحرية والجوية والأرضية، وتطور وسائل الحصول على المعلومات وجمعها وتصنيفها وتحليلها، عن كل مايتعلق بنواحي النشاط الأخرى: السياسية والاقتصادية والعلمية، كان لهذا التطور في المعدات، الأقمار الصناعية، أجهزة الاتصال المتطورة، طائرات الاستطلاع المسيّرة وغير المسيرة، امكانية دفع قوات كبيرة مدرعة ومنقولة جواً الى ساحات واسعة وبعيدة، اساطيل بحرية، قوات جوية بامكانها أن تطير ألاف الكيلومترات، لتهاجم

(١) البحر في الاستراتيجية الحديثة، ل. دبليو مارتن، ص ٩ .

اهدافها عبر القارات، الاستخدام الواسع للعقول الالكترونية التي بامكانها ان تخزن معلومات تفصيلية لاغراض مختلفة، إحصاءات دقيقة عن تطوّر الاقتصادين الاقليمي والعالمي، كل ذلك مكّن الدول المالكة لتلك الامكانيات من انتاج استراتيجية عليا قوية وعظيمة، تمتلك أكبر قدر ممكن من عناصر التفوق، وقد انتجت تلك الاستراتيجية، استراتيجية اخرى ترتبط بها ارتباطا وثيقاً، وهي الاستراتيجية العسكرية، وهي بالتأكيد استراتيجية قوية ومتفوقة، وهذا ماشهدته الحربان العالميتان الأولى والثانية، وما شهدته الحروب اللاحقة بعدهما بوضوح شديد، او ماشهدته حقبة الحرب الباردة، التي انهمكت فيها الدول الكبرى في سباق محموم في التسلح، الناجم أساساً عن الحاجة الى اللحاق بالاستراتيجيات الكبرى التي كانت تتبدل من مرحلة تاريخية الى اخرى.

ــ من المؤكد ان القادة العظام في تاريخ الحروب، كان يمكنهم ان ينتجوا استراتيجية عسكرية عظيمة، لو توفرت لديهم وسائل كالتي تتيسر الآن، خاصة وسائل الاتصال اللازمة للسيطرة على حركة القوات، اضافة الى الاسلحة المتطورة والمتنوعة التي يمسك بها قادة وجنود جيوش العصر الراهن، ومع ذلك فان العديد من الاستراتيجيات العسكرية في الماضي، لم تكن عاجزة او متخلفة، لو قارناها مع الاستراتيجيات العسكرية الحديثة، فقد شهد العالم قادة افذاذاً مثل الاسكندر المقدوني وآخرين، انتجوا استراتيجيات غاية في القوة، وعندما تطورت الاسلحة وتيسرت وسائل اتصال بسيطة جديدة (التلغراف)، ظهر نابليون كأعظم قائد استراتيجي، على الرغم من أن بعض المحللين العسكريين، يرى فيه بانه كان أميَل الى اتقان التعبية منه الى الاستراتيجية، خاصة الاستراتيجية العليا، وحركات الجيوش الاسلامية من الجزيرة العربية، والتي اتجهت في آن واحد، الى العراق والشام، فاسقطت الامبراطوريتين الفارسية والرومانية، كانت حركاتها عبر ساحات الحرب ذات سمات استراتيجية واضحة ومؤكدة.

ــ من الصعب جداً فصل الاستراتيجية العليا عن الاستراتيجية العسكرية، فهما متداخلتان الى درجة ان اغلب التعاريف السابقة قد ركزت على الاستراتيجية وكأنها اداة لتنفيذ أهداف الحرب، الا أن تطور الاسلحة من حيث المدى والتدمير في العصر الحديث - خاصة الأسلحة النووية - كان له تأثير كبير

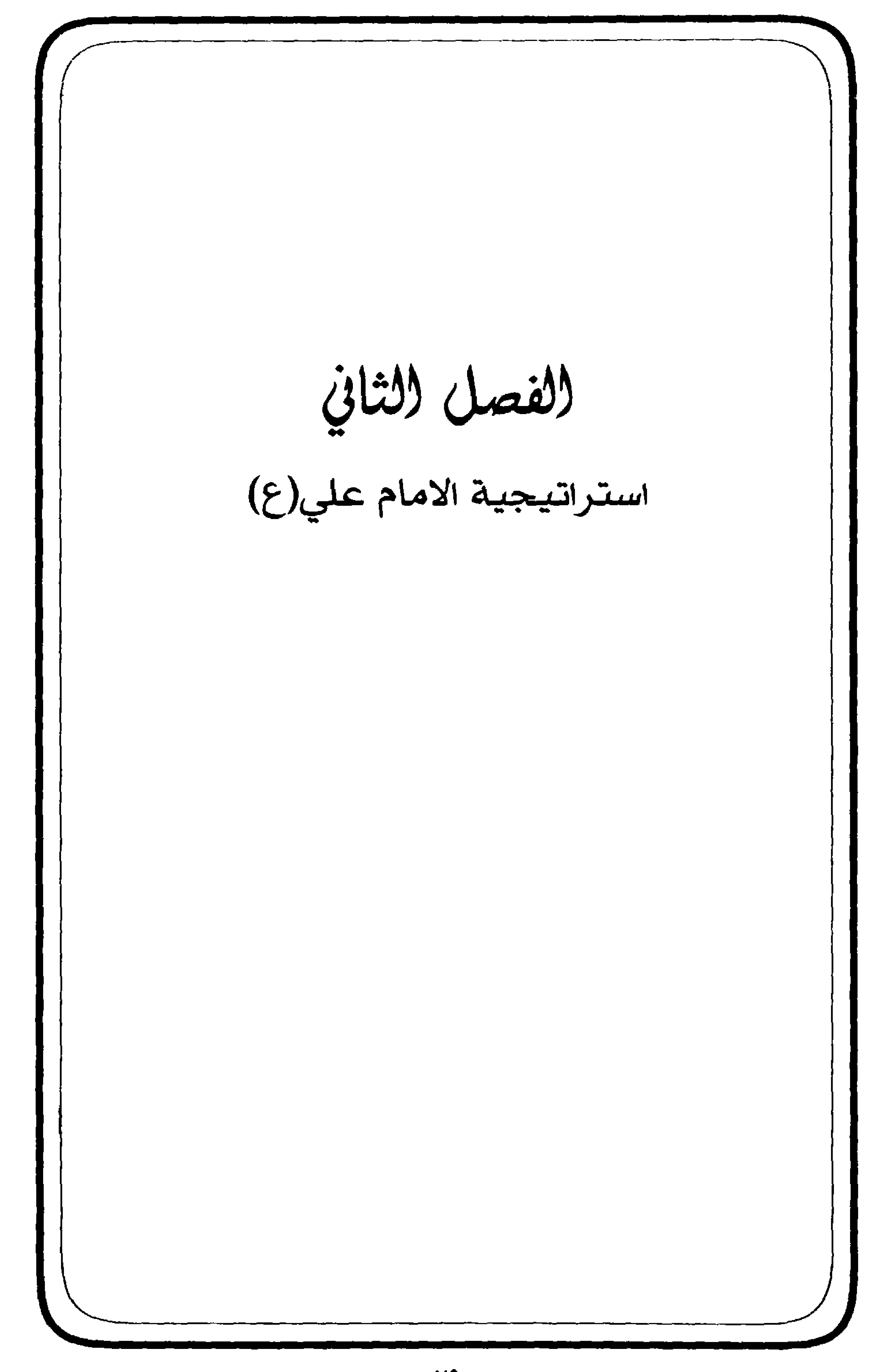
على الاستراتيجية العليا، فاصبح من الصعب على القادة السياسيين وحدهم ان يقرروا السياسة الخارجية، بل وحتى الداخلية لبلدانهم، دون أن يشاركوا القادة العسكريين آراءهم، مما أفسح المجال للعسكريين في المشاركة في تعيين الأهداف الاستراتيجية العليا، لأن القادة السياسيين اصبحوا مضطرين الى الوقوف على تأثيرات تلك الاسلحة وخصائصها، مما اتاح بدوره لمشورة العسكريين أو مشاركتهم، ان تؤثر كثيراً في تلك الأهداف.

ـ وتتفرع عن الاستراتيجية العليا للدولة - وهي الهدف او الأهداف التي تنشدها من سياستها في حقبة تاريخية او مرحلة معينة من مراحل الصراع - عدة استراتيجيات كاستراتيجية النفط، حجم الانتاج السنوي، اسعاره، تسويقه، خطط تطوير الانتاج والسيطرة عليه، ثم استراتيجية التنمية، اتجاهات التنمية لفترة زمنية محدودة، كالتركيز على الصناعة أولاً او الزراعة، البدء من الصفر، او بطفرة لغرض اللحاق بالدول المتقدمة، نوعية الانتاج.. الخ، والاستراتيجية الزراعية، الاتجاهات الرئيسية في خطة الانتاج الزراعي، كوضع خطة خمسية لانتاج القمح، بحيث يصل الى تأمين احتياج الاستهلاك الداخلي بنسبة ٩٠٪ من حاجته، ثم الانتقال الى مرحلة أخرى، انتاج نوع من المحاصيل الزراعية التي تدخل في الانتاج الصناعي ضمن خطط محددة، وهكذا. كما ألّف الفريق أول محمد فوزي كتاباً اسماه «استراتيجية المصالحة»، وقد يذكرنا هذا المصطلح الجديد بصلح الامام الحسن مع معاوية، وهناك «الاستراتيجية الاسرائيلية لتطبيع العلاقات مع الدول العربية»، وهو ماتحدث عنه الدكتور محسن عوض في كتاب يحمل نفس العنوان.

ـ والخلاصة فان الاستراتيجية العسكرية: هي كافة الترتيبات التي تتخذ لاستخدام القوة العسكرية والوسائل العسكرية الأخرى لتحقيق اهداف الدولة العليا الاستراتيجية العليا، وتدخل ضمن هذا المفهوم تحريك الجيوش او العجلات او السفن، ووضع الخطط لذلك، وتهيئة وتنظيم أكبر مايمكن من العجلات ذات الاختصاصات المستخدمة في غير المجالات العسكرية، ولادخالها في خدمة الجيوش... الخ، اما التعبية فهي استخدام الوحدات والتشكيلات مع الصنوف الداعمة لها في ساحة المعركة.

ـ كلما ترد الاستراتيجية العسكرية في هذا المبحث، فان مايقابلها باللغة العربية هو السَوْق، أما التكتيك، فتقابله التعبية.





الفصل الثاني

استراتيجية الامام علي(ع)

استراتيجية الامام علي(ع)

ـ أوضح الامام علي الاستراتيجية العليا للدولة الاسلامية في المرحلة التي تسلم فيها الخلافة في بيانه الأول عندما بويع في مسجد المدينة، بيعة كانت تتجلى فيها ارادة الأمة كلها، وكان خطابه الذي تلى البيعة يوضح بصورة كاملة أهداف الحكم الذي سيتولاه، وبالتأكيد فان استراتيجية الدولة الاسلامية العليا سوف تتغير عندما ينتهي من المهام العاجلة التي اوضحها في خطبته تلك، والتي تهتم بالعدالة المطلقة واستعادة ما وُزّع من أموال المسلمين بدون حق، واذا لم تتغير كليا، وهذا ماكان متوقعا بسبب وجود عناصر ثابتة فيها، فان تعديلات هامة سوف تجري عليها تبعا لما تفرضه المرحلة اللاحقة، «.. أيها الناس.. انا رجل منكم، لي مالكم وعلي ماعليكم، واني حاملكم على نهج نبيكم، ومُنفّذ بكم ما أُمرت به... الا ان كل قطيعة أقطعَها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال.. فان الحق لايبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء.. وملك الاماء وفرق في البلدان لرددته، فان في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق... ايها الناس.. الا يقولن رجل منكم غداً، قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرفقة، اذا منعتم ماكانوا يخوضون فيه واصرتهم الى حقوقهم التي يعلمون، «وصرفنا ابن ابي طالب حقوقنا».. الا وايما رجل من المهاجرين والأنصار من اصحاب رسول الله، يرى ان الفضل له على سواه بصحبته، فان الفضل غداً عند الله، وثوابه واجره على الله، الا وايما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتنا، ودخل ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده، فانتم عباد الله.. والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء، فاذا ماكان الغد، فاغدوا علينا ان شاء الله، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي كان من أهل العطاء...»[1].

ـ بهذا الوضوح التام بيّن الامام السياسة المقبلة للدولة، العدالة الحقيقية،

---

(١) الامام علي بن أبي طالب، عبد الفتاح عبد المقصود، المجلد الأول، جزء٢، ص ٢٢٦ .

واسترجاع ما أخذ من غير حق من أموال المسلمين، تقسيم العطاء بين المسلمين بالسوية، لافرق بين عربي أو أعجمي، وهي عودة الى روح الاسلام وتعاليمه التي سار عليها الرسول الكريم ومن بعده الخليفة أبو بكر.

ـ وكان قد بدأ بتغيير طاقم الحكم الذي كان يعتمد عليه سلفه، والذي كان سبباً في تدهور الوضع السياسي وهياج الرأي العام، وكان أن ارسل عماله الى الأمصار «فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة، وكانت له هجرة، وعبيد الله بن العباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر، وسهل بن حنيف على الشام»[1]، وكان واضحاً ان سهل بن حنيف لن يستطيع أن يصل الشام وبها معاوية الذي تمكن منها، وبدأ بالشقاق والتمرد. وقد كانت استراتيجية الامام علي العسكرية تستند اساساً الى استراتيجية الدولة الاسلامية العليا في بداية عهده، أي ان سوق الجيوش الى ساحات الحرب، كان يهدف الى عزل كل من يخالف توجهاتها، وكان الهدف ازاحة معاوية عن ولاية الشام، بعد أن رفض امر الامام بترك الامارة عليها واعلان البيعة، ولولا توجه طلحة والزبير الى البصرة ونكثهما البيعة، لكانت حركة الامام ستكون مباشرة الى الشام.

ـ مما لاشك فيه بان أكثر الاستراتيجيات في العالم ثباتاً في عناصرها ومكوناتها، قابلة للتغيير - ليس كليا بالطبع - ولكن الظروف المتغيرة والتي تنجم عن انجاز الأهداف الاستراتيجية لمرحلة تاريخية معينة او جزء منها، سوف يطرح بالتأكيد اهدافاً جديدة (أي استراتيجية جديدة) تحمل عناصر ومكونات جديدة فرضتها ظروف المرحلة الجديدة ضمن الاطار العام للاستراتيجية التي سبقتها، فلو أن الامام كان قد انجز انتصاره على معاوية في حرب صفين - على سبيل المثال - فان استراتيجيته العسكرية سوف تأخذ منحىً جديداً، سببه الانتقال الى مرحلة جديدة، لها اهداف ومهام جديدة، وعلى رأسها بناء وترصين الدولة ومؤسساتها المختلفة، لان اوضاعها الداخلية سوف تستتب، مما سيدفعها لصنع استراتيجية جديدة، نابعة من حاجة الاسلام الى الانطلاق نحو العالم، وبما أن الدولة الاسلامية كانت لاتزال محاطة بالاعداء، الدولة البيزنطية في الشمال، وبقايا الامبراطورية الفارسية في الشرق، فان هذه الاستراتيجية سوف تُنتج

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، الجزء الثالث، ص ٤٦٢ .

استراتيجية عسكرية جديدة تلبي حاجة ومتطلبات الأهداف الجديدة لسياسة الدولة العليا، وهذا ماكان سيحدث بالتأكيد، علماً بأن اغلب القادة الذين شاركوا الامام في حروبه، كانوا قادة أو مشاركين على رأس فرقهم في حروب الفتح السابقة، كهاشم المرقال ومالك الأشتر ومحمد بن ابي بكر، وعمار بن ياسر، وحجر بن عدي. ولأصبحت استعدادات الدولة متجهة هذا الاتجاه، لأن الصراع لم يكن له أن يتوقف، وان الهدنة التي عقدها معاوية مع الروم الذين كانوا يرون - في الحرب الداخلية التي اندلعت على حدودهم - في قتال المسلمين فيما بينهم مكسباً لهم، تلك الهدنة سوف ينقضها الروم مباشرةً بعد انتهاء القتال، لاعتقادهم بان الوضع الذي انتهى اليه المسلمون سوف يشجعهم على ذلك، خاصة وان الامام علي لم يعقد معهم مثل هذا الصلح وهو في حل منه.

ــ يعني ذلك ان الامام سوف يقوم ببناء جيش قوي مجهز بكل الاسلحة المعروفة في ذلك الحين، كي يوازن تسليحه مع مايملكه الروم من أسلحة ودروع، كما ستتيح فرصة انتهاء القتال الداخلي، انهاء الخلافات وترتيب الأمور بصورة تلائم التوجه الجديد، خاصة فيما يتعلق بتعداد المقاتلين الذين ستنخرط منهم اعداد كبيرة في القتال المقبل، بعد أن تكون حجة من امتنع عن الاشتراك بالحرب الداخلية قد فقدت مبرراتها.

ــ ان مظاهر تبدل الاستراتيجيات العليا للدول باتت واضحة للعيان، فاذا لم يجر تبديل تلك الاستراتيجيات، بصورة كاملة، كما حدث لروسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، فان تحويرات وتعديلات هامة تدخل عليها، في أقل تقدير، كما حدث دوما للاستراتيجية الأميركية، فالاستراتيجية الأميركية العليا، قد شهدت تغييرات كثيرة، وادخلت عليها عناصر جديدة منذ الحرب العالمية الأولى. فاميركا التي كانت غير مهتمة الا بالقارتين الأميركيتين الشمالية والجنوبية، والتي كانت لاتسمح لاحد ان ينافسها او يزاحمها في الاستحواذ عليها، بدأت بعد الحرب العالمية الثانية تنظر الى العالم نظرة جديدة، وما أن انتهت الحرب، حتى وجدت اميركا نفسها في مواجهة التزامات واهداف مختلفة، المحافظة على اوربا الغربية حليفتها، الامساك بمنابع النفط في الشرق الأوسط، حماية جنوب شرقي آسيا مما كانت تسميه الخطر الشيوعي، الا أن تلك الاستراتيجية قد طرأ عليها تحوير

جديد بعد انتهاء حرب فيتنام، وخروج اميركا مهزومة فيها، .. وهكذا فان استراتيجية الثمانينات تختلف عنها في التسعينات، بسبب سقوط الاتحاد السوفييتي.. وهكذا..

ـ كانت الاستراتيجية العسكرية للامام علي في مرحلة تسلمه الخلافة، ترتكز على عنصرين اساسييّن الأول، اظهار قوته وعزمه على القضاء على عناصر الفتنة والتوتر، باظهار الاستعداد التام للقتال، والتهيؤ له، وثانيهما؛ اعذار الخارجين عن طاعته وسلطته ومحاججتهم واعطاؤهم الفرصة للعودة الى طريق الحق الذي يدعو اليه، وهو مافعله دائماً، ولم يتراجع عنه طيلة فترة الصراع التي استغرقت سني خلافته.

ـ بالطبع ان استراتيجيةً - اي استراتيجية - لم يكن لها أن تأخذ طابعها الذي تتسم به وخططها واهدافها دون أن تكون هناك استراتيجية اخرى مقابلة لها تناقضها في الأهداف وتختلف عنها بصورة أو باخرى، وهذا مما سيدفعها الى التصادم معها، الى أن تتغلب الأقوى منها، على الأخرى، عندما لايكون هناك اي مجال للتآلف معها. فالاستراتيجيات المتناقضة سوف تنهي احداها الأخرى حتى لو تم اجراء تحويرات مرحلية على احداها لرفع او ايقاف عناصر الصدام، فلم تنفع خروشوف سياسة التعايش السلمي، ولم يتغلب على المشاكل التي كانت تسببها اميركا له، لأن التعايش السلمي هو الآخر قد فتح ابواباً جديدة في الصراع، هو صراع من نوع آخر، صراع القوى الاقتصادية التي كان الاتحاد السوفييتي يعجز فيها عن اللحاق بها في آخر المطاف.

ـ اما في حالة وجود نقاط التقاء كثيرة، او حتى قليلة احياناً، بين بعض الاستراتيجيات في ساحة الصراع، فانها سوف تلتقي، وربما ستنضوي تلك التي لاتملك وسائل كبيرة وقوية تحت ظل تلك التي تمتلك منها الكثير. ان حجم القدرة هو الذي سيحدد من التي ستكون سائدة، وربما يشكلان تحالفاً مؤقتاً او دائمياً، على ضوء الظروف التي تفرزها كل مرحلة من مراحل الصراع، فاستراتيجية نابليون التي كانت تعتمد على توحيد اوربا امام بريطانيا، ومقاطعتها تجارياً، كانت تقابلها استراتيجية بريطانية تسعى الى ابقاء اوربا تعيش سياسة المحاور، وابقاء السيطرة كاملة على الطرق البحرية التجارية منها الى مستعمراتها والعالم

وبالعكس بايديها، وبريطانيا ظلت حليفاً دائماً لاميركا بصورة واضحة منذ الحرب العالمية الثانية، اما فرنسا في عهد ديغول، فكانت لها استراتيجية خاصة بها، مما دفعها الى تجميد عضويتها في حلف الناتو، والاعتماد على نفسها في الدفاع عن مصالحها، وانشأت لها قوة ذرية رادعة خاصة بها، بل ان استراتيجيات متناقضة تماماً ائتلفت، كما حدث بين الحلفاء والاتحاد السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية، والتي سرعان ما افترقت بعد انتهاء الحرب، لأن اهداف كل منهما بدت متناقضة، بعد انتهاء مرحلة الوفاق ضد عدو واحد.

ـ وقد كانت استراتيجية الامام علي واضحة تماماً، تعتمد على تكتيك لا التواء فيه للوصول الى اهداف استراتيجية: العودة الى روح الاسلام التي كانت شائعة عند قيام الدولة الاسلامية الأولى في المدينة المنورة. ذلك النهج الذي حدده القرآن وسيرة الرسول الكريم. وكانت الاستراتيجية التي تصارعه هي استراتيجية معاوية، معتمدة على: التكتل: التهديد، الايهام، الغدر، التآمر، الرشوة، والتواطؤ، استخدام السم ممزوجاً بالعسل، فالغاية عند معاوية تبرر الوسيلة. كان الامام يهدف الى طرح نموذج خلقي، يضع المثل العليا نصب عينه بعيداً عن تأثيرات استخدام بيت المال، العلاقات العشائرية، استثارة المطامح والمطامع، المهادنة لكسب الوقت، النكث بالعهود. ولم يكن تحقيق النصر لديه هدفاً بحد ذاته، وانما كان وسيلة لاقرار تلك الأفكار والاعتراف بسيادتها بين المسلمين، أكثريتهم على الأقل، للانطلاق نحو انشاء وبناء دولة تستند على تلك الأفكار عينها.

ـ ومن هذا المنطلق، تلاقت استراتيجية معاوية مع استراتيجية طلحة والزبير، فقد كتب معاوية الى الزبير كتاباً يلقبه فيه بأمير المؤمنين، وانه يرشحه للخلافة بدلاً من الامام، ويدعوه للتوجه الى الكوفة والبصرة، والانطلاق منهما للوقوف امام الامام وخلع عصا الطاعة عنه، والأخذ بما سموه ظلماً (الثأر لدم عثمان)، يخفون وراء هذه الدعوى مطامعهم واهواءهم، بعد أن ألبوا عليه وساهموا بالتحريض على قتله.

ـ وتشبه لعبة السياسة لعبة القمار المشهورة (البوكر والبريدج) بالنسبة لسياسيي «الغاية تبرر الوسيلة»، الذين وقفوا ضد الامام وضد الحق على امتداد

التاريخ. لقد كان المصلحون الأفذاذ على امتداد صراع الحق مع الباطل، خارج تلك اللعب، لأن اساليبهم في التعامل مع الأزمات والمصالح لاتنسجم وشروطها ومتطلباتها. «تسهم نظرية اللعب في بيان حقيقة المفهوم السياسي للقدرة، وتسهم ايضا في توضيح الطرق، التي يمكن لذي القدرة ان يستخدمها في مواجهة قدرات الآخرين، وتبرز هذه المواجهة اهمية مفاهيم التكتل والتهديد، والتخطيط، والايهام، والغدر، والرشوة والتواطؤ، وتبدو كل هذه المفاهيم كموضوعات جلية في التحليل العلمي السياسي لعملية صنع القرار، ولايكتمل هذا التحليل الا اذا دخل فيه مفهوم الاستخبار، اي المعلومات التي يمكن أن تستخدم في أي طور من اطوار اللعبة»[1]، هكذا السياسة منذ أن بدأت عندما اخذت الدولة مفهومها والى أن تصل الدنيا نهايتها. فلقد لعب المقامرون مع بعضهم ليخرجوا بقرار العصيان والتمرد، وعندما كانوا يحتاجون الى توحيد الصف تبدأ الصفقات، كما ابرم معاوية عهده لعمر بن العاص، وكانت مصر هي الترضية، وكما اغرى معاوية الزبير بالخلافة، وعندما تحتاج اللعبة الى ان يحجبوا اوراقهم ومقاصدهم عن بعضهم، كانت الأمور تأخذ في ظاهرها منحى آخر، فهذا يشجع ذاك موهماً اياه بانه موشك على النصر، بينما هو يحفر له حفرة لاقرار لها، بل ان معاوية كان قد زور كتابا عن سعد بن عبادة والي الامام على مصر، وقرأه على أهل الشام، كي يظهر لهم مقدار وحجم المعارضة التي يلقاها خصمه، ومن ثم بث الشكوك بين سعد والامام بانه على علاقة معه، فينفر منه الامام ويرتاب، كما اتصل بعبد الله بن عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص يحثهما للدخول في الجبهة المعارضة لأن لهما افضلية واضحة، لكون الأول ابن الخليفة، والثاني من أهل الشورى واوائل المجاهدين في الاسلام، الا انهما رفضا ذلك ودفعا معاوية بشدة لعدم ثقتهم به. وعندما تنتفي الحاجة الى الحليف، فانه سيلقى حتفه مخلياً الساحة للذي يليه، هكذا فعل مروان بن الحكم مع طلحة بن عبيد الله في معركة الجمل، فقد رماه بسهم قتله بعد أن تأكد بان الحرب ستنتهي بخسارتهم، اذن فلاحاجة لوجود منافس آخر، فتمت تصفيته غيلة. وقد دفع معاوية طلحة والزبير الى الفخ وتركهما وحيدين، وكان يستطيع أن ينجدهما،

---

(١) علم السياسة، د. حسن صعب، ص ٢١٩ .

فانتهت حركتهما تلك النهاية المفجعة، وفي السياسة بصورة خاصة، (ليس المهم مايقال، بل المهم مالم يقل) اللعب وراء الاستار والخفاء.

ـ والذين يعيبون على الامام انه لم يكن سياسياً بما يكفي، لايعون تماماً تلك الحقائق، وهم لايفرقون بين سياسة الانبياء والمصلحين وبين سياسة الدجالين ومنتهزي الفرص.

ـ لابد لنا أن نوجز استراتيجية الامام العسكرية، حيث ان الصراعات اللاحقة التي ادارها ارتكزت تماماً عليها، فقد سارت باتجاهين:

الأول: القضاء على الذين نكثوا البيعة له، والذين اتجهوا نحو البصرة يقودهم طلحة والزبير، تصحبهم عائشة زوجة النبي.

الثاني: التوجه نحو الكوفة واتخاذها مقراً لادارة الدولة، حيث يتم تجميع القوات من الأمصار الخاضعة له، ثم التحرك منها الى الشام للقضاء على الفتنة التي اججها معاوية، وانهاء العصيان. على ان يرافق كل مجهوداته تلك اعذار خصومه ومناوئيه ومحاججتهم.



الفصل الثالث

الموقف السياسي

الموقف السياسي

ـ كانت وفاة عثمان لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة، يوم الجمعة وبويع الامام علي يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة، في فترة اضطراب شديدة عاشتها الدولة الاسلامية على امتدادها. فلقد شهدت المدينة توافد مجموعات كبيرة من الأقطار الاسلامية، مصر والعراق، الكوفة والبصرة، كات تروم الاحتجاج على عثمان على بعض الأمور التي اتاها، وجدوا فيها خلافاً، وكان هؤلاء يلقون التشجيع والدعم من الكثير من أقطاب قريش وكبار الصحابة، امثال طلحة والزبير، ثم كانت زوجة النبي عائشة من المحرضين على عثمان، وكان قولها المشهور «اقتلوا نعثلاً فقد كفر»[1]، يقول ابن الأثير في تاريخه ص ١٥٠ المجلد الثالث عن حوادث سنة ٣٥: «في هذه السنة تكاتب نفر من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وغيرهم بعضهم الى بعض: أن أقدموا فان الجهاد عندنا، وعظم الناس على عثمان ونالوا منه، وليس أحد من الصحابة ينهى ولا يذب الا نفر، منهم: زيد بن ثابت، وأبو أُسَيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت»[2]. وكان أن قتل الخليفة عثمان، وهرع الناس الى الامام يبايعونه، وبعد أن رفض الامام طلبهم عدة مرات، طلب منهم أن يجتمعوا، (الأنصار والمهاجرين)، في المسجد ويبايعوه هناك، وكان يريدها بيعة شاملة وصريحة وعامة، على الأشهاد، لكنه لم يجبر أحداً على البيعة، والذين رفضوا أن يبايعوه، تركهم أحراراً في اختياراتهم. وكان من بين الذين لم يبايعوه، عبد الله ابن عمر بن الخطاب، وسعد بن ابي وقاص، ولم يبايع عدد من الأنصار منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد وآخرون، ولم يخل هذا الأمر من آثار سيئة على الوضع السياسي العام داخل الدولة الاسلامية، فقد شهدت الأقطار الاسلامية واقع الانقسام، واختلاف الآراء، خاصة في المدينة ومكة والبصرة ومصر، بل ان الخلاف بين المسلمين كان واضحاً

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣، ص ٢٠٦

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٦ .

حتى في الكوفة نفسها، التي تعتبر موالية بصورة تكاد تكون قاطعة للامام علي، اما الشام فكان لها شأن آخر، فهي مقاطعة تماماً، معلنة عدم ولائها للعهد الجديد.

ـ ولم يكد طلحة والزبير يبايعا الامام حتى نكثا العهد وتوجها الى مكة بحجة العمرة، ملتحقين بعائشة، التي كانت قد توجهت الى مكة قبل مقتل عثمان، كما أن بني أمية قد تركوا هم أيضاً المدينة، قبل مقتل عثمان وبعده، تاركين المدينة على اعتبار ان الثوار يعتبرونهم سبباً لكل الانحرافات التي حدثت، والتي احتج بها الثوار على عثمان، وبنو امية هم عشيرة عثمان وأهله والمستفيدون من حكمه. لقد شكل هذا التحرك تهديداً لم يكن الامام قد توقعه، فقد اعتبر الامام ان معاوية، في الشام، هو الخطر على دولة الاسلام، وان الأولوية ستكون بحسم الموقف في الشام، صحيح أن الزبير وطلحة قد استأذنا الامام للذهاب للعمرة، لكنه لم يكن واثقاً بانهم يبغون العمرة، بل انه نوّه الى انهما كانا في طريقهما الى التآمر، ففي كنز العمال عن أم راشد قالت: «سمعت طلحة والزبير يقول احدهما لصاحبه: بايعتْه ايدينا ولم تبايع قلوبنا، فقلت لعلي، فقال: فمن نكث فانما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما»، وقد أحدث ذلك ارتباكا في مكة والمدينة بحيث أن الذين خرجوا مع الامام عندما توجه الى ذي قار في طريقه الى البصرة كانوا سبعمائة رجل «مَن نَشط مِن الكوفيين والبصريين»[1]، بينما خرج مع عائشة وطلحة والزبير عندما تركوا مكة، سبعمائة رجل من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس حتى كانوا ثلاثة آلاف»[2]، الا أن أهل المدينة لم يكونوا ضد الامام علي، غير أن أكثرهم قد تخلف عن الخروج معه، ولم يكن رأي طلحة والزبير العودة الى المدينة ومقاتلة الامام فيها والقصاص من قتلة عثمان، وقال بعض انصارهما «ليس لكم طاقة بأهل المدينة»[3]. كان هذا الوضع في المدينة، ولننظر الى الوضع في بقية حواضر الدولة الاسلامية.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، الجزء الثالث، حوادث سنة ٣٦ ، ص ٤٧٤ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٧١ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٧١ .

الموقف في مكة

ـ أصبحت مكة، بعد تولي الامام للخلافة وبعد مدة لاتزيد عن الأربعة اشهر، مقراً للنشاط المعادي للخلافة. لقد تحركت زوجة الرسول الى مكة من المدينة، قبل مقتل عثمان، بعد أن اشتركت في التحريض عليه، وبعد مقتل الخليفة واعلان بيعة الامام في مسجد المدينة، التحق طلحة والزبير بها بعد حوالي الأربعة أشهر الى مكة، وفيها ايضا بدأ التحرك يأخذ بالاتساع، فقد بدأ المناهضون لخلافة الامام يجمعون الأنصار من كل مكان، والتحق بهم أول من التحق عبد الله بن عامر الحضرمي، وكان عامل عثمان عليها، وتبعه بنو أمية، وكان يرأسهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة، كما قدم عليها عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير، وكان واليها من قبل عثمان، ويعلى بن منيه من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة الف درهم، وهي الأموال التي نهباها من بيت المال من كل من البصرة واليمن، والذي امكن بها تجهيز القوات التي تحركت نحو البصرة، ومن مكة أيضاً صحب الركبَ ولدا الخليفة عثمان أبان والوليد، واللذان اقترح سعيد بن العاص الأموي على طلحة والزبير أن يكونا الوريثين الشرعيين للخلافة، الا أن الشيخين رفضا هذا الاقتراح، وقالا «ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لايتام»[1]، مما أدى الى عودة سعيد بن العاص وعبد الله بن خالد بن أُسَيد، عن القوم، وأيد المغيرة بن شعبة الرجوع داعياً ثقيف عشيرته الى العودة معه، كما أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رفض السير مع «الجماعة»، عندما عرضوا عليه ذلك.

الموقف في البصرة:

ـ كان الوضع السياسي في البصرة مضطرباً الى حد كبير، ففي سنة ست وثلاثين، بعث الامام عثمان بن حنيف والياً عليها، فسار اليها ولم يردّه أحد من دخولها، ولم يكن ابن عامر والي الخليفة عثمان معارضاً لهذا الأمر، لكن الناس

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج ٣ ، ص ٢٩ .

هناك افترقوا «فاتبعت فرقة القوم ودخلت في الجماعة، وقالت فرقة: ننظر مايصنع أهل المدينة فنصنع ماصنعوا»[1]، وهي بوادر لاتخلو من وجود الفرقة، الا أن ابن عامر كان قد عزم على اللحاق باطراف التمرد في مكة، فالتحق بها وهو يحمل معه مالاً كثيراً، اخرجه من بيت المال في البصرة وسلمه الى طلحة والزبير بمكة، وكان ابن عامر يعتقد بان له اصحاباً في البصرة وان اهلها «لهم في طلحة هوى»[2]، وكان اختيارهم للبصرة قد نجم بعد دراسة عدة خيارات، منها التوجه الى الشام، الا أن ابن عامر ذكرهم بوجود معاوية فيها، وانه لايقبل أن يزاحمه احد فيها، وكان من رأيهم التوجه الى الكوفة، كي يسدوا على الامام المنافذ منها، الا أنهم لم يتفقوا على هذا الرأي، وكان آخر قرارهم التوجه الى البصرة، لأن لهم فيها من يساندهم في مسعاهم هذا، وقد كان هذا الأمر واضحا، فعندما وصل ركب القوم الى البصرة يقودهم طلحة والزبير، قام عثمان بن حنيف يخطب بأهل البصرة، ويطلب منهم ردهم عن المدينة، حصبه [رموه بالحصى] قسم من أهلها، فعرف ان لطلحة والزبير انصاراً فيها، مما سبب له حيرة وانكساراً، وعندما وصلت عائشة الى المربد، خرج اليها ممن كان يريد أن يكون معها، فكثر جيشها وقويت شكيمة الشيخين، واعتبروا ان ذلك كان فاتحة نصر لهما.

الموقف في الكوفة

ــ اما الوضع في الكوفة فقد كان بصورة عامة ذا ملامح واضحة في تأييد الامام والوقوف معه، فقد بعث الامام عمارة بن شهاب على الكوفة، فلما بلغ «زبالة»[3]، وهي على الطريق، لقيه طلحة بن خويلد وكان ممن خرج يطلب بثأر عثمان، فقال له ارجع فان القوم - يقصد أهل الكوفة - لايريدون باميرهم بديلاً، وحذره بانه سوف يقطع عنقه ان هو ابى العودة، فرجع عمارة وأخبر الامام بذلك، فكتب الى ابي موسى الأشعري والي عثمان عليها، فاجابه بطاعة أهلها وبيعتهم له، وقد فصل الوضع العام له بصورة جلية، وبين الكاره منهم والراضي لخلافته،

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣ ، ص ٢٠٢ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٨ .
(٣) زُبالة: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة، بين واقصة والثعلبية [معجم البلدان، ياقوت، ج٣، ص ١٢٩].

حتى كان الامام وكأنه يشاهدهم. الا أن موقف ابي موسى الأشعري كان موقفاً بائساً عندما طلب منه الامام أن يدعو الناس للخروج اليه عندما وصل الى ذي قار، في طريقه الى البصرة، ففي «الربذة»[1] ارسل الى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر ومعهم كتاب منه الى أهل الكوفة يستنهضهم الى نصرته، فلما وصلا الكوفة قدما كتاب الامام الى ابي موسى فلم يجبهما الى شيء، وكان مسعى ابي موسى تثبيط الهمم، والقعود عن نصرة الامام، لأن القعود هو السبيل الى النجاة من هذه الفتنة، وكانت هذه حجته كررها دوماً،وقد ذكّر الناس بانه لاتزال في عنقه بيعة عثمان. عاد رسولا الامام الى ذي قار بعد وصول الامام اليها، وأخبراه بما حدث معهما، فارسل مالك الأشتر لأنه كان يدافع عن الأشعري، ويحسّن صورته لدى الامام، وابن عباس، ليصلحا ما أفسده الأشعري، لكنهما لم يوفقا في أمرهما معه، فعادا اليه واخبراه بما جرى معهم، فارسل اليه ابنه الحسن وعمار بن ياسر، وقال لعمار: «انطلق فاصلح ما أفسدت»[2]، لكنهما لم يفلحا ايضاً، وكان الامام قد اطلع على اخبار الكوفة وآراء الناس فيها، من أخبار كانت تأتيه، والحسن وعمار لايزالان فيها، فقد وصلته اخبار الكوفة وما كان يجري فيها من تردد واضطراب، وتثبيط الهمم، فقرر حسم الأمر بارسال مالك الأشتر، فوصل اليها وابو موسى يخطب الناس في المسجد، والحسن وعمار فيه، فما كان من الأشتر الا وتوجه الى قصر الامارة مباشرة فاحتله، بعد أن اخرج غلمان الأشعري منه، وتوجه الى المسجد منذراً الأشعري بانه سيلاقي مصيره ان هو استمر في موقفه، وكان الامام قد نحى الأشعري عن الولاية، وأنّبه، فتم حسم الأمر، وانتهى الأشعري، وبايع أهل الكوفة الامام ولبوا نداءه، وساروا له. سار قسم منهم الى ذي قار براً، والقسم الآخر عن طريق الفرات، لقد كان موقف الأشعري هذا من الأسباب التي ساهمت باحتلال البصرة، لأن تردده قد افقد الامام وقتاً كبيراً منتظراً قدوم أهل الكوفة اليه، مما اعطى الفرصة لجيش عائشة في انفاذ خطتها واحتلال البصرة، ولو أن الامام كان قد وصل الى البصرة في الوقت الملائم، لما كان لمعركة الجمل أن تحدث، او أنها لم تكن لتسبب

(١) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز اذا رحلت من فيد تريد مكة، وبها قبر ابي ذر الغفاري. [معجم البلدان، ياقوت، ج٣، ص ٢٤].

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣ ، حوادث سنة ٣٦، ص ٢٢٦ .

هذا الحجم من الخسائر، من القتلى والجرحى، وربما أمكن حل الأمر سلمياً، وكان عدوه حينها ضعيفاً خارج البصرة، لكنه حصل على الدعم والاسناد الكافي من المال والرجال عندما استطاع أن يحسم الأمر، قبل وصول الامام اليها.

الموقف في مصر

ـ ولّى الامام - كما ذكرنا - قيس بن سعد بن عبادة على مصر، وكان عمر ابن العاص والياً عليها، الا أن عثمان عزله عنها، وولى بدله عبد الله بن ابي سرح، وكان أخو عثمان بالرضاعة، وكان رسول الله(ص) أهدر دمه يوم فتح مكة، وعبد الله هذا كان سبباً لثورة أهل مصر على عثمان، فلما وصل قيس بن سعد الى مصر، افترق اهلها الى ثلاث فرق، فرقة ايدت الامام علي ودخلت في طاعته، وفرقة اعتزلت في مكان يقال له «خربتا»[1]، وهي موالية لعثمان تطلب الثأر له، وفرقة قالوا: «نحن مع علي مالم يقد اخواننا»[2]، وهم في ذلك مع الجماعة، وبذا فان مصر ايضاً كان فيها نواة معارضة ظلت تنتظر الفرصة الملائمة للانقضاض على من ولاه الخليفة، وهذا ماحدث بعد حين، في ولاية محمد بن أبي بكر.

ـ الا أن احداثاً جرت في مصر تسلط الأضواء على الوضع السياسي فيها بدقة، قبل مقتل الخليفة عثمان وبعده، يقتضي هنا ايرادها لاهميتها، كان محمد ابن ابي حذيفة هو الذي حرض المصريين على الثورة على عثمان وندبهم اليه، فساروا الى المدينة واشتركوا في حصار الخليفة مع الذين وفدوا من البصرة والكوفة. كان محمد بن حذيفة في مصر «وثب على عبد الله بن أبي سرح أحد بني عامر بن لؤي، وهو عامل عثمان يومئذٍ على مصر فطرده منها، وصلى بالناس، فخرج ابن ابي سرح من مصر، ونزل على تخوم ارض مصر مما يلي فلسطين»[3]، فلما قتل عثمان وبويع الامام، وكان عبد الله يعلم جيداً بان الامام لو ظفر به لقتله، لأنه كان من المنافقين الكفار الذين امر النبي بقتلهم ولو كان قتلهم

(١) خربتا: كور قرب الاسكندرية. [معجم البلدان، ياقوت، ج٢، ص ٣٥٥].
(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج٣، ص ٤٦٢، حوادث سنة ٣٦هـ.
(٣) الغارات، ابن هلال الثقفي، ص ١٢٥ .

تحت ستار الكعبة، خرج عبد الله هذا هارباً الى معاوية في دمشق، وبعد ان استتب الأمر للامام، ارسل قيس بن سعد عليها يصحبه سبعة اشخاص من اصحابه، ودخل مصر وامسك بولايتها، الا أنه لم يكن حازماً مع أهل خربتا، فقد ارسل اليهم أنه لن يكرههم على البيعة وانه يدعهم ويكف عنهم، ان فعلوا مثله، وهذا موقف لايحمد له، لأن الأجدر به أن يقتلع جذور المعارضة، في وقت عصيب مقبل فيه الامام على حرب الشام التي تقع الى شمال تخوم مصر، وربما كان معاوية يفكر باستخدام هؤلاء في عمل مناهض، وهو ماحدث فعلاً، وكان معاوية يخشى قيس بن سعد، وهو ابن شيخ الأنصار، وفي مصر شيعة كثيرة للامام علي، فقد حاول معاوية استمالة قيس وكتب له عدة كتب يمنّيه ويحثه فيها على خلع بيعة الامام، لكنه كان يجيبه كل مرة جواباً يشم منه بانه لم يكن «لامقاربا ومباعدا»[1]، وكانت خشية معاوية منه، لأنه بالقرب منه، وربما شكل خطراً عليه في المستقبل، بان يتقدم بأهل مصر في الجنوب، ويأتيه الامام من الشرق، فيقع بين فكي كماشة.

الموقف في الشام:

ـ الشام هي رأس المعارضة للامام، وفيها معاوية بن ابي سفيان الذي تولاها بعد موت أخيه، وكان الأمويون يحكمونها منذ الفتح، والناس فيها على طاعتهم، الا أن معاوية كان قد اعد العدة، لنشر دعايته واتهاماته للامام علي بقتل عثمان وايواء قتلته، وما أن وصله قميص عثيمان وهو مخضب بالدماء، وضعه فوق المنبر، معلقاً عليه اصابع زوجة القتيل، فأخذ أهل الشام بالبكاء والعويل، واجتمع عدد كبير من القراء، قيل أن عددهم سبعون الفا، وربما كان العدد مبالغ فيه، وكلهم يطالبون بالثأر لعثمان، وكان التحاق عمر بن العاص بمعاوية في دمشق عوناً له، حيث بدأ الاثنان بالتشاور ووضع الخطط الكفيلة باجتياز كل المصاعب التي يمكن ان تعترضهما، وقد نجحا معاً في تحويل الرأي العام في الشام لصالحهما بصورة قاطعة. لقد خدمت معاوية في احكام قبضته على الشام،

(١) الغارات، ابن هلال الثقفي، ص ١٣٢ .

ظروف تاريخية وموضوعية، منها جهل أهل الشام بالأحداث التي جرت في المدينة قبل واثناء مقتل الخليفة، بحيث ان كل ماكانوا يسمعونه من أخبار ويصل اليهم من اعلام كان معاوية يوجهه اليهم، ويتقن تلقينه لهم، فصدقوه، الا نفر قليل منهم، كشرحبيل بن السمط عميد أهل حمص، الذي استطاع آخر الأمر أن يقنعه، بالكذب والتزوير بان عليا قد قتل عثمان، كما خدمه فعلاً طول المدة التي حكم بها بنو أمية الشام. كانت فلسطين خارج سيطرة الامام، وتخضع في ولائها للخليفة المقتول، لذا فانها كانت تمثل العمق الوحيد لمعاوية، وكانت مخاوف معاوية كثيرة، منها، وجود والٍ موالٍ للامام في مصر، ووجود الروم في الشمال، وقوات الامام التي كانت قد استعدت بعد معركة الجمل، للتوجه الى الشام من الكوفة.

الموقف في شرق الدولة

ــ كان الموقف في شرق الدولة الاسلامية هادئاً، ولم تكن بلاد فارس وما جاورها مهتمة بما يجري على ارض العراق والشام، وكان أهلها وجلهم من الفرس والترك، قد دخلوا الاسلام حديثاً، يحكمهم العرب بصورة مباشرة، فالجيش كان من أهل البصرة والكوفة، الا أن الكثيرين من العرب كانوا يعيشون في هذه البلاد المفتوحة، وكانوا قد بايعوا الامام واظهروا الطاعة له، ولم يحدث مايعكر صفو الأمن، الا حادثة بسيطة وقعت سنة ٣٦ للهجرة، بعد وقعة الجمل «فقد خرج حسكة بن عتّاب الحبطي وعمران بن الفضيل البرجمي في صعاليك من العرب، حتى نزلوا في [سجستان][1]، وقد نكث أهلها، فاصابوا منها مالاً، ثم اتوا [زرنج] وقد خافهم مرزبانها فصالحهم ودخلوها»[2]، فكتب الامام الى عبد الله بن عباس يأمره أن يولي سجستان رجلاً قوياً ويسيره اليها في اربعة الاف مقاتل، فارسل ابن عباس ربعي بن كاس العنبري على رأس قوة اشتبكت مع المتمردين، فابادتهم وفرّ من بقي حياً منهم وهم قليل، وقتل حسكة، وأمكن ضبط الأمن في هذا المصر.

(١) سجستان: ناحية كبيرة، اسم مدينتها زرنج، وبينها وبين هراة عشرة أيام، ثمانون فرسخاً، [معجم البلدان، ياقوت، ج٣، ص ١٩٠].
(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣، ص ٢٦٤ .

الموقف في الشمال

ـ كانت الامبراطورية الرومانية هي الخطر الخارجي الرئيسي والهام، الذي يهدد أرض الدولة الاسلامية، بعد أن تم تصفية الامبراطورية الفارسية في الشرق، وبدأ الاسلام ينتشر بسرعة بين اهلها، وقد كانت الحروب مستمرة بين المسلمين والروم، وكانت الغارات المتبادلة على المراكز والحصون على طول الحدود الفاصلة بين الدولتين تكاد تكون يومية، وكان ملك الروم قسطنطين بن هرقل، قد هيأ لغزو بلاد المسلمين عام ٣٥ هـ اسطولاً كبيراً يتألف من ألف سفينة، وأبحر بها يريد ارض المسلمين، لكن عاصفة شديدة قد هبت على اسطوله فتبدد، وغرقت معظم السفن ومن فيها، الا أن ملك الروم قد نجا من الغرق، ووصل الى صقلية، وعندما دخل الحمام، قتلوه فيه، حيث اتهموه بانه كان سبباً في تدمير الاسطول وغرق من فيه، وفي رأيي ان ملك الروم كان قد ابحر من روما، وليس القسطنطينية، والدليل على ذلك، هو أنه عندما نجا من الغرق، فانه توجه الى صقلية، وجزيرة صقلية كما هو معروف تقع الى جنوب ايطاليا، لصقاً لها، وهي بعيدة عن القسطنطينية، التي لو كان ملك الروم قد سار منها الى ساحل الشام، لعاد اليها لانها اقرب اليه، اي الى ساحل الشام، منها الى صقلية.

ـ في سنة ٣٦هـ علم معاوية ان في نية ملك الروم التهيؤ لغزو الشام، بعد أن وصلت اليه الأخبار عن قرب حركة جيشها الى الشرق، وان المسلمين منشغلون عنه في حربهم الداخلية، وكان معاوية يخشى أن يهاجمه الروم، في الوقت الذي ينتظر فيه ماستسفر عنه حركة الامام من العراق الى الشام، وقد شكى معاوية هذا الموقف الصعب الى عمر بن العاص، الذي اقترح عليه أن يرسل للقيصر هدايا، آنية من الذهب والفضة وعدداً من الجواري، وأن يسأله الموادعة، او الهدنة والصلح، وقد عمل معاوية بنصيحة عمر بن العاص، وقبل القيصر الهدايا، منتظراً ماستسفر عنه الحرب بين المسلمين، عندها سيتخذ قراره بشن الحرب. وعلى أي حال فقد أمن معاوية جبهة الشمال، وأبعد عنه خطرها، ولو مؤقتاً.

ـ ان كثرة ظهور الأعداء بعد تسلم الامام علي الخلافة يعود الى اسباب عديدة:

١ - ضعف الخليفة عثمان واستغلاله من قبل عشيرته بني امية، الذين استولوا

على مغانم كثيرة لاتعود لهم، وليس لهم بها حق، مما شجع رؤوس قريش على التحرك، وفي انفسهم رغبة في الوثوب، والتمكن من الخلافة، من بينهم طلحة والزبير وغيرهم، وكان لضرب الخليفة عمارَ بن ياسر، ونفيه للصحابي ابا ذر الى الشام، ومنها الى المدينة، ثم الى الربذة وموته فيها، تأثير سيء بين المهاجرين والأنصار من أغلب امصار الدولة الاسلامية.

٢ - ان الامام علي قد قرر ضمن استراتيجيته الجديدة، اعادة كل ما أُخذ من بيت المال دون حق، وتوزيع العطاء بين المسلمين دون تفريق، وهو ماكان سبباً في نقمة قريش منه، لأنه ساواهم مع غيرهم، كما قرر تغيير الولاة الذين اشتكى منهم الناس في الأمصار، خاصة في الكوفة والبصرة ومصر والشام، مما ادى الى ان يتكتل ضده كل المتضررين من السياسة الجديدة للخلافة.

٣ ـ ان اغلب الذين وقفوا ضد الامام، كانوا قد وُتِروا منه، خلال معارك الدعوة الاسلامية التي كان يقودها النبي الكريم، قال عبد الله بن بُديل مخاطبا الناس وكان الامام جالساً معهم: «فكيف يبايع معاوية علياً، وقد قتل اخاه حنظلة، وخاله الوليد، وجده عتبة في موقف واحد، والله ما اظن أن يفعلوا»[١]، وكيف يبايع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وقد قتل الامام عمه الوليد بن الوليد، في بدر وكيف لايصطف ضده عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وهو يطلبه في قتله الهرمزان بغياً، بعد مقتل والده على يد فيروز، وعبد الله بن عامر أخو عثمان بالرضاعة، مهدور الدم، ملعون على لسان النبي الكريم، وهكذا كلهم اصطفوا يطلبون الثأر للجاهلية من الاسلام.



(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٠٢ .

الفصل الرابع

صفات الامام علي العسكرية



صفات الامام العسكرية

ـ يتمتع الامام علي بصفات حربية متعددة، وهي الصفات التي يقتضي ان يمتلكها كل قائد عسكري مرموق، ولم تقتصر صفاته على جانب معين، كالشجاعة مثلاً، بل تعدتها الى صفات لم يكن لأي عسكري آخر أن يجمع منها هذا القدر من التنوع والكثرة، الشجاعة مع رباطة جأش وثبات جنان وترصد وسيطرة على كل مايقع أمامه في ساحة الحرب، فهم لظواهر الحرب، استشارة للقادة ومشاركتهم بتحمل المسؤولية، توخي الهدف والثبات عليه، معالجته لمشاكل القيادة التي تحدث بين القادة في جيشه، اصداره لاوامره مكتوبة كما تفعل الجيوش الحديثة، قيادته للمعارك من الخط الامامي، التعليم الفردي والتكتيك لقادته وجنوده، تشخيصه لصفات القادة وأسس اختيارهم، مما يؤكد الانطباع انه قائد مبرّز، مبدع في الحرب، قادر على ادارتها، وليس كما يدعي البعض بانه شجاع لكنه لايعرف في الحرب. سوف نتحدث مفصلاً عن صفاته تلك في هذا الفصل وهي:

١ - الشجاعة:

ـ لم يكن الامام معروفاً بهذا القدر من الشجاعة حتى وقعة بدر التي برز فيها، واشتهر من بعدها، الا أن نومه في فراش النبي، عندما قرر الهجرة الى المدينة، وهو فتى، وموقفه الصلب من المشركين الذين دهموه في الفراش، يعطي لمحة مبكرة عن شجاعته وقوة وصلابة جنانه، وقد شهد للامام اصدقاؤه واعداؤه، والمبغضون له، على انه لم يكن يقابله بهذه الصفة بين العرب أحدٌ، فلم يبرز له أحد الا وصرعه على امتداد كل المعارك التي خاضها، سواء قبل خلافته، في صدر الاسلام، ام خلال حروبه التي قادها في الجمل وصفين والنهروان، ولم يكن هو البادىء في طلب المبارزة، لأنه يعتبر ذلك بغياً، ولكنه كان يلبي نداء من يطلب منه البراز:

ـ في معركة بدر، قَتل الوليدَ بن عتبة في أول براز في الاسلام، تم بين المسلمين والمشركين، وقد قَتل وحده فيها أربعة وعشرين مشركاً، من اثنين

وخمسين، من بينهم الوليد بن الوليد، أخُ خالد بن الوليد، حنظلة بن ابي سفيان، أخُ معاوية، الوليد بن عتبة بن ربيعة، والحارث بن ربيعة عمه.

ــ في يوم أحد، خرج من المشركين أول من طلب البراز، وهو طلحة بن أبي طلحة، وصاح من يبارز فقال علي: هل لك في مبارزتي؟، قال: نعم، فكان أن قضى الامام علي عليه، وهو أول من قُتل في وقعة أحد، وكان عدد قتلى المشركين عشرين، قتل منهم الامام اثني عشر، أي أكثر من نصفهم، وهو نفس ترتيبه في معركة بدر.

ــ وفي معركة الخندق، قتل الامام عمر بن عبد ود العامري، وهو لايزال فتى لم يتجاوز العشرين عاماً الا قليلاً، وعمر بن عبد هو من جبابرة العرب وخيرة شجعانهم وفوارسهم، ولنستمع الى قصة مقتله... أراد المشركون أن يعبروا الى النبي، حيث كان متحصناً في المدينة، وقد حفر حولها الخندق، فأخذوا يدورون حوله علّهم يجدون منفذاً من خلاله، في موضع أغفله المسلمون، حتى وجدوه «فعبر عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وعمر بن عبد، وقام سائر المشركين من وراء الخندق لايعبرون، وقيل لأبي سفيان: ألا تعبر؟، قال قد عبرتم، فان احتجتم الينا عبرنا، فجعل عمر بن عبد يدعو الى البراز ويقول:

لقد بححت من الندا ... لجمعكم هل من مبارز

ــ وعمر يومئذٍ ثائر، قد شهد بدراً فارتثَّ جريحاً فلم يشهد أحد، وحرّم الدهن [لشعر الرأس] حتى يثأر من محمد وأصحابه، وهو يومئذٍ كبير، يقال بلغ تسعين سنة، فلما دعا الى البراز، قال علي عليه السلام: أنا أبارزه يارسول الله! ثلاث مرات، وان المسلمين يومئذٍ كأن على رؤوسهم الطير، لمكان عمر وشجاعته، فاعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه وعممه»[1]، ونترك ابن ابي الحديد يكمل القصة في كتابه شرح نهج البلاغة، المجلد الرابع ص ٣٤٥، ففيها وصفٌ أكثر للحادثة: «خرج الامام لملاقاة عمر وهو يرتجز:

لاتعجلن فقد أتاك ... مُجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّة وبصيرة ... يرجو بذاك نجاة فائز

(١) المغازي، الواقدي، الجزء الأول، ص ٤٧١ .

انـــي لآمـل أن أُقيـم عليك نائحة الجنائز

من ضربة فوهاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

«فقال عمر ومن أنت، وكان عمر شيخاً كبيراً قد جاوز الثمانين، وكان نديم أبي طالب بن عبد المطلب في الجاهلية، فانتسب علي عليه السلام، وقال انا علي بن أبي طالب، فقال: أجل لقد كان أبوك نديماً لي وصديقاً، فارجع فاني لا أحب أن اقتلك»[1]، وكان عمر بن ود قد أخذه الخوف عندما عرف بأن غريمه الامام علي، لانه كان قد عرف قتلاه يوم بدر وأحد، وعلم بانه سيسقط بين يديه قتيلاً، فتحجج بهذه الحجج، «فقال له علي عليه السلام لكني أحب أن اقتلك، فقال يا ابن أخي اني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك فارجع وراءك خير لك، فقال علي عليه السلام ان قريشاً تتحدث عنك، انك قلت لايدعوني أحد الى ثلاث الا أجبت ولو الى واحدة منها، قال أجل، فقال علي عليه السلم، فاني ادعوك الى الاسلام قال دع عنك هذا، قال اني ادعوك الى ان ترجع بمن تبعك من قريش الى مكة، قال اذن تتحدث نساء قريش عني ان غلاماً خدعني، قال فاني ادعوك الى البراز، فحمى عمر وقال ماكنت أظن أن أحداً من العرب يرومها مني»[2]، ثم نزل عن حصانه وعقره، وتجاولا حتى ثارت لهما غبرة، حجبت عنهم الأنظار، حتى سمع صوت الامام مكبراً، فعلم المسلمون أن الامام قد صرعه، وانجلت الغبرة عن منظر الامام وهو جاثٍ على صدره، يحز رأسه، وفرّ الباقون من المشركين، ليعبروا الخندق فاجتازت بهم خيولهم الى معسكرهم، الا نوفل بن عبد الله، فلم يستطع حصانه عبور الخندق، فسقط فيه، فأخذ المسلمون يرمونه بالحجارة، فنادى على القوم «يامعشر الناس قتلة أكرم من هذه»[3]، فنزل اليه الامام وقتله، وقد كان الرسول الكريم قد قال يوم برز الامام ذلك اليوم: «برز الايمان كلُّه الى الشرك كلِّه»[4]، وكان قد رفع يديه الى السماء داعياً وهو يقول: «اللهم انك أخذت مني عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، فاحفظ عليَّ اليوم علياً، رب لاتذرني فرداً وأنت خير الوارثين»[5].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، المجلد الرابع، ص ٣٤٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٥ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٥ .

(٤) و(٥) المصدر نفسه، مجلد ٤، ص ٣٤٤ .

ــ وفي وقعة خيبر «وقد كان دفع لواءه الى رجل من أصحابه من المهاجرين، ولم يصنع شيئاً، ثم دفعه الى آخر فرجع ولم يصنع شيئاً، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء الأنصار الى رجل منهم، فخرج ورجع ولم يفعل شيئاً، فحث رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين، وسالت كتائب اليهود، أمامهم الحارث أبو زينب يقدم اليهود يهد الأرض هدّاً، فأقبل صاحب راية الأنصار، فلم يزل يسوقهم حتى انتهوا الى الحصن فدخلوه»[1]، وهكذا ظل اليهود في موقف الأقوى، وحاول النبي أن يؤمنهم على أموالهم بأن يقولوا لا اله الا الله، فأبوا ذلك، فقال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار»[2]، فلما كان الغد، سلم الراية الى الامام، فكان أول من خرج من اليهود الحارث أخُ مرحب، فتراجع المسلمون إلا الامام، وماهي الا لحظات حتى كان الحارث صريعاً، فرجع اليهود الى الحصن واغلقوه عليهم، ثم خرج مرحب راجزاً مفتخراً، وهو كالفحل الصؤول، فلاقاه الامام فصرعه امام باب الحصن، وفتحه امام المسلمين، وكان الامام قد صرع قبله عامراً من اليهود، وكان رجلاً طويلاً جسيماً، يخطر بسيفه وعليه درعان، مقنع بالحديد يصيح: من يبارز؟، فخرج اليه الامام وصرعه، ثم أخذ سلاحه، وهكذا حتى بدأت حصون اليهود بالسقوط الواحد تلو الآخر، وغنم المسلمون الكثير من الأسلحة والأموال والغذاء، وأخرجت يهود خيبر وأُجليت عن ارض خيبر والمدينة كلها، لاتحمل معها شيئاً الا لباسها الذي يسترها.

ــ وقتل يوم حنين أربعين رجلاً وفارسهم أبا جرول.

ــ وفي ابن النضير، قتل أحد عشر غَروراً منهم، وفي يوم الفتح قتل فاتك العرب، أسد بن غويلم، وفي الطائف، هزم خيل ضيغم، وقتل شهاباً ونافعاً، وهكذا في كل المعارك و الغزوات، يخوض غمار الموت، ومعمعات القتال دون أن يجد الخوف الى قلبه طريقاً.

ــ في معركة الجمل، زحف الامام نحو الجمل بنفسه، في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار، وحوله بنوه الحسن والحسين ومحمد، وعندما اعطى الراية لابنه محمد، ووجده غير قادر على التقدم نحو الجمل، بسبب كثافة رمي النبل في

(١) و(٢) المغازي، الواقدي، الجزء ٢، ص ٦٥٥ .

وجهه، الذي كان يرشقه جيش الجمل، استشاط غيضاً «فتناول الراية بيده اليسرى، وذو الفقار مشهور في يمنى يديه، ثم حمل فغاص في عسكر الجمل، ثم رجع وقد انحنى سيفه فاقامه بركبته»[1]، ثم عاد فحمل على أهل الجمل مرة أخرى، ففج صفوفهم، وأخذ يضربهم بسيفه، والرجال تندس بين يديه، وتبتعد عنه الى اليمين واليسار، هاربة من الموت الذي هبط عليها من السماء، حتى خضب الأرض بدماء القتلى، ثم عاد وقد انحنى سيفه، فأقامه بركبته، فكان يبث الرعب في صفوف عدوه، ويشده شداً الى بعض، محطماً ترتيبه القتالي، محيراً جيشه ايضاً لهذه الشجاعة الخارقة، حتى قالوا له عندما خاطب ابنه محمداً قائلاً له بأنه كان يريد منه أن يصنع مثل ماصنع هو «من الذي يستطيع ماتستطيعه يا أمير المؤمنين»[2].

ـ ومن جملة من خرج اليهم الامام ملبياً طلبهم الى البراز في معركتي الجمل وصفين، منهم في معركة الجمل برز عبد الله بن أبزي وهو يرجز:

أضربهم ولا أرىٍ أبا حسن   ها أن هذا حَزَنٌ من الحَزن

فخرج اليه الامام وشد عليه بالرمح وطعنه، فمات، وقال له: «قد رأيت أبا حسن فكيف رأيت»[3]، وخرج عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو رئيس البصرة وأكثرهم مالاً، فطلب البراز وسأل أن لايخرج اليه غير الامام، وارتجز فقال:

أبا تراب ادن مني فِتـرا   فانني دانٍ اليـك شبـرا

وان في صدري عليك غمرا

فخرج اليه الإمام ولم يمهله «ان ضربه ففلق هامته»[4]. وفي صفين برز كريب بن الصباح، وليس في أهل الشام يومئذٍ رجل أشهر منه شدة وبأساً، ونادى طالباً البراز، فخرج اليه ثلاثة من جند الامام، فقتلهم الواحد بعد الآخر، ووضع جثثهم فوق بعض تحت قدمه، لشدة بغيه، فخرج اليه الامام وقتله، ثم خرج اليه اثنان آخران، فقتلهم بالتعاقب، فكف اهل الشام عن البراز، وكان الامام بعمله هذا يريد أن يسلب عدوه نشوة النصر والتفوق، اذ ان منظر عدوه وهو يفترس أبطاله امامه،

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، المجلد الأول، ص ٢٥٧ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٧ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٨٥ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٨٧ .

قد يؤدي الى التأثير على روح جيشه المعنوية واندفاعه، وارتفاع معنويات عدوه، لذا بادر شخصياً للبراز، وقتل ثلاثة منهم، من بينهم المتحدي، الذي اراد ان يظهر بطولته وجبروته وتحديه لجيش الامام.

ــ وشجاعة الامام كانت ترافقها رباطة الجأش وصلابة الجنان، والسيطرة على الحواس والتنبه، فعندما كان منهمكاً في القتال في معركة الجمل، وبعد أن شق صفوف أهل الجمل، وانزل فيهم الخوف والرعب من شدة صولته، وبعد أن حول الموقف لصالحه تماماً، بعد أن استطاع عدوه أن يربك ميمنته ومسيرته، عاد من قتاله وقد أحس بالعطش، طلب شربة ماء «فشق علي في عسكر القوم يطعن ويقتل، ثم خرج وهو يقول: الما.. الماء..، فاتاه رجل باداوة عسل، فقال له: يا أمير المؤمنين اما الماء فانه لايصلح لك في هذا المقام، ولكن اذوقك هذا العسل، فقال: هات فحسا منه حسوة، ثم قال: ان عسلك لطائفي [من الطائف]، قال الرجل: لعجباً منك والله يا أمير المؤمنين، لمعرفتك الطائفي من غيره هذا اليوم، وقد بلغت القلوب الحناجر، فقال له علي: انه والله يا ابن اخي ماملأ صدر عمك شيء قط، ولاهابه شيء، ثم اعطى الراية لابنه محمد، وقال: «هكذا فاصنع»[1].

٢ - فهمه لظواهر الحرب

ــ يقول (صن تزو) المفكر العسكري الصيني قبل ٢٥٠٠ عام «ان هدوءهم وحزمهم يجعل الأحداث غير قادرة على تدميرهم»[2]، ويقول ايضاً: «اذا جرى سماع الكثير من الضجة الصادرة عن معسكر العدو في الليل، فمعنى ذلك ان قواته خائفة»[3].

ــ يقول الامام علي «وقد ارعدوا وابرقوا، ومع هذين الأمرين الفشل، ولسنا نرعد حتى نوقع، ولا نسيل حتى نمطر»[4]، يغور الامام هنا في عمق نفس عدوه ليصل الى وضعه المعنوي، وهو عندما يؤشر حالة نفسية في قوله «وقد أرعدوا وابرقوا»، فانما يدرك تمام الادراك بان عدوه يمتلكه الخوف والهلع من القادم الآتي

(١) السياسة والامامة، ابن قتيبة، ج١ ، ص ٧٦ .
(٢) فن الحرب، صن تزو، ص ١٠٨ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٢ .
(٤) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، المجلد الأول، ص ٧٩ .

من الأحداث الجسام، فالضعيف والخائف، الخائر القوى، يحاول أن يعوّض عن وضعه النفسي والمعنوي المتردي، باحداث ضوضاء وجلبة، ويصدر تصريحات رنانة ضخمة، فارغة المعنى، محاولاً التعويض عن هذا النقص الذي يعاني منه، لأن المعروف عن الجبناء كثرة الضوضاء والجلبة عندما يتم التهيؤ للحرب، اما الشجعان فانهم غالباً ما يلوذون بالصمت والسكوت، مع اصرار وتصميم على تدمير العدو، وتحقيق النصر عليه.

ـ ويظهر ادراك الامام لهذه الظاهرة، ظاهرة ارتفاع الأصوات والجلبة بين المقاتلين، بتكراره لتوجيهاته الى مقاتليه ونصائحه لهم، «اميتوا الأصوات فانه اطرد للفشل»، تلك النصيحة كثيراً مايرددها القادة والحكماء على مسامع جنودهم وجلسائهم، فهذا أكثم بن صيفي حكيم العرب يوصي قوماً نهضوا الى الحرب «واعلموا ان كثرة الصياح من الفشل»[1]، بل ان عائشة نفسها قد منعت جيشها من التكبير، عندما سمعت اصحابها في معركة الجمل وهم يكبرون، قالت لهم «لاتكبروا ههنا، فان كثرة التكبير عند القتال من الفشل»[2].

ـ يروى عن ابي طاهر الجنابي الذي كان ابوه الحسن كبير القرامطة، انه سمع ضوضاء في معسكر المقتدر بالله العباسي، ونفخ في الأبواق، وكان جيش المقتدر في عشرين الفاً، وجيش الجنابي في الف وخمسمائة، وكان جيشه لايسمع له صوت، حتى ان الخيل لم تكن لها همهمة، ولما نشبت الحرب تم تدمير جيش المقتدر، الذي كان يقوده يوسف بن ابي الساج، وأسر قائده، لقد ادرك الجنابي، أن سبب هذه الضوضاء هو الخوف والاحساس بالفشل، فانتهز الفرصة وامتطى جواده، وقاد هجوماً صاعقاً بنفسه، وبقوات قليلة، انتهت بانتصاره وتدمير عدوه.

ـ ان الرجل الذي يسير في الليل، في عتمة الظلام، وحيداً، في طريق مقفرة، فانه اما أن يكون شجاعاً، فانه يلتزم الصمت والحذر في مسيره، رابط الجأش، ثابت الجنان، اما اذا كان جباناً، فانه سوف يشعر بالخوف والوجل، يأكل روحه الخور، يفز من حركة الريح وحفيف اوراق الشجر، ويرتجف من عواء الذئاب والثعالب، فلا يستطيع ان يواصل سيره دون أن تتلقف نفسه الهواجس والأفكار،

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، المجلد الأول، ص ٤٢١ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢١ .

لذا فانه يبدأ بالتكلم مع نفسه بصوت عال، معتقداً بان مثل هذا الأمر يخيف اللصوص ويبعدهم عنه، كما أنه يحاول أن يشعر نفسه باطمئنان كاذب لايصمد أمام أبسط اختبار.

٣ - استشارة الامام للقادة

ـ عندما عزم الامام علي على المسير الى الشام، دعى اليه من كان معه من قادة المهاجرين والأنصار فحمد الله واثنى عليه وقال «اما بعد فانكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، مباركو الفعل والأمر، وقد اردنا المسير الى عدونا، وعدوكم، فاشيروا علينا برأيكم»[١]، فكان أول من تكلم مبديا رأيه في أمر المسير الى الشام، هاشم بن عتبة الملقب بـ«هاشم المرقال»، وهو من المجاهدين الأوائل في الفتوحات الاسلامية الكبرى، وكان له دورٌ كبيرٌ في معركةالقادسية الشهيرة التي أشّرت بداية انهيار الامبراطورية الفارسية، وكان مما قاله مجيباً دعوة الامام «فسر بنا»[٢]يقصد الى الشام، وكان المتحدث بعده، عمار بن ياسر، وهو من كبار الصحابة المجاهدين الذين كان لهم فضلٌ سباق في انتصار الدعوةالاسلامية وانتشارها، وكان رأيه «ان استطعت الا تقيم يوماً واحداً فافعل، اشخص بنا قبل استعار نار الفَجَرة»[٣]، ثم قام قيس بن سعد بن عبادة، ابن سيد الانصار فقال «يا أمير المؤمنين، انكمش بنا الى عدونا ولا تعرّد فوالله لجهادهم احب الي من جهاد الترك والروم، لادهانهم في دين الله»[٤]، وقام سهل بن حنيف ليمثل اشياخ الأنصار، ومنهم خزيمة بن ثابت وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم، فقال: «يا أمير المؤمنين نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت، ورأينا رأيك، ونحن كفُّ يمينك، وقد رأينا ان تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة»[٥].

ـ لكن ليس كل من قام، كان موافقاً للامام، الا انهم كانوا قلة قليلة، فعندما قامَ رجل من بني فزارة يقال له اربد، كان رأيه بان الحرب فتنة لايجوز الاستمرار

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٩٢ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٩٢ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٣ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٩٣ .
(٥) المصدر نفسه، ص ٩٣ .

بها قائلاً: «أتريد أن تسيّرنا الى اخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك، كما سرت بنا الى اخواننا من أهل البصرة فقتلناهم كلا، ها الله اذاً لانفعل ذلك»[1]، فغضبت عليه قبيلة همدان، فهرب ناحية سوق الكوفة، فلحقوه هناك، فقُتل بعد أن وطأوه بأرجلهم وضربوه بايديهم وقبضات سيوفهم، واعتبر قتله عُمية، لايدرى من قتله، فقال الامام «ديّته من بيت المال»[2].

ــ وقام الأشتر متحدثاً فقال «يا أمير المؤمنين لايهدنك مارأيت، ولايؤيسنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن، جميع من ترى من الناس شيعتك وليسوا يرغبون بانفسهم عنك، ولا يحبون بقاء بعدك، فان شئت فسر بنا الى عدوك»[3].

ــ ومن بين من قام يدعو الامام الى التريث، كل من عبد الله بن المعتم وحنظلة بن الربيع، وكان كل منهما يكاتب معاوية سراً، وقد كان مالك بن حبيب أمير شرطة الامام في الكوفة يرى ان يسجنا الى ان تنتهي الحرب، الا ان الامام رفض رأيه، وكان أن هربا الى جانب معاوية.

ــ وقام عدي بن حاتم الطائي بين يدي الامام علي مُبدياً رأياً جديداً، وهو ان يكاتب الامام القومَ في الشام، ويُرسل اليهم الرسل، وهو في الكوفة، فان قبلوا فكان ذلك خيراً، وان تمادوا في الشقاق بعد أن تم عذرهم، فان حربهم وقتالهم هما السبيل الى عودتهم الى جادة الصواب والحق، على أن يتم التهيؤ واعداد العدة، واكمال الاستعدادات الحربية الأخرى خلال مدة مكوث الامام في الكوفة، وقام زيد بن حصين الطائي وقال قولاً مشابهاً لما قاله عدي بن حاتم، الا أن رأي عبد الله بن بُديل الخزاعي كان ان معاوية لايمكن أن يبايع الامام وهو الذي قتل أخاه حنظلة، وخاله الوليد وجده لأمه عتبة في موقف واحد.

ــ وكانت هناك ثلاثة آراء طرحت أمام الامام لمعالجة الموقف وهي:

١ ـ الرأي الأول: يقول بمقاتلة أهل الشام فوراً وعدم التأخر في ذلك، لأن التأخير سوف يؤدي الى انتشار الفتنة واتساعها، وان اضاعة الوقت ليس في صالح الامام.

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٩٤ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٩٥ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٥ .

٢ ـ الرأي الثاني: يقول بانه يجب مكاتبة أهل الشام والتحاور معهم واعذارهم، ووضع الحجة امامهم واضحة عليهم، على ان يتم، في نفس الوقت، الاستعداد للحرب وتهيئة متطلباتها، فان لم يرعووا ويعودوا الى الجماعة والطاعة وجب قتالهم.

٣ ـ الرأي الثالث: لم يكن موافقاً اساساً على الحرب، ومنهم من كان ينكرها، ومنهم من كان يطلب التريث فيها، واصحاب هذا الرأي ممن كانت لديهم علاقات ومكاتبات سرية مع معاوية، وقد هربوا بعدها الى الشام مباشرة، وكان هدفهم زعزعة الروح المعنوية بين اصحاب الامام ودفعهم الى التخاذل.

ــ اخذ الامام بالرأي الثاني وتمسك به صابراً آملاً، بحيث انه عندما قدم من البصرة الى الكوفة، أقام فيها سبعة عشر شهراً، يُجري الكتب فيما بينه وبين كل من معاوية وعمر بن العاص، علّه يستطيع ان يقنعهما بالعودة عن موقف العصيان الذي وقفاه من الخليفة، حقناً للدماء وحفاظاً على الامكانات والطاقات التي كان المسلمون بأمس الحاجة اليها في ذلك الحين، لوجود المخاطر الخارجية التي كانت تهدد الدولة، بل انه حتى عندما توجه الى صفين، فانه لم يكن راغباً في القتال، بادءاً به، وكان يكاتب معاوية ويراسله طيلة الأشهر الحرم قبل نشوب القتال الشامل في صفين، الا أن معاوية كان حريصاً على الحرب، لانه لايرغب في السلم الذي سوف ينتهي باخراج الشام من بين يديه، لذا فانه لم يستمع الى نصيحة عمر بن العاص عندما احتل جيشه الماء، مانعاً جيش الامام من السقاية، لأنه كان يريد للدم ان يسيل بين الجمعين، مما سينجم عنه اغلاق فرص السلام والتئام الجمع، والتنادي بالثأر، وهذا ماحدث فعلاً.

ــ وظاهرة تحول الافراد من جانب الى آخر كانت تشكل أمراً عادياً، ففي معسكر الامام من الرجال من تستهويهم الأموال والآمال التي كان معاوية يمنيهم بها، لأنه لم يكن يستطيع أن يقدم غير ذلك، وهؤلاء من الذين لم تترسخ في عقولهم الأهداف التي كان الامام يسعى الى تحقيقها، وفي معسكر معاوية من الرجال من كان يكتشف ان معاوية لايسعى الا لدنيا، ولا همّ له سوى الإمرة، وانه لم يطلب بدم عثمان الا تشبثاً بما بين يديه من ملك الشام وثروتها، وقد تحول عدد من المقاتلين من جيشه الى جيش الامام، كما حدث العكس، الا أن تماسك

جبهة الامام علي كان يستند أساساً الى الايمان بحقه في الخلافة، واجماع المسلمين عليه يوم بويع، وماضيه الناصع بالجهاد والزهد والاخلاص للاسلام، والذي كان انصاره لايحيدون عنه ويعترفون له به، اذا قيس على أقل تقدير بمعاوية، فالامام لم يستخدم اساليب الرشوة والخداع والمهادنة لكسب الأنصار، بل اعتمد اعتماداً اساسياً على ايمانهم بحقه ونبل اهدافه التي ينشدها، ولقد دخل في معركتي الجمل وصفين باعداد من المقاتلين، يزيده عدوه فيها الى الضعف في أقل تقدير، لكنه استطاع أن يحقق انجازاً حربياً مبيناً في معركة الجمل، فحاز على النصر، وفي معركة صفين، كادت الحرب ان تنتهي بانتصاره، لولا الخدعة التي اعتمدها معاوية برفع المصاحف، بوحي من شريكه عمر بن العاص، اما معاوية فانه اضافة الى جهل اهل الشام بحقائق الموقف، ووقوعهم تحت التأثير الدعائي الهائل له، والذي اعتمد كل الأساليب لمنع الاعلام المضاد له من التغلغل بين أهل الشام، وكان يحرص على ذلك حرصاً شديداً، وكان يوصي باخراج كل من يخالفه في الرأي من أهل الشام وابعاده، كما أنه كان لايسمح ببقاء رسل الامام اليه عندما يرى بانهم اصبحوا يشكلون خطراً على الافكار التي جهد في ترسيخها في اذهان أهل الشام، وقد خاف خفاف بن عبد الله الطائي الذي ارسله عدي بن حاتم الى الشام مبتغياً ان يؤثر في قومه من طيء، لأنه كان متكلماً بارعاً وشاعراً، فعندما وصل خفاف الى الشام وقابل معاوية، أحس هذا بان خفاف ربما يكون عيناً للامام في الشام وان وجوده يشكل خطراً عليه، بعد أن لمس منه قدرته على المحاججة، واستخدام الشعر في طرح افكاره بصورة مقْنعة، اخبر رجلاً من طيء ان يصرفه الى العراق، بل ان معاوية كان قبل خلافة الامام علي يغلق الشام على الأفكار التي يروجها، فقد كتب الى عثمان بان وجود ابي ذر في الشام بعد نفيه اليها سيترك اثاراً سيئة على اهلها، بسبب استمرار ابي ذر في مهاجمة المتخمين من بني امية ولعبهم في مقدرات الأمة، وطلب منه ان يعيده اليه، فكتب اليه عثمان ان يعيده الى المدينة، فاعيد اليها بحالة يرثى لها وهو مريض.

ـ اضافة الى ذلك فان معاوية كان يعتمد على الأساليب الملتوية وتشويه الحقائق مع أهل الشام ايضا، وقصة شرحبيل بن السمط أكبر وجوه الشام خير

مثال على ذلك، فعندما قرأ شرحبيل الكتاب الذي ارسله له جرير البجلي «ذعر وفكر وقال: هذه نصيحة لي في ديني ودنياي، ولا والله لا أعجل في هذا الأمر وفي نفسي منه حاجة، فاستتر له القوم، ولفف معاوية الرجال يدخلون اليه ويخرجون، ويعظمون عنده قتل عثمان ويرمون به عليا، ويقيمون الشهادة الباطلة، والكتب المختلقة حتى أعادوا رأيه»[1] وكانت رسالة جرير البجلي الى شرحبيل تتضمن قصيدة من الشعر ينصحه فيها أن ينظر بعين ثاقبة وبصر وقاد، ويزن الأمور بعيداً عن الأهواء والطمع، حيث كان لها تأثير كبير في نفسه. ولن ننسى المساومة التي حدثت بين معاوية وعمر بن العاص، فقد طلب بن العاص ولاية مصر ثمناً لوقوفه معه، فحاول أن يماطل في البداية، لكنه أذعن في آخر الأمر، ووقع له صكاً بمصر، مع علم عمر بن العاص بانه قد باع دينه بدنياه باعترافه هو.

ــ وقد لحق بالامام علي خلال معركة صفين شمر بن ابرهة بن الصباح الحميري في ناس من قراء الشام، مما فتّ في عضد معاوية وعمر بن العاص، ودفعه الى ان يجمع جنوده ويلقي عليهم خطبة كان يهدف من ورائها رفع معنوياتهم، واضعاف تأثير خروج شمر عنه وتركه له.

ــ كما لحقه ايضا المعري بن الأقبل الهمداني، بعد وصول جيش الامام الى صفين، فعندما منع معاوية جيش الامام من التزود بالماء بعد احتلاله الشريعة على الفرات، نصح الهمداني معاوية بافساح المجال لأهل العراق بالتزود بالماء، الا أن معاوية لم يصغ لنصحه، فقال الهمداني «هذا والله أول الجور»، فاغلظ له معاوية القول، فلحق بالامام من ليلته، كان الهمداني من أصدقاء عمر بن العاص واقرب المقربين اليه.

ــ وفي حرب الجمل، خرج اناس كثيرون من صفوف جيش أهل الجمل، ويقال ان من خرج منهم كان ثلثهم، والتحقوا بجيش الامام علي، بعد أن خطب الامام بهم مبيناً حقه بالخلافة، وبراءته من دم عثمان، وان الشيخين قد بايعاه مطيعين ودون اكراه، وقد نكثا البيعة دون ماسبب يوجب ذلك، أو أمر قام به الامام مخالفاً لشرع الاسلام.

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٤٨ .

٤ - توخي الهدف والثبات عليه

ـ من أبرز صفات القائد العام الهامة، متابعة الهدف الذي اعلنه من الحرب والثبات عليه مهما تغيرت الظروف، واستجدت مستجدات، فدول الحلفاء، كانت قد قررت القضاء على الحكم النازي، واستسلام اليابان دون قيد أو شرط، في الحرب العالمية الثانية، ولقد جرت عدة محاولات لتغيير الهدف، الا أن تلك المحاولات باءت بالفشل، فلقد هرب مستشار هتلر الى انجلترا، عارضاً على الحلفاء تسوية الحرب، تبقي على طبيعة النظام الحاكم في المانيا، مع اجراء ءتعديلات فيه، وقد تضمنت تلك التسوية ازاحة هتلر عن الحكم، الا أن الحلفاء رفضوا تلك الفكرة من أساسها، ولو أنهم كانوا قد قبلوا بها، لأصاب معسكر التحالف الذي كان يضم الاتحاد السوفيتي في ذلك الحين، تصدعا كان سيؤدي الى استغلال ماسينجم عنه من تنافر في مواقف الحلفاء، من قبل المانيا، التي كانت تشعر حينها بأنها بدأت تفقد سيطرتها على مجريات الحرب، وربما اثرت الألاعيب السياسية والمصالح الشخصية، على القرارات العليا لدولة من الدول وغيرتها، فالسياسة تُعنى بالدرجة الأولى، بالمصالح الدائمة، وعندما تقتضي تلك المصالح تغيير المواقف، فان الأهداف تتغيّر هي الأخرى، وهذا ما نلاحظه اليوم في عالم متغيّر، تتلاطم السياسة فيه بين اليمين واليسار - تغيير الاتجاهات وليست الايديولوجية، وربما كلاهما معاً - فعدو الأمس ربما اصبح اليوم صديقاً وحليفاً، بينما كان مجرد التفكير بذلك يعتبر مطلق الوهم والخيال.

ـ اما الامام علي فانه ظل متمسكاً باهدافه التي اعلنها خلال حروبه التي اجبر عليها قهرا، ففي معركة صفين، وهي التي كانت تحمل معها كل ماسينجم عنه من أوضاع سياسية وأمنية داخل الدولة الأسلامية، ظل متمسكا بهدفه، بأن يتخلى معاوية عن ولاية الشام ومن ثم يعلن بيعته، والتي بدونها لم يكن للحرب ان تتوقف، وقد حاول معاوية جاهداً أن يحصل من الامام على اعتراف له بولاية الشام، فرفض ذلك رفضاً قاطعاً، وعندما عرض المغيرة بن شعبة على الامام ان يبقى معاوية في ولايته على الشام، رفض ذلك، وكانت تلك اول وساطة قام بها احد دهاة العرب، وعندما لم يقبل الامام منه ذلك، اعتزل في بداية الأمر، ثم اخذ يميل للعمل ضده، وخلال مكوث الامام في الكوفة، استعداداً لحركته الى صفين،

كتب معاوية الى الامام، يطلب ابقاءه على ولايته في الشام، فرفض ذلك مرة أخرى، وخلال فترة التوقف في حرب صفين، اعاد معاوية الكرة عارضا على الامام ابقاءه على ولايته وايقاف الحرب، لكن الامام رفض ذلك ايضاً قائلاً: كيف اعطيه اليوم ما رفضته بالأمس.

ـ لكن ماذا كان يحدث لو أن الامام وافق الآراء التي كانت تشير عليه بابقاء معاوية على الشام؟، لقد كان معاوية يريد في المرحلة الأولى اعترافاً من الامام بوجوده أميراً على الشام، ثم يعلن نفسه خليفة بعد أن حاز على الشرعية، وادعاءه المستمر بانه احق بالخلافة من غيره لأنه ابن عم الخليفة عثمان، وقد حصل ذلك في التحكيم، فما ان حصل معاوية على خلع الامام بعد ان خدع عمر ابن العاص ابا موسى الأشعري، حتى اعلن نفسه خليفة، واعتَبر الامام علياً مخلوعاً منها، كما خلع ابو موسى خاتمه من اصبعه، وهو مالم يكن الامام يريده على الاطلاق، عندئذ سوف تسود الشكوك بين اصحابه المخلصين له بانه يريد الولاية، ولا يهمه القيم والمبادىء التي نادى بها عندما وُلّي في اول خطبة خطبها، ولكان ذلك سبباً في تفرق المؤيدين له، والذين دفعهم الى الوقوف معه ايمانهم بصدق نواياه واخلاصه، والتزامه بقيم الاسلام، ولو انه لم يخذله بعض ممن كان معه من قادته وجيشه، لما وافق على ايقاف القتال، وافلات معاوية وعمر بن العاص من المصير الذي كان يعده لهما، الا أنه بعد أن وافق القوم على ما اجبروه عليه، التزم بعهده التزاماً كبيراً، ولم يعبأ بالذين نقموا عليه من الخوارج الذين كانوا يرون في وثيقة التحكيم خطراً كبيراً، وتراجعاً عن الاهداف التي مشوا مع الامام من أجلها.

٥ - معالجته لمشاكل القيادة

ـ عندما قرر الامام ان يتحرك من النخيلة الى صفين، اخرج قوة في مقدمة قواته، والتي تسمى عادة «قوة المقدمة»، او المقدمة، قوامها (١٢) الفاً من المقاتلة، زياد بن النضر على طائفة منها، (٨) آلاف، وشريح بن هانيء على طائفة أخرى، (٤) آلاف، ويبدو بأن القائدَين قد اختلفا فيما بينهما، ولم يكن لديهما واضحاً، لمن منهما تخضع القوات كلها، ومن الذي سيأخذ على عاتقه مسؤولية ادارة

القتال، عندما يستلزم ذلك، ومسائل اخرى تتعلق بوضع القوات، وقد كتب كل منهما الى الامام كتاباً يشكو الآخر له، وطلبا من الامام ان يجد حلاً لما اختلفا حوله، فكتب اليهما امراً واضحاً حول علاقة كل منهما بالآخر، يعتبر آية في فهم مايصطلح عليه عسكرياً الآن بـ«درجات القيادة»، فقد جاء في الكتاب مايلي:
«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين الى زياد بن النضر وشريح بن هانيء، سلام عليكما، فاني أحمد اليكما الله الذي لا اله الا هو، اما بعد فاني قد وليت مقدمتي زياد بن النضر وأمّرته عليها، وشريح على طائفة منها أمير، فان انتما جمعكما بأس فزياد بن النضر على الناس، وان افترقتما فكل واحد منكما امير الطائفة التي وليناه امرَها»[1].

ـ عادة ماتصدر أوامر الحركات من القائد او القائد الأعلى، يوضح فيها نوع الواجب، اتجاهات الحركة، القوات المشتركة في العمليات واساليب تعاونها، العلاقات التي تربط الوحدات والتشكيلات التي تشترك في العمليات، والتي التحقت من تشكيلات وفرق أخرى، الدعم الناري والاداري، موقع القيادة خلال العمليات، واشياء أخرى كثيرة، الغاية منها تسهيل عمل كافة المشتركين في العمليات، وغالباً ماتتضمن اوامر الحركات (العمليات)، الأمور التي تتعلق بالاسناد المدفعي، الذي يحدد اما الفترة الزمنية التي تقوم خلالها المدفعية باسداء نيرانها الساندة، خاصة في عمليات الهجوم، حيث تقدم المدفعية نيرانها الساندة عند بدء ساعة الشروع بالهجوم، والى فترة معينة مقبلة، وعندما تجتمع عدة وحدات وتشكيلات من فرق مختلفة، فان اوامر الحركات سوف تتضمن اسلوب قيادة تلك الوحدات من قبل آمر واحد، او قائد واحد، فاما ان توضع الوحدات القادمة من فرق أخرى بامرة القائد لفترة معينة، لمدة محددة من الزمن - تقاس عادة بالايام - او توضع بامرته لاغراض الحركات من ساعة معينة الى ساعة أخرى، خاصة في عمليات الهجوم، والتقدم - وهو مايسمى الآن بالعمليات التعريضية - وقد توضع وحدات وتشكيلات بامرة قائد معين لأغراض الادامة والشؤون الادارية فقط، وقد توضع بامرته للأغراض الادارية الضبطية فقط وهو مايسمى «بالإمرة لاغراض المكان» وهكذا... وقد اصدر الامام علي أمر حركاته

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٢٣ .

الذي ينص بان زياد بن النضر هو قائد المقدمة، وبامرته لاغراض الحركات، القوة التي يقودها شريح بن هانيء، فاذا جابهت المقدمة العدو، واضطرت الى قتاله، فان قائدها المسؤول عن ادارة العمليات هو زياد بن النضر، وعندما لاتكون هناك اوضاع قتال (حركات)، فان كلاً منهما أمير وقائد على القوة التي وضعت تحت قيادته مباشرة، وهذا يعني في مصطلح الحرب في الجيوش «بالامرة لاغراض الحركات»، وهي درجة من درجات القيادة، تعني ان توضع قوة بامرة قائد آخر لاغراض العمليات «الحركات»، اي لاغراض انجاز واجبات الحركات والقتال فقط، وعندما تنتهي الحركات تعود كل وحدة او تشكيل الى وضعها الطبيعي، وهو ما اشار اليه الامام ايضاً في امره هذا، ولو أن الامام كان يمتلك اسلحة ومعدات حربية أخرى، واراد أن يسرحها مع قوة المقدمة، لذكر درجة القيادة في امره ايضاً، اي ان تلك الاسلحة ستكون بامرة من؟، سواء لاغراض القتال ام لأغراض التنقل، وقد كانت الجيوش التي تحمل معها اسلحة ثقيلة، منجنيقات، وقاذفات اللهب، تحدد درجة قيادتها والاغراض التي توضع من أجلها في الامرة.

٦ - اصداره للاوامر المكتوبة

ــ مما يدعو الى الملاحظة، أن الأوامر التي كان يصدرها الامام، سواء تلك التي اصدرها الى قادته، او تلك التي اصدرها الى قواته بصورة عامة، كان يصدرها مكتوبة، وكان الهدف فيما يبدو واضحاً من اصدارها على هذا النحو، فهو يقصد منها امرين هامين، الأول، انها ستجعل كل من يستلمها مسؤولاً مسؤولية مباشرة امامه، فيما لو قصّر في تنفيذها لانه لن يستطيع ان ينكر استلامها، والثاني، انها لن تصبح قابلة للنسيان، لأن القائد سوف يرجع اليها وهي في جيبه، يتفحصها كلما وجد ان ذلك ضرورياً في موقف من المواقف.

ــ اصدر الامام اوامر مكتوبة لاغراض مختلفة، وهي:

١ - اوامر الحركات للقوات.

٢ - اوامر يومية للقادة والوحدات.

٣ - اوامر للجباة لتنظيم الخراج، لدعم المعركة وتأمين احتياجاتها الادارية والمالية.

ــ ونموذج أمر الحركات، الذي اصدره الامام الى كل من زياد بن النضر وشريح بن هانيء حول درجة القيادة، واسلوب عمل المقدمة والذي سنبحثه بالتفصيل في وقت لاحق، يمثل نموذجاً لأوامر الحركات التي تصدرها الجيوش قبل بدء العمليات في الوقت الحاضر، وعندما وصل جيش الامام الى الرقة، بعث قوة المقدمة امامه، والتي كانت في حال انفتاح للمعركة، وعبرت النهر قبله، فلما قاربوا ان يصلوا الى جيش معاوية، استقبلتهم مقدمته التي كان يقودها ابو الأعور السلمي، فمكثوا في اماكنهم، كل مقابل الآخر، ارسل الامام مالك الأشتر ليقود المقدمة وزوده بكتاب يؤمّره فيه عليها، بعد أن زوده باوامر شفوية، وكان كتاب الامام الذي حمله الأشتر معه يتضمن:

«اما بعد، فاني قد امّرت عليكما مالكاً، فاسمعا له واطيعا امره، فانه ممن لايخاف رهقه ولا سقاطه، ولا بطؤه عن ما الأسراع اليه احزم، ولا الاسراع الى ما البطء عنه امثل، وقد أمرته بمثل الذي امرتكما، الا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم فيدعوهم ويعذر اليهم ان شاء الله»[1].

ــ اصدر الامام امراً يوميا الى امراء الأجناد - وهو يقابل قادة الفرق تقريباً - في الجيوش النظامية الحديثة يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي امير المؤمنين، اما بعد فاني ابرأ اليكم والى اهل الذمة من معرة الجيش، الا من جوعة الى شبعة، ومن فقر الى غنى، او عمى الى هدى، فان ذلك عليهم، فاعزلوا الناس عن الظلم والعدوان، وخذوا على ايدي سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا اعمالاً لايرضى الله بها فيرد عنا، وعليكم دعاؤنا، فان الله تعالى يقول (قل مايعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم، فسوف يكون لزاماً)، فان الله اذا مقت قوماً في السماء هلكوا في الأرض، فلا تألوا انفسكم خيراً، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة ولا دين الله قوة، وابلوا في سبيله، ما استوجب عليكم، فان الله قد اصطنع عندنا وعندكم مايجب علينا ان نشكره بجهدنا، وان ننصره مابلغت قوتنا، ولا قوة الا بالله»[2].

ــ لقد أراد الامام أن يبين مسؤوليات القادة والآمرين تجاه الجيش، والسيطرة

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٤ .

عليه، والاهتمام بمتابعة كل المظاهر المخلّة، والتصرفات غير اللائقة التي تسيء الى سمعة المقاتلين، خاصة عمليات السلب والنهب للمواشي والحبوب العائدة للناس والسكان الذين يمر الجيش بهم خلال تقدمه. لقد كانت الجيوش في تلك الأزمان، وقبلها وبعدها، بل وحتى الى وقت قريب، حروب القرون الوسطى في اوربا، وفي حروب حدثت في القرن العشرين في منطقتنا قبل وقت قصير، كانت الجيوش تنهب كل شيء يقع تحت ايديها، الحبوب، الحيوانات، من بينها المواشي والخيول والعربات، ولا تترك للسكان شيئاً يسد رمقهم، اضافة الى عمليات سرقة الحلي والجواهر والاغتصاب، بل ان عمليات السطو والسلب تنتهي احياناً كثيرة باحراق القرى والمدن وتدميرها، لكن الامام حدد المدى الذي لايحق للجيش ان يتخطاه، فما يتعلق بالأرزاق، فانه لايحق لأحد ان يأكل من الأرض التي ينزلونها دون عِلم اهلها، بل ان الامام كان يرفض التزود بالزاد وعلف الحيوانات دون دفع ثمنه، كما لايحق للمقاتلة ان يتناولوا اكثر من حاجتهم، او يأخذوا شيئاً منه بعد قضاء حاجتهم، ويبدو الامام على بينة تامة بالطبقات التي تتألف منها الجيوش، ومن بينها طبقة السفهاء، من الذين لايحسنون التصرف، والذين يُخشى من أن يكون تعاملهم مع اخوتهم المقاتلة، او مع الناس ليس مرضياً، لذا فانه طلب من القادة والآمرين في جيشه ان يراقبوهم ويحاسبوهم بشدة عند اول بادرة سوء تصرف، ولم يذكر التاريخ ان جيش الامام قد تعدى الحدود التي خطها له، بينما يزخر تاريخ الجيوش التي قاتلته بالتعدي والسلب والنهب، كالغارات التي شنها معاوية على اطراف العراق والحجاز، التي كانت تشهد عمليات سلب وسبي ونهب وقتل لاحدود لها.

ـ عندما مر الامام بالأنبار، وهو في طريقه الى صفين، خرج اليه اهلها واغلبهم من الفرس، يستقبلونه، ويقدمون له الهدايا والطعام «فلما استقبلوه نزلوا ثم جاءوا يشتدون معه، قال ما هذه الدواب التي معكم، وما اردتم بهذا الذي صنعتم؟، قالوا اما هذا الذي صنعنا فهو خُلُق منا نعظم به الأمراء، واما هذه البراذين فهدية لك، وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاماً، وهيأنا لدوابكم علفاً كثيراً، قال: اما هذه الذي زعمتم انه منكم خلق تعظمون به الأمراء، فوالله ماينفع هذا الأمراء، وانكم لتشقون به على انفسكم وابدانكم، واما دوابكم هذه فان احببتم إن

نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم، اخذناها منكم، اما طعامكم الذي صنعتم لنا فانا نكره ان نأكل من اموالكم شيئاً الا بثمن»[1]، وعندما اصروا على ان لايأخذوا أثمانها، معتبرين الذي قدموه هدية الى امير المؤمنين وجيشه، قال لهم غاضباً «ويحكم نحن أغنى منكم»[2]، وتركهم ثم سار في طريقه، وفي ساباط قبلها، قرب المدائن، «فأتاه دهاقينها يعرضون عليه النزل والطعام فقال: لا ليس ذلك لنا عليكم»[3].

ـ لقد اراد الامام بعمله هذا ان يضرب مثلاً رفيعاً يُقتدى به، التزاماً منه بامره الذي طلب فيه من جيشه ان لايعتدي على اموال الناس واملاكهم، فالقائد يجب أن يكون قدوة لمن معه، وعليه ان يكون اول المنفذين لاوامره قبل غيره، كي يُكسب تلك الأوامر صفة الهيبة والقدسية، والامام قد نهج خطاً صريحاً، ان يكون قدوة لاصحابه في كل شيء، وقد افلح ان يكون هكذا، ليس في حياته فقط، بل على امتداد التاريخ، وما دام الانسان يظل طامحاً الى الكمال، فانه سيجد أمامه الامام «غاية في الكمال» لقد رباه الله على يد نبيه الصادق، فنهل منه كل الصفات النبيلة، وترسخت في سلوكه وحياته كلها.

ـ لم يكتف الامام بتوجيه القادة نحو الحرص على الالتزام باوامره، بل اصدر امراً الى ولاته على المناطق التي سيمر بها جيشه، يأمرهم فيه باتخاذ كل الاجراءات الضرورية لردع المخالفين من المقاتلة، ويخبرهم برفع شكاواهم مباشرة اليه، فهو سيكون مع الجيش عند مروره عليهم، «من عبد الله علي أمير المؤمنين الى من مرّ به الجيش وجباة الخراج وعمال البلاد، اما بعد فاني قد سيرت جنوداً هي مارة بكم ان شاء الله، وقد اوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى، وصرف الشذى، وانا ابرأ اليكم والى ذمتكم من معرة الجيش - المعرة: المضرة -، الا من جوعة المضطر لايجد عنها مذهباً الى شبعه، فنكّلوا من تناول منهم ظلماً عن ظلمهم، وكفّوا ايدي سفهائكم عن مضارتهم، والتعرض لهم فيما استثنيناه منهم، وأنا بين اظهر الجيش فارفعوا الي مظالمكم وما عراكم مما يغلبكم من أمرهم،

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٤٤ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٤ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦ .

ولا تطيقون دفعه الا بالله وبي، اغيّره بمعونة الله، ان شاء الله»[1].

ــ قبل مسيره الى صفين اصدر امراً مكتوباً الى جنوده في الجيش، بين فيه الذي لهم والذي عليهم: «من عبد الله علي أمير المؤمنين، اما بعد فان الله جعلكم في الحق جميعاً سواء، اسودكم واحمركم، وجعلكم من الوالي، وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد، وبمنزلة الولد من الوالد الذي لايكفيهم منعه اياهم طلب عدوه والتهمة به، ماسمعتم واطعتم وقضيتم الذي عليكم، وان حقكم عليه انصافكم والتعديل بينكم، والكف عن فيئكم، فاذا فعل ذلك معكم وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق، ونصرته على سيرته، والدفع عن سلطان الله، فانكم وزعة الله في الأرض - الوزعة الذين يدفعون عن الظلم - فكونوا له اعواناً، ولدينه انصارا، ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها، ان الله لايحب المفسدين»[2].. ان الامام يطلب من المقاتلة اطاعة القادة، ولكن تلك الطاعة مقيدة بطاعة الله وبما يوافق الحق، والامام في هذا الأمر يوضح ان مبدأ العدالة يجب ان يسود بين صفوف الجيش، لافرق بين الأسود والأحمر، الكل سواسية، لهم ماوجب اعطاؤهم اياه، وعليهم مايجب تأديته بصورة لا لبس فيها.

٧ - قيادته للمعارك من الخط الأمامي

ــ لقد اثبتت التجارب قديمها وحديثها، بان القادة والآمرين، عندما يكونون في المقدمة مع مقاتليهم، فانهم يساهمون مساهمة فعالة في سرعة احراز النصر ودحر العدو، ولو درسنا تجربة الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية في هذا المجال، لوجدنا ان خيرة القادة الألمان كان من يشاهد كثيراً بالقرب من الحافات الأمامية للمعركة، فرومل «ثعلب الصحراء» كان من أكثر القادة، ربما في العالم، يقضي ثلاثة ارباع وقته في الخطوط الأمامية، او في مقره الجوال - خاصة عند نشوب المعارك - وكان لايشغل نفسه بالقضايا الكتابية وواجبات الأركان، بل كان دائما مايصدر اوامره شفوية ومكتوبة من مقره الجوال عند الخطوط الامامية او بقربها، وكان يعالج المواقف بنفسه وعلى الطبيعة، يرى الموقف امامه واضحاً،

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٦ .

دون الحاجة الى اضاعة الوقت بنقل الرسائل الى المقرات الخلفية التي ربما لاتملك تصوراً كاملاً عن سير المعركة وتطوراتها، كما ان للوقت في الحرب - خاصة الحديثة - اهمية قصوى بسبب سرعة تبدل المواقف، بالنظر لما تمتلكه المعدات من سرعة حركة وقابلية صدمة، وقوة نارية قد تؤدي الى تغيير سير المعارك بصورة مفاجئة، والملاحظ ان اكثر القادة الألمان قد قتلوا في الخطوط الأمامية، نتيجة القصف الجوي او المدفعي، او تعرضهم للنيران المباشرة، كما حدث للجنرال «شتومة» قائد قوات المحور في شمال افريقيا، في الحرب العالمية الثانية، والذي استلم القيادة بعد سفر رومل الى المانيا للعلاج، وقد دخل رومل نفسه الى مناطق القوات البريطانية عدة مرات معتقداً بانه يتجول بين قواته، الا انه استطاع بذكائه وشجاعته ورباطة جأشه أن يتملص من بينها، تاركاً البريطانيين معتقدين بانهم ربما كانوا على وشك الاسر في ارض اجتازتها القوات الألمانية.. ان اهم ميزة امتاز بها الجيش الألماني، وجود قادته الى الامام يعالجون المواقف بصورة مباشرة، وقد اتاح لهم ذلك سرعة الانتصارات التي احرزوها في بداية الحرب، في بولندا، النروج، فرنسا، روسيا.

ـ وفي كل المعارك التي شارك فيها الامام علي قبل خلافته وبعدها، كان موقعه دائما الى الامام، وكان لهذا الأمر تأثير كبيز على سير المعارك والسيطرة على تطوراتها، وفي اللحظات الحرجة، التي كانت تسير فيها تطورات المعركة في غير صالحه، والتي كانت تبدو فيها خسارته للحرب وشيكة، لم ينقذ الموقف من التدهور سوى وجوده الى اقصى الامام، يقاتل العدو بيده، يزيحه عن اماكنه ويحطم ترتيبه القتالي ويصدر اوامره المتلاحقة الى القادة والآمرين، في الوقت نفسه يحثهم على الاسراع بتنفيذ توجيهاته التي كانت تستهدف سد الثغرات في الموقف العسكري، وكان يرفع من عزيمة الصامدين، ويثير فيهم النخوة والحماس، ويؤنب الفارين او المترددين، ويذكرهم بالعهد الذي قطعوه لله وله، واضعا أمام اعينهم العار الذي يلحق بهم وبقبائلهم، لو أنهم خسروا الحرب وهم فارون، كما حدث عندما انهزمت ميمنته في حرب صفين امام اهل الشام، فلولا وجوده بين المقاتلين، لما امكن تلافي الموقف الصعب، حيث اتجه الى الميسرة يدفع المقاتلين معه لسد الثغرة في الترتيب القتالي لقواته في الميمنة، وكان يصدر اوامره

الصارمة لقادته وهو يقاتل، فقد أمر مالكا الأشتر ان يجمع الناس المتقهقرين ويدفعهم اليه للقتال معه، الى ان تم التغلب على ميسرة قوات معاوية ودفعها عن ميمنة قواته الى الخلف، وقد ظل ينتقل من الميمنة الى الميسرة ومنها الى الميمنة، يصدر اوامره المتتالية، وكان القادة بين يديه يستجيبون له غريزياً وعفوياً حتى استطاع ان يسيطر على الموقف، ويعيد ترتيب قواته مرة أخرى.

ـ عندما يرى المقاتل قائده يتقدم امامه في القتال، ويلبي طلب البراز الذي كان يطلبه جنود جيش عدوه من المقاتلين والقادة، يخرج اليهم شخصياً ويصرعهم امام الجيشين، فان معنويات المقاتلين والقادة والآمرين، سوف ترتفع ارتفاعاً كبيراً، بل انهم سوف يتسابقون في القتال امامه، كي لايروا انفسهم مقصرين عن اداء قائدهم القتالي واندفاعه، وكان لمواقف الامام وتقدمه نحو عدوه دون درع، غير متهيب للمخاطر والحتوف، أثر كبير على جنوده وجنود عدوه في الوقت عينه، فعندما كان يتقدم على هذه الحالة، فانه يطمع عدوه فيه، لكنه عندما يجده طوداً شامخاً، وجبلاً لايمكن النيل منه، او الوصول اليه، فان روحه المعنوية تأخذ بالانحسار والانهيار، ويأخذ بالتقهقر رويداً رويداً، اما جنوده فان العزم سيأخذهم، واندفاعهم نحو عدوهم سيكون كالسيل الجارف.

ـ صحيح ان وجود القائد العام في الامام ربما يعرض القوات كلها لخطر الهزيمة والاندحار فيما لو قتل او اغتيل، لكن تلك المعارك هي من نوع المعارك الفاصلة التي يتوجب فيها وجود القائد في الامام مع قواته، وان خسارة المعركة او ربحها تعني بصورة واضحة خسارة نهائية او نصراً نهائياً لارجعة فيه، وعلى الرغم من أن الامام يمتلك عمقاً جغرافيا وبشرياً اكثر من خصمه، لكنه كان يعي بعين ثاقبة بان الخسارة لاتحتمل، وقد فعل الامام ذلك سواء في معركة الجمل او صفين او النهروان، وقد جاء معاوية مع قواته، لأنه يعلم انه لافائدة من وجوده في دمشق، عندما تخسر قواته الحرب، لانه دفع بكل ماكان بين يديه من رجال ومال الى ارض صفين، وان حظه في الاستعداد لمعركة أخرى معدوم، الا أنه لم يكن يتقدم معها للقتال، بل كان ينصب له مقراً - عدداً من الخيام - يحيط به عدد من الجنود النخبة، المخلصة له، مشكلين طوقاً لحمايته، خوفاً عليه من الهجمات التي ظلت تستهدف مقره هذا مرة بعد أخرى.

ـ لقد خرج الوليد بن عبد الملك بنفسه، على راس جيشه، متجهاً الى العراق لقتال مصعب بن الزبير، لأنه ادرك بانه انما يخوض معركة فاصلة. لقد كانت المعارك الداخلية كلها تحمل صفة الحسم، لذا فان الأمراء كانوا يقودون بانفسهم جيوشهم، ومن تخلف عن هذه القاعدة فقد خسر الحرب كلها، وقد كانت خسارة مصعب للحرب قد وضعت نهاية مفجعة للحركة الزبيرية كلها. وقد كان الأجدر بعبد الله بن الزبير ان يلتحق بمن معه من انصاره من مكة الى العراق، ملتحقاً بأخية مصعب، اذ لأمكن - ربما - تفادي الخسارة النهائية، فبعد القضاء على مصعب، الذي كان يقود القسم الأكبر من الجيش، تم توجيه قوات كبيرة من الشام الى عبد الله في مكة وقتله فيها، ومن ثم فشل الحركة كلها. ان بقاءه في مكة لم يكن له مايبرره على الاطلاق، فموارد مكة محدودة لاتساعد على ادامة القتال ويسهل محاصرتها، ومن ثم احتلالها، وهو ماحدث لها فعلاً فيما بعد.

ـ ان من الفوائد الهامة لوجود الامام مع جيشه، ضبط تصرفات المقاتلة اثناء المعارك وبعدها، فلو أن الامام لم يكن موجوداً مع جيشه في معركة الجمل لحدثت تجاوزات كثيرة، واعمال انتقام فظيعة، اضافة الى احتمال حدوث عمليات السلب والنهب، وسوق النساء وأخذهن سبايا واسارى ربما سيشكل اساءة الى ماكان يريده الامام من استتاب الأمن والأخوة والعفو عن مناجزيه عند المقدرة عليهم، لأن ذلك سيكون اسلم لوحدة المسلمين وحفاظا على ارواحهم ودمائهم وممتلكاتهم، ولقد اعترض الامام على كثير من طلبات جنده وقادتهم حول قتل الأسرى وسلبهم املاكهم ونساءهم، ولم يقبل لهم ذلك، بل اجاز لهم فقط الاستيلاء على مافي ساحة المعركة من اسلحة واموال وأسلاب، ومنعهم من استباحة مدينة البصرة وانتهاكها.

ـ الا اننا عندما نقف امام الحقيقة، وهي ان الامام عليا كان يمتلك من المواهب والصفات القتالية والقيادية مالم يمتلكه غيره ابداً ، فاننا سوف نجد حضور الامام في الخطوط الامامية يقاتل مع قواته، أمراً لايثير الاستغراب والدهشة. يصف (وحشي) الامام علي عندما طُلب اليه ان يقتله يوم أحد، انه لاقبل له فيه «واما علي فرجل حذر فَرِس، كثير الالتفات في الحرب لااستطيع قتله»[1]، لكنه قال

(١) شرح نهج البلاغ، ابن ابي الحديد، المجلد الأول، ص ٢٤٣، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم.

بانه يستطيع قتل حمزة، «فانه رجل لايبصر امامه في الحرب»[1]، وهذا يعطينا صورة عن طبيعة الامام علي عندما يشترك في القتال والحرب، فعلى الرغم من كونه لايرتدي دروعاً، الا قميصاً مفتوح الأزرار من صدره، يخرج يديه من اكمامه، ولا يضع على راسه سوى عمامته، الا ان احداً لم يستطع أن ينال منه في أية معركة من المعارك التي اشترك فيها.

ـ يقول عبد الفتاح عبد المقصود في كتابه «الامام علي بن ابي طالب»، واصفا الامام عندما يدخل الحرب، ولم يزل فتى، لم يتجاوز عمره العشرين عاماً الا قليل، «ولكنه كاد ان ينفرد بجنان ثابت وقلبه جلد، لايستطيع ان يطرقه خوف، او تطوف بساحته رهبة، ولم يكن فوق هذا وذاك كأولئك الشجعان الذين ينسون في معمعات المعركة كيانهم، ويفنون فيها فناء يحجب عن ابصارهم سيرها، وانما كان مرهف الحواس، متمالك الجأش، يقظاً تمام اليقظة امام كل صغيرة وكبيرة تبدو اثناء الصراع من مناجزيه، حتى كانما جسمه كان عيوناً تنظر، وما من شك في انه لم ينفرد وحده بالصيال، ولكن الثابت ثبات اليقين انه وحمزة عمه كانا فرسي الرهان»[2]، وبعد ان استشهد عمه في معركة أحد، فمن المؤكد أن علياً وحده ظل المالك الوحيد للشجاعة والثبات.

٨ ـ التعليم الفردي والتكتيك (التعبية)

ـ اظهر الامام فهماً تفصيلياً في التعليم الفردي للمقاتلين وفن التكتيك (التعبية)، وتعليم المقاتلين الفردي، هو فن استخدام الأسلحة والمعدات في ساحة المعركة للوصول الى الاستفادة القصوى من خواص تلك الأسلحة والمعدات، للحصول على اكبر تأثير ممكن لها خلال القتال، اما التعبية، فهي فن استخدام القوات في ساحة المعركة، والتعليم الفردي والتعبية متلازمان يكمل بعضهما بعضا، فاتقان المقاتل للمهارات الفردية يقتضي اكمالها، بتحول تلك المهارات الى مهارات جماعية، اي حركة وقتال الأفراد كمجموعة واحدة، للحصول على التأثير الجمعي لهم، حيث يُطلب منهم التصرف كشخص واحد، والجيوش

---

(١) شرح نهج البلاغ، ابن ابي الحديد، المجلد الأول، ص ٢٤٣، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم
(٢) الامام علي بن أبي طالب، عبد الفتاح عبد المقصود، الجزء الأول، ص ٦٢ .

المتقدمة هي التي يصل فيها التدريب الفردي الى ارقى مايمكن في استخدام الأسلحة والمعدات المتطورة، واتقان اساليب القتال في ساحة المعركة، لمجموعات القتال، من أصغر وحدة، حتى أكبر تنظيم عسكري تعتمد عليه تلك الجيوش، من مجموعة الأفراد، الحضيرة والفصيل صاعداً حتى مستوى الجيش، وكما اتقن الأمام ايضاً مايسمى الآن بـ«العمليات الخاصة»، والتي كانت الغارات تمثل نموذجاً لها، كل ذلك بالاضافة الى ادراكه أسسَ ومفاهيم العمليات الاستراتيجية الكبرى، والذي اظهره خلال تنقله بصورة خاصة، من الكوفة الى صفين. سوف نتطرق في بحثنا هذا الى المفاهيم التالية:

١ - التعليم الفردي.

٢ - التعبية، والذي يشمل موضوعات تعبوية، كعمل قوة الطليعة واساليب تقدمها وواجباتها، والغارات، نوع القوة المستخدمة فيها، اهدافها، ومن ثم التعسكر في العراء، شروطه وواجباته.

اما موضوع الاستراتيجية العسكرية فسنتطرق اليه بصورة شاملة خلال بحثنا في المعارك التي خاضها الامام، بعد تسلمه الخلافة، وهي معركة الجمل، وصفين، والنهروان.

التعليم الفردي

ـ ان التعليم الفردي للمقاتلين، يأخذ في الواقع اتّجاهين، يناسبان طبيعة الحروب في تلك الأزمان، الأول، تقديم دليل لعمل المقاتل خلال المعركة، المعركة التي كانت سائدة في ذلك الزمن، والذي يساعده على القتال والاستمرار فيه، تلك النصائح والارشادات التي يمكن عند اتباعها تقليل الخسائر الى الحد الأدنى، وتثبيت العزائم، ارشادات يتوجب على المقاتل ان يحفظها عن ظهر قلب، ويتدرب عليها، حتى تصبح عملية اتباعها في القتال غريزية، اما ثانيهما، فهو استخدام الأسلحة والدروع نفسها خلال المعركة، ومن كلام للامام، قاله لابنه محمد بن الحنفية عندما اعطاه الراية يوم الجمل «تزول الجبال ولا تزل، عض على نواجذك، اعر الله جمجمتك، تِدْ في الأرض قدمك، إرم ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، واعلم ان النصر من عند الله

سبحانه»[1]، وقوله تزول الجبال ولا تزل، تقديره، حتى وان زالت الجبال، فان عليك ان تثبت، وهنا يراد المبالغة في الوصية، كي يدفع في قلب المقاتل التصميم على مواصلة القتال حتى النفس الأخير، وان لامجال للتراجع ابداً، والناجذ اقصى الأضراس، وهذا ينفع المقاتل لأن الضغط بشدة على الأسنان يؤدي الى تصالب عضلات الجمجمة، وتراص عظامها، مما يخفف من أثر ضربة السيف عليها، واثبت اقدامك بالأرض، كناية على صموده وعدم تزحزحة عن موقفه، وقد استعار الامام تعبير «اعر الله جمجمتك»، اشارة الى التوجه الى الله والتوكل عليه واعارته رأسه حتى تنتهي المعركة، وهي تشجيع للمقاتل بانه سوف يخرج حياً منتصراً، لأن الاعارة سوف يتبعها - بالتأكيد - استعادة المعار، اي ان الامام لايُرهب مقاتليه من عدوهم، بل يذكرهم بان الحرب منتهية لامحال الى المجد الذي سيقطفونه في الدنيا والآخرة. وقوله «إرم ببصرك أقصى القوم»، و«غض بصرك»، لاتناقض فيه، لانه يوصيه بانه عندما يتقدم في بدء القتال، فعليه ان ينظر الى الأفق حيث اقصى حشود العدو، كي لايدخل الخوفُ قلبه عندما يستعرض بنظره حشودهم كلها، حيث ان كثرة الحشود تؤثر في روح المقاتل وتفلّ من عزيمته، وعلى المقاتل ان يفتح عينيه ويرفع بصره، ويحدق باقصى القوم كما يفعل الشجاع المقدام غير المكترث او المبالي، بينما الجبان تضعف روحه ويخفق قلبه هلعاً، ولا يرتفع طرفه ولا يمتد عنقه، مما يظهره ناكس الرأس، فيطمع عدوه فيه، اما غض البصر، فانه عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم لئلا يبرق بصره، وتصيبه الدهشة، ثم يستشعر الخوف والتردد.

ــ وكان الامام يوصي اصحابه عند الحرب بقوله «لاتشتدن عليكم فرة بعدها كرة ولا جولة بعدها حملة، واعطوا السيوف حقوقها، ووطنوا للجنوب مصارعها، واذمروا انفسكم على الطعن الدعسي والضرب الطلفحي»[2].

ــ في التدريب الفردي يزود الأفراد بخبرات استخدام الأسلحة والدروع، وقد اوصى الامام جيشه قبل المعركة وصايا تتضمن تلك المفاهيم اضافة الى ماكانت تفرضه طبيعة القتال في الحروب القديمة، خاصة فيما يتعلق بحمل الراية،

(١) شرح النهج، ابن ابي الحديد، المجلد ١ ، ص ١٩٩ .
(٢) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ١٩٩ .

والمحافظة عليها، وكتم الأصوات، يقول الإمام «فقدِّموا الدارع، وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس، فإنه انبى للسيوف عن الهام، والتووا في اطراف الرماح، فانه اموَر للأسنّة، وغضوا الأبصار، فانه اربط للجأش، واسكن للقلوب، واميتوا الأصوات فانه اطرد للفشل، ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلّوها، ولا تجعلوها الا بايدي شجعانكم والمانعين الذمار منكم، فان الصابرين على نزول الحقائق هم الذين يحفون براياتهم، ويكتنفونها حفافها وامامها، ولا يتأخرون عنها فيسلموها، ولا يتقدمون عليها فيفردوها»[1]، حيث يدعو الامام المقاتلين الذين يرتدون الدروع، ان يتقدموا الجيش في القتال في الصفوف الأمامية، تليهم الجنود من غير المدرعة، لان شدة القتال وعنفه تبدأ في لحظاتها الأولى عند اصطدام الصفوف المتقابلة، فاذا كانت الصفوف الأمامية ضعيفة، فانها لاتستطيع ان تتحمل قوة الصدمة فتنهار بسرعة، تاركة المجال للعدو ان يواصل تقدمه في عمق الصفوف، محدثاً فيها خسائر جسيمة، كما امرهم ان يحفظوا راياتهم ان لاتميل، لانها اذا ما مالت انكسر الجيش، لأن المقاتلين يظلون ينظرون الى رايتهم خلال القتال، فان لم يروها قائمة، فان الاعتقاد سوف يسود عندهم بان الفشل قد اصابهم، وان عدوهم قد نفذ الى محلها واخذ يقاتل عندها، وكان العرب يتعاملون مع الراية بالصورة التي ذكرناها، فهي التي يمثل استواؤها لديهم القدرة والعزيمة والاستمرار في القتال، لذا فان الامام يؤكد على ان الراية يجب ان لاتعطى للجبناء وذوي الهلع، كي لاينكسوا بها، ويجبنوا عن امساكها، والذمار هو ماوراء الرجل مما يجب عليه حمايته، وسمي ذماراً لانه يجب على اهله التذمر له، اي الغضب.

ـ ثم يلتفت الامام الى ناحية فنية في القتال، فهو عندما يقول: «والتووا في اطراف الرماح، فانه أمور للأسنة»، فانه انما يشير الى ان على المقاتل ان يلتوي اذا طُعن بالرماح من عدو لأنه اذا فعل ذلك، فان سنان الرمح سوف يزحف وينزلق عن موضع الطعنة، فلا يخترقه الى جسمه، فعندما يسدَّد الرمح باتجاه الخصم، فانه يوجه الى نقطة في جسمه، والتي سدد عليها الخصم، وكأن الهدف ثابت، اما اذا تحرك المقاتل وزاغ عن الرمح، فانه حتى لو اصابه، فانه سوف يفلت النقطة

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ص ٢٦٧، المجلد الثاني.

التي سدد اليها خصمه وحددها، فينزلق الرمح عنها، وتلك المزية يكتسبها المقاتل من الخبرة الطويلة في القتال والتدريب، او كليهما، وعندما تفشل رمية الرمح التي يرسلها الخصم، فان المجال سوف يصبح مواتياً امام خصمه للتسديد برمحه بالطريقة التي يراها مناسبة وبحرية كافية، بعيدا عن التهديد، حيث ان الخصم قد اطلق رمحه، ولم يعد لديه مايقاتل به سوى السيف، الذي عليه ان يمسكه بيده بقوة كي لايفلت.

تعليم التعبية عند الامام

ــ كان الامام علي مدركا عالماً بعمق للتعبية، حركة القوات في ساحة الحرب، ومتطلباتها، مارسها في الغارات التي نفذها، عندما اخرجه الرسول الكريم على رأس عدد من السرايا، لتنفيذ واجبات عدة، وعلّم التعبية كذلك لقادته الذين كلفهم ببعض المهمات، كما حدث عندما اخرج قوة الطليعة لقواته من الكوفة، وهو عازم على الحركة الى صفين، وبعد ان أمّر زياد بن النضر وشريح بن هانيء، وامرهما ان يسيرا في طريق واحد ولا يختلفا، خرجت قوة المقدمة مؤلفة من اثني عشر الف مقاتل، ثمانية ألاف منهم بقيادة زياد بن النضر، واربعة الاف بقيادة شريح بن هانيء، وكما يفعل القادة في الحروب الحديثة، اصدر لهم امرا مكتوباً، يتضمن واجبات قوة المقدمة وطليعتها، وهو أمر في غاية الروعة والبيان والاختصار، لما يجب عليهما ان يقوما به خلال تنقلهما او عندما يعسكران في العراء، او عندما يلتقيان بالعدو اثناء تقدمهما، ولم تكن اوامره تلك حرفية، تدخل في كل التفاصيل الواجب اتباعها عند كل موقف، فقد ترك لهما حرية العمل، في اطار توجيهه العام، عند حدوث اشتباك محدود، ومعالجة موقف طارىء، الا انه اوضح لهما اسلوب عمل المقدمة والزمهما به، وقد عالج الخلاف الذي حدث بينهما كما تحدثنا عن ذلك في موضوع (معالجة مشاكل القيادة)، كما اننا سوف نبحث «معسكر العراء» في موضوع منفصل للحاجة الى ذلك.

ــ كتب الامام توجيهه التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي امير المؤمنين الى زياد بن النضر وشريح بن هانيء، سلام عليكما، فاني احمد الله الذي لا اله الا هو، اما بعد فاني قد وليت مقدمتي زياد بن النضر وامرته عليها،

وشريح على طائفة منها أمير، فان جمعكما بأس فزياد بن النظر على الناس، وان افترقتما فكل واحد منكما امير الطائفة التي وليناه امرها، واعلما ان مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فاذا انتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع، ومن نفض الشعاب والشجر والخمر من كل جانب، كي لايغتركما عدو، او يكون لكم كمين، ولا تسيّرنّ الكتائب والقبائل من لدن الصباح الى المساء الاّ على تعبية، فان دهمكم داهم، او غشيكم مكروه، كنتم قد تقدمتم في التعبية، واذا نزلتم بعدو او نزل بكم، فليكن معسكركم في قبل الاشراف او سفاح الجبال او اثناء الانهار، كي مايكون ذلك لكم ردءاً، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد او اثنين، واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال، وبأعالي الأشراف، ومناكب الهضاب، يرون لكم لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة او أمن، واياكم والتفرق، فاذا نزلتم فانزلوا جميعاً، واذا رحلتم فارحلوا جميعاً، واذا غشيكم ليل فنزلتم، فحفوا عسكركم بالرماح والأترسة، ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم، وما اقمتم فكذلك فافعلوا، كي لاتُصاب لكم غفلة، ولا تُلفى منكم غرة، فما قوم حفّوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل او نهار الا كانوا كأنهم في حصون، واحرسا عسكركما بانفسكما، واياكما ان تذوقا نوماً حتى تصبحا الا غراراً او مضمضة، ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا الى عدوكما، وليكن عندي كل يوم خبركما ورسول من قبلكما فاني - ولا شيء الا ماشاء الله - حثيث السير في اثاركما، عليكما في حربكما بالتؤدة، واياكم والعجلة، الا أن تمكنكم فرصة بعد الاعذار والحجة، واياكما ان تقاتلا حتى أقدم عليكما، الا أن تُبتدأ او يأتيكما أمري ان شاء الله والسلام»[1].

ــ تقسم القوة المتقدمة عادة الى الأقسام التالية، وهذا التقسيم لم يتبدل في جوهره مطلقا، وظلت الجيوش المتقدمة خلال الحروب، قديمها وحديثها، تتبع نفس الأساليب هذه حتى عصرنا الراهن، وقد اتبع الامام نفس تلك الأساليب خلال تقدمه:

اولا: المقدمة، وتخرج امامها قوة صغيرة تسمى النفيضة، او الطليعة.

ثانيا: القسم الأكبر [القلب].

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٢٥ .

ثالثا: الـمَجْنَبات - واحدة او اثنتان، يمين او يسار القسم الأكبر، حسب طبيعة الأرض، وتيسر الطرق، وحجم ونوع تهديد العدو.

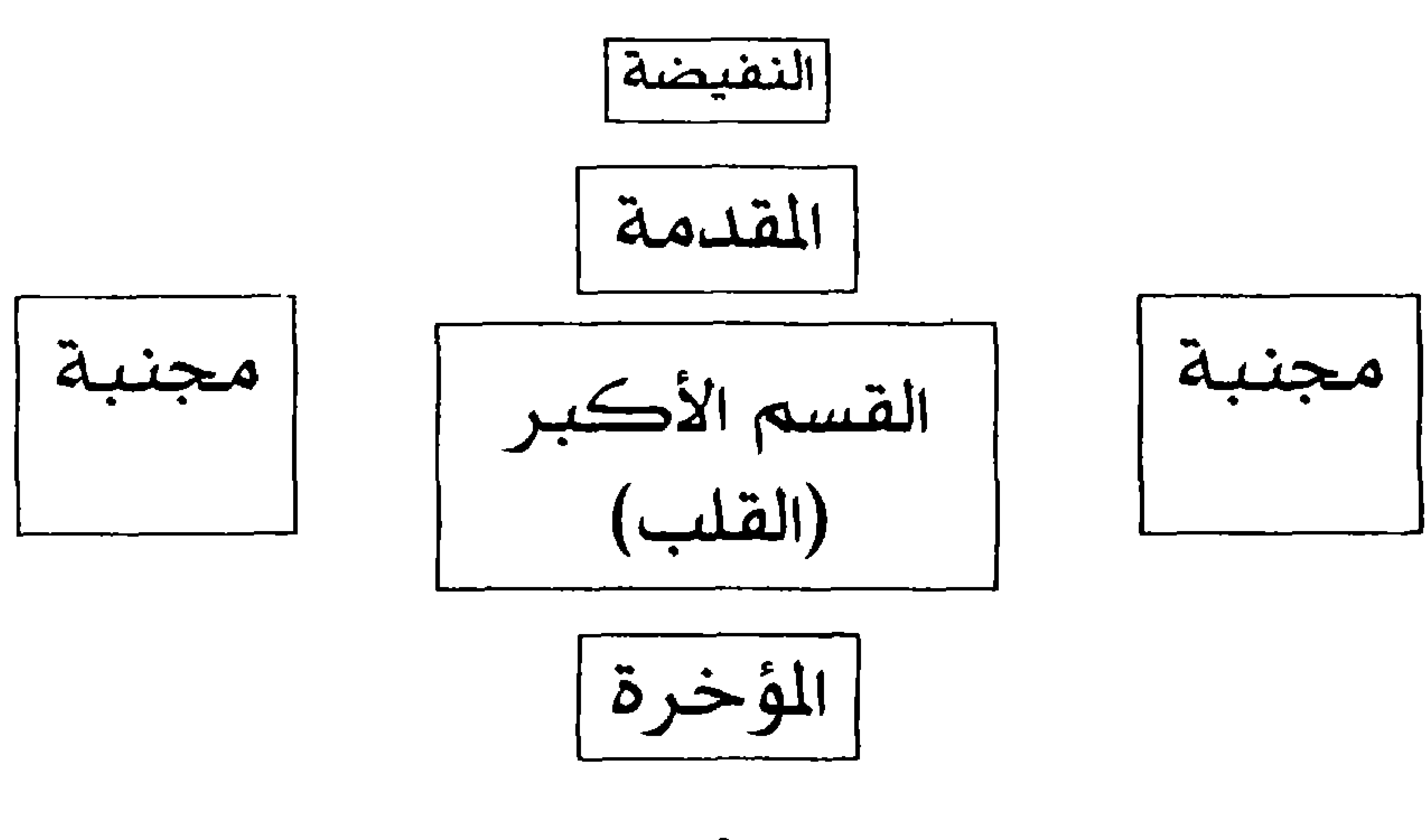
رابعاً: المؤخرة، او الساقات.

ـ الا أن ثبات هذا التشيكل في الحروب القديمة والحديثة ظل يتفاوت عند نشوب المعارك خاصة، ففي كلا الحربين تندمج المقدمة بالجزء الأكبر وتصبح جزءاً منه، وباستثناء ذلك يظل هذا التشكيل نفسه عند خوض المعارك في الأزمان الغابرة، فيتقابل الجيشان وهما بتشكيل القلب، والمجنبات والساقات، اما في الحروب الحديثة، فان تشكيلات اخرى تظهر تبعاً لتقسيم الواجبات، الا ان العمليات الكبرى، قد تحتاج الى فرز قوتي مجنبة لحماية جناحي ساحة الحركات او احد جوانبها، لمنع العدو من الهجوم من أحد الجوانب على ساحة المعركة مما يؤدي الى ارباك عمليات الانفتاح للمعركة او التأثير فيها عندما تبدأ، وقد يعمد الى حماية الأجنحة التي يمكن ان يأتي منها التهديد بعد أن تتم عمليات الخرق العميقة باسلحة الدروع، وحدات الدبابات، بواسطة وحدات المشاة الراجلة او الآلية، كما حدث في الهجوم الألماني على فرنسا، في الحرب العالمية الثانية، بعد أن استطاعت الارتال المدرعة من احداث خرق عميق في دفاعات الحلفاء الفرنسيين والبريطانيين والبلجيكيين.

ـ ويؤثر في كل قسم من هذه الأقسام الأربعة وفي حجم قواته، ونوعية اسلحته عوامل كثيرة أهمها، طبيعة الأرض وقوة العدو التي يفرزها على محور تقدم القوات، ونوع التسليح المعادي، والموانع الاصطناعية والطبيعية، ونوع وحداتنا وطبيعة تسليحها، وهذه العوامل تفرض نفسها على جسم كل منها في كل العصور والأزمان، فتأليف قوة المقدمة يتأثر بطبيعة الأرض، جبلية كانت ام سهلية، ام صحراوية، كما يتأثر بحجم القوات التي يفرزها العدو على محور تقدمها، لغرض فرض الاعاقة عليها، أو ايقاع أكبر ما يمكن من الخسائر بها ومن ثم كسب الوقت لتهيئة القوات الرئيسية من أجل الحصول على افضل مايمكن من الظروف والوسائل لخوض المعركة الرئيسية، كما يؤثر نوع التسليح المعادي على حجم القوة ونوع التسليح الواجب امتلاكها له ويظهر ذلك جلياً في الحروب الحديثة، فاذا كانت الأرض تسهّل حركة نوع معين من القوات كالدروع مثلاً،

كأن تكون صلبة ومفتوحة كالأراضي الصحراوية والسهلة، فان قوة المقدمة يمكن أن تحتوي على نسبة من الدروع، اما اذا كانت جبلية قليلة المسالك، فانها تعتمد على المشاة الذين ينتقلون على الحيوانات، وربما امكن استخدام الطائرات المروحية لنقل القوات الى قمم الجبال، والمناطق المشرفة لمسك العوارض المهمة لتأمين تقدم بقية القوة، كما ان مقاومة العدو - قوته - اذا كانت كبيرة، فانها تحتاج الى قوة اكبر في المقدمة واذا كان العدو يمتلك قوة نارية ضخمة في موقع الاعاقة التي يتركها على محور او محاور التقدم، فاننا سنحتاج الى اسلحة تؤمن قوة نارية ملائمة لمعالجة قوة العدو تلك، حيث تفرز مدفعية قادرة على مرافقة قوة المقدمة او قوة مدرّعة لتأمين التوازن في النيران، الا أن امتزاج هذه العوامل الثلاثة معا هو الذي يؤثر في القرار النهائي على حجم وطبيعة تسليح القوة المتقدمة ولا يمكن مناقشة كل عامل على حده للخروج باستنتاجات منطقية، وهذه العوامل الثلاثة تؤثر ايضا على تشكيل قوة المقدمة، وقد فرضت تأثيرها كذلك على تشكيل تلك القوة خلال الحروب السابقة، فالأرض تؤثر على نوع القوة راجلة او راكبة ونوع تسليحها وثقله، وحجم قوة العدو المحتملة يؤثر على حجم قوة المقدمة... وهكذا.

ــ ولم يكن العرب في الجاهلية يجهلون هذا التقسيم للقوات، فقد كانوا يسمون الجيش بـ«الخميس»، لانه ينقسم اساسا الى تلك التقسيمات الخمسة، الا ان حربهم كانت تأخذ طابع الكر والفر، المنهك للقوات، مما يستدعي ان لايتم



الالتزام دوما بالثبات على هذا التقسيم في هذا النوع من الحرب، التي تحتاج الى تشكيلات خاصة، معتمدة على الخيول التي تؤمن الحركة السريعة اللازمة لانجاز عمليات الكر والفر، الا انهم اخذوا يتقنون اساليب الحرب المعروفة، آنذاك عند احتكاكهم بجيوش الدولتين التي قاتلوها اثناء الفتح الاسلامي لبلاد الشام والعراق وهما الدولتان البيزنطية والفارسية وربما استخدموه مرة في معركة ذي قار التي خاضوها قبل ظهور الاسلام.

ــ لقد أوضح الامام علي واجبات المقدمة بدقة رائعة تبعث على الاعجاب، ولم يكن توجيهه هذا يقل روعة وبياناً عن اية كراسة عسكرية تدَرّس في كليات الأركان في مختلف جيوش العالم، فواجب المقدمة الأساسي هو الاستطلاع وجمع المعلومات، والصدّ أمام القسم الأكبر، وهي عيون القسم الأكبر التي ترى فيها العدو، حجم قواته، المرحلة التي وصلها في تقدمه، او قوة موضعه الدفاعي ونوع تسليحه، طبيعة الأرض، نوع الموانع الطبيعية على محور التقدم، سعة الأنهار وقابلية العبور، مناطق العبور والمخاضات، الجبال والمناطق المشرفة المسيطرة، وقد جرت العادة ان تفرز المقدمة قوة صغيرة امامها تسمى «الطليعة»، تتقدم امام المقدمة تكون بمثابة عين لها، حيث يوصي الامام قائدي قوة المقدمة ان لايملا من اخراج الطلائع امام قواتهما وتوجيهها الى كل الاتجاهات، فتقوم بالتفتيش في كل الوديان والغابات، ولقد جاءت كلمة «نفيضة» بليغة جدا في معناها اللغوي، فهي تعني الجماعة «الحشد» الذين ينتشرون في الأرض ليتحسسوا، وبالتالي لينظروا هل فيها عدو أو خوف، والهدف من ذلك حرمان العدو من مباغتة القوة المتقدمة، أو وقوعها في كمين معاد، ينصبه العدو لها اثناء تقدمها، وقد امر الامام ان تكون الكتائب المتقدمة متأهبة للقتال دوماً، وذلك بان تواصل سيرها، وقد أخذت تشكيل الانفتاح النهائي للقتال، وهو مايسميه الامام «التعبية»، لأن ذلك يجنب القوة ضياع الوقت، ففي حالة تقدم المقدمة بشكل اعتيادي، فان القائد سوف يحتاج بالتأكيد الى وقت، تستغرقه عمليه اصدار الاوامر، ثم انفتاح القوة يميناً ويساراً والى الامام، مما سيمكن العدو من الفرار بعد ان يقوم بضرب القوة خلال انشغالها بالانفتاح، وهي الفترة التي تكون فيها القوة على اضعف ماتكون، لذا فان تقدم قوة المقدمة، وهي منفتحة بتشكيل المعركة،

سوف يمكنها من الرد الفوري والسريع ازاء أي هجوم مباغت معادٍ ويمنعه من التملص والفرار، مما يضطره الى الانسحاب دون أن ينفذ هجومه، او تترك كمائنه اماكنها منسحبة الى الخلف دون ان تحقق اهدافها.

ــ وينتقل الامام الى مهام القادة في تلك المواقف وهي السهر على أمن القوة وسلامتها ويأمر قائدي المقدمة ان يشرفا شخصياً على ترتيبات الحراسة والتأكد من سلامتها، وذلك ببقائهما ساهرين عليها ليلاً، فينتقلان من مركز رصد وحراسة الى آخر، ويذكرهما بأن لايناما الا قليلاً، كي يستطيعا ان يعالجا المواقف الطارئة بسرعة، وأن يظلا هكذا حتى يلتقيا بقوات العدو. ان قوة المقدمة التي تقود التقدم وهي بحالة انفتاح للمعركة، سوف يشعر افرادها بالتعب والارهاق كلما تقدمت اكثر في العمق، وسوف يجد المقاتلو ن انفسهم وقد مالوا الى الراحة وعدم المبالاة، لاسيما عندما يقرر قائدهم التعسكر لاغراض الراحة او لأي غرض آخر، لذا فان الامام يشدد على القادة ان يتفقدوا مواقع معسكرهم، وان لايتركوا الفرصة للمقاتلين لاهمال واجباتهم، كي لايباغتهم العدو وهم في حالة من عدم الاستعداد والتهيؤ.

ــ يعرج الامام على واجب قوة المقدمة الرئيسي، بعد ان بين اسلوب تعبئتها وتنقلها، فيأمر قائدي القوة بارسال تقارير يومية - او عند الضرورة - تسمى اليوم «تقارير الاستخبارات» تتضمن معلومات تفصيلية عن العدو والأرض والطقس، وفيما يتعلق بالعدو فانه حالما يحصل التماس بين قوة المقدمة والعدو، فانه يتوجب ارسال تقارير «التماس» الى قائد القسم الأكبر، يتضمن حجم القوة المعادية، ماذا تعمل، واين هي، وما هو رد فعل قوة المقدمة، ازاءها، حيث تكون القوة الرئيسية - القلب او القسم الأكبر - في حالة حركة معقبة قوة المقدمة، وتوضح كراسات كلية الأركان، واجبات قوة المقدمة بصورة مقاربة جدا لما بينه الامام، فتثبّت واجبين اساسيين وهما:

الإخبار عن العدو، ثم الاشتباك به عند الضرورة، اي عندما يتيح العدو نفسه فرصة الانتصار عليه، وهذا مايجب على القائد ان يقرره بوضوح على ضوء مايتيسر لديه من معلومات. ان قوة المقدمة غالبا ماتكون قليلة الحجم، لاطاقة لها على القتال مدة طويلة، او الدخول في معارك حاسمة مع قوات العدو، التي ربما

كانت اكثر منها عدداً، واقوى تسليحا، خاصة اذا كانت قوات العدو التي يلتقي بها، هي القلب او الجزء الأكبر من قواته، وهنا يذكر الامام الحالات والظروف التي ترغم فيها قوة المقدمة على القتال، فيوصي بالتأني في الدخول في معارك مع العدو اولاً، وهذا امر يجب ان تنتبه اليه قوة المقدمة دوماً وتضعه نصب اعينها، فلا تدخل في معركة مع العدو الا بعد ان تجد نفسها قد امتلكت المبادأة في ظروف ملائمة جداً لتحقيق نصر مضمون، كما اوصاها في الحالات الأخرى، بعدم القتال الا أن يبدأ به العدو، او بأمر يصدره هو شخصياً لقائد القوة المكلف بقيادتها، وهي الحالة التي يجد فيها القائد الأعلى ان تدخل قوة المقدمة بقتال مع العدو، يجري تنسيقه مع حركة الجزء الأكبر.

ـ عندما استلم مالك الأشتر قيادة قوة المقدمة من زياد بن النضر، عندما وصلت قوة المقدمة الى صفين واصطدمت مع مقدمة معاوية بقيادة ابي الأعور السلمي، كان الأشتر واعياً لواجبه وللأوامر التي اصدرها له الامام حول اسلوب عمل قوة المقدمة، فعندما اصطدم بقوة ابي الأعور السلمي ودحرها، واضطرها الى التراجع الى الخلف حتى قناصرين. لكنه انسحب الى القسم الأكبر، عندما توجه جيش معاوية كله نحوه، لأنه لم تكن لديه القوة الكافية للوقوف بوجه قوة تزيده تعدادا عشرات المرات، ونورد هنا نص الأمر الذي اصدره الامام الى مالك الأشتر عندما امّره على تلك القوة، تأكيداً لفكرة ان الامام كان يعي تماما مهام قوة المقدمة واسلوب عملها «يامالِ، ان زياداً وشريحاً ارسلا الي يعلماني انهما لقيا ابا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الروم، فنبأني الرسول انه تركهم متواقفين، فالنجاء الى اصحابك النجاء، فاذا اتيتهم فانت عليهم، واياك ان تبدأ القوم بقتال الا أن يبدؤوك، حتى تلقاهم وتسمع منهم، ولا يجرمنك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والاعذار اليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمنتك زياداً، وعلى ميسرتك شريحاً، وقف بين اصحابك وسطا، ولا تدن منهم دنو من يريد ان ينشب الحرب، ولا تتباعد عنهم تباعد من يهاب البأس، حتى اقدم عليك؛ فاني حثيث السير اليك ان شاء الله»[1]، وهكذا، فان قائدي المقدمة زياد بن النضر وشريح بن هانيء، كانا ينفذان وصايا الامام التي اوصاهما بها، فكانا يرسلان المعلومات عن

(١) وقعة صفين، نصر ابن مزاحم، ص ١٥٣ .

جيش الشام في كل مرحلة، تقارير الاستخبارات وتقارير الموقف، وتقارير التماس، في كل مرحلة من مراحل التقدم، وتطورات الموقف، كما ان مالك الأشتر تزود ايضا بوصايا مشابهة للوصايا السابقة فيما يتعلق بعمل قوة المقدمة.

معسكر العراء

ـ في النص السابق يوضح الامام كذلك اسلوب احتلال معسكر في العراء، وهو موضوع عالجته كراسات التعبية في المناطق الجبلية ايضا والذي تعتمده اغلب الجيوش في العالم، فالامام يطلب انشاء هذا المعسكر عندما تحتاج القوة المتقدمة الى الراحة، خاصة في الليل، او عندما تقترب القوة من العدو، او يقترب هو منها، او على وشك حدوث التماس معها، عند الحاجة، ويؤكد ان يقام هذا المعسكر في المناطق المشرفة، الهضاب، او سفوح الجبال، او اثناء الانهار وفي منعطفاتها، كي تؤمّن لهذه المعسكرات ستراً طبيعياً من رصد ونيران العدو - سهامه ورماحه قديماً -، كما يؤمن ذلك حماية لأحد جوانب المعسكر، مما يؤدي الى الاهتمام بمراقبة جهة معينة او اثنتين، والتي يتوقع ان يتقدم منها العدو، والذي تفرضه طبيعة الأرض وتيسر الموانع الطبيعية، خاصة الأنهار، وهذا الأسلوب يجبر العدو على التحرك باتجاه معين، كما يقتضي ان تُخرج القوة التي اتخذت لها معسكراً، قوة من الراصدين او الرقباء، تدفعهم الى المناطق المرتفعة التي تحيط بالمعسكر، تقوم بالرصد واخبار القوة المتعسكرة بأي حركة يقوم بها العدو، قبل ان يقترب من المعسكر، وبذا يمكن حرمانه من مباغتة القوة والهجوم عليها وهي في معسكرها، دون استعداد او انذار مسبق.

ـ ولبقاء القوة متماسكة اهمية كبيرة في تنفيذ الواجبات وصد غارات العدو وافشال كمائنه، فاذا انقسمت القوة الى مجموعات ثانوية صغيرة، تنتقل الواحدة بعيدا عن الأخرى دون تنسيق، فانها ستصبح عرضة للتدمير الواحدة بعد الأخرى، لذا فان الامام ينصح القائدين بان يعسكرا سوية، ويرتحلا سوية، كي لايصبحا هدفاً يسهل اصطياده، في حال تفرق القوة، وتنقّلها بوحدات فرعية نهاراً او ليلاً، ثم يعود الامام الى وصف المعسكر، الذي تتخذه القوة، فيحدد شروطاً هامة فيه، تتعلق ببنائه أولاً، واسلوب العمل بداخله ثانياً، من حيث توزيع

الأسلحة والقوات، وكراسات التعبية في المناطق الجبلية أكدت شروط معينة في بناء المعسكر، وهي بناء جدار حوله من أكياس الرمل والمواد التي تتيسر في المنطقة، ثم توزيع القوات داخله، كما ثبتت الأسلحة على جداره الخارجي، في توزيع متناسق، لأن بعض المعسكرات التي تمكث فيها القوات فترة طويلة، يعمد فيها الى بناء جدار خارجي اضافة الى جدارها الداخلي، لتأمين الحماية للمقاتلين الذي يكلفون بالدفاع عن المعسكر من نيران الهاونات عند سقوط قنابرها داخل المعسكر، وقد كان الاسكندر المقدوني ينشىء جدارين لمعسكره في العراء، كما كان في بعض الأحيان يحفر له خندقاً، وهذا يعطينا لمحة عن تطور «التحصين»، اي مايسمى بعمل الهندسة العسكرية، عبر مراحل وحقب تاريخية تعاقبت الحرب خلالها، كما يقتضي ايضا عدم الخروج ليلاً من المعسكر، اخراج الدوريات والكمائن على الطرق المحتملة لتقرب العدو وتحركه، احتلال القمم المسيطرة على المعسكر لحرمان العدو من استخدامها كقواعد نارية، او مناطق انطلاق للهجوم على المعسكر الذي أُسس على سفوحها او على مقربة منها.

ــ يطلب الامام من قائدي القوة ان ينتبها الى تأمين حماية جيدة لمعسكرهما من رماح المقاتلين وتروسهم، حيث يتم غرزها في الأرض بصورة متلاصقة لتشكيل هذا الجدار، ويقف رماة النبال خلف هذا الجدار على اهبة الاستعداد لتوجيه نيرانهم - سهامهم - نحو العدو، عندما تُرصد حركته من بعيد، ويشبه الامام هذا المعسكر الذي انشيء على هذه الصورة بالقلعة او الحصن، ارتباطا بعمل التحصين، التي تعطي عملياته في المعسكر قوة ومنعة، تمنع العدو من مباغتة القوة وتدميرها. وقد كان الاسكندر المقدوني يستخدم الأشجار في بناء هذا الجدار عنما يؤسس له معسكراً في العراء، حيث يقوم بقطعها فوراً، ثم غرز رؤوسها التي يعمد الى بريها كي تصبح مدببة، يسهل نفاذها في الأرض ودَقّها، ولأن المناطق التي تنقّل فيها الاسكندر كانت مناطق غابات، أو تكثر فيها الأشجار، ولأن اوربا كلها كانت ارضاً مغطاة بالغابات الكثيفة والأشجار - ولا زالت - فانه كان يستفيد منها بصورة آلية، لأنها تساعد على العمل بهذه الشاكلة، وهذا الترتيب يترك التروس والرماح بايدي المقاتلين الذين يحتاجون اليها، عندما ينشب القتال وهم في معسكراتهم، اما المناطق التي عاش فيها

الامام، والمناطق التي تنقّل فيها، فانها لم تكن فيها اشجار يمكن الاستفادة منها لاغراض بناء المعسكرات، لذا فانه اوصى باستخدام رماح وتروس المقاتلين لهذا الغرض، لأن الحماية تأخذ اسبقية فائقة في معسكرات العراء على الأسلحة والدروع، ولو أن الامام واصل تقدمه خلال مناطق مُشجرة او مناطق غابات لأبقى رماح وتروس مقاتليه بايديهم لحاجتهم لها، عند نشوب قتال خلال مهاجمة العدو للمعسكرات التي تنشأ في العراء، وتعمل الوحدات المدرعة في الحروب الحديثة على نفس الفكرة، فعندما تدخل مأوى نهاراً او ليلاً، فانه يتم صف الدبابات في مربع او مستطيل مفتوح من احد الجوانب او من الخلف، والمدافع الى الخارج، ينام الجنود في مناطق قريبة داخل المأوى، مع توزيع الحراس على الدبابات الذين يقومون بانذار زملائهم عند حدوث هجوم مباغت او غارة معادية، وتظل فكرة بناء معسكر العراء واحدة على مرّ الأزمان، الغاية منها تأمين الحماية للمقاتلين الذين يحلون فيها من نيران العدو المباشرة والغير المباشرة، السهام والنبال والرماح التي ترمى عن بعد، نيران البنادق والهاونات.

تعبئة الغارات

ـ في ربيع الآخر سنة تسع للهجرة، قاد الامام علي سرية وجهها النبي الكريم الى مضارب طيء، وكان واجبها تهديم الصنم المسمى «الفلس»، والذي تعبده قبيلة طيء، كانت القوة تتألف من خمسين فرساً ومائة بعير، سارت القوة التي تتألف كلها من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج وعددهم مائة وخمسون مقاتلاً، من المدينة سالكة طريق فيد[1]، التي تؤدي الى مضارب قبيلة طيء، وكان الامام قد أخرج معه دليلاً يقوده الى المنطقة، وعندما وصلت قوة الاغارة على بعد مسافة مسيرة يوم تام، تقرر أن تعسكر القوة في مكانها، بعد ان تم دراسة الموقف، والذي تم على ضوئة وضع الخطة، فقد تقرر ان يتم قضاء النهار في المعسكر، ثم يجري التوجه الى الحي ليلاً، لأن خروجهم في النهار، سوف يكشف حركة القوة أمام طيء، وربما امكنهم الهرب مع الليل القادم الذي يمكن ان يقدم لهم ستراً جيداً للتفرق والهرب، كما ان الغارة يجب ان تتم بسرعة، دون ان يعطى العدو

(١) فيد: بليدة في منتصف طريق مكة الى الكوفة، [معجم البلدان، ياقوت، ج٤، ص ٢٨٢ .

فرصة لمعالجة الموقف، لذا تقرر ان تتم الغارة بخمسين مقاتلاً من الفرسان.

ـ لم يهمل الامام المعسكر دون حماية، فقد سيّر الدوريات حوله تكشف مايحيط به، وتؤمّن للمعسكر حرمان العدو من المباغتة، فكان أن سُيّرت ثلاث دوريات راكبة (سيارة)، في اماكن متفرقة «يطوفون حول المعسكر»[1]، يتقصون ماحولهم، لعل المشركين ارسلوا احداً منهم يتقصى اخبار المسلمين ويجمع المعلومات عنهم، فما كان منهم الا أن عثروا على غلام أسود ارسلته قبيلة طيء الى ذلك المكان، مكلفاً بمعرفة أخبار جيش النبي، قائلين له: ان رأيت خيل محمد فطر الينا فاخبرنا. ان القوات مهما يكن حجمها، يجب ان تعتمد مبدأ الأمن، الذي يعني حرمان العدو من مفاجأة القوة، وأخذها على حين غرة، دون أن تتهيأ بما فيه الكفاية لرده وافشال تحركه، وهذا مافعله الامام عن فهم وبصيرة، وبعد ان تم التحقيق مع الأسير، اعترف بان حي قبيلة طيء يبعد عن مكان المعسكر مسير ليلة، فشاور الامام علي اصحابه، واتخذ قراراً بان تنطلق قوة الخيالة ليلاً حتى *تصل الى المشركين مع الضياء الأول لليوم التالي، فتهاجم الحي وأهله نائمون،* دون ان يمنحهم الفرصة للفرار، وصلت قوة الخيالة بقيادته الى مشارف الحي قبل الضياء الأول، فانتظرت حتى بزوغ الشمس، فشُنّت الغارة بعزم وقوة أذهلت المشركين، وسلبت منهم القدرة على اتخاذ اي عمل مقابل، فقتل من قتل منهم وأسر الباقي، وغنم المسلمون غنائم كبيرة، وكان من بين الاسلاب، اخت عدي بن حاتم الطائي، الذي كان قد فرّ الى الشام بعد ان علم ان قوة الامام علي تتهيأ للخروج من المدينة، اعلمه رجل من اصحابه كان في المدينة.

ـ لقد برز في تلك الغارة الناجحة عدة دروس مهمّة وهي:

١ - التخطيط الجيد، حساب الوقت والمسافة من المعسكر الى حي قبيلة طيء.

٢ - اعتماد مبدأ الأمن. حماية المعسكر باخراج دوريات سيارة (خيالة).

٣ - طلب المشورة. استشار الامام القادة الذين كانوا معه، وبعد ان استعرض ارائهم، وضع الخطة، ونفّذ العملية بكل جرأة واقصى سرعة.

٥ - التحقيق مع الأسرى وجمع المعلومات. لقد حقق الامام علي بنفسه مع الغلام الأسود الذي اراد ان ينكر اول الأمر، وعندما تقرر ان يرافق القوة الى

---

(١) المغازي، الواقدي، ج٢، ص ٩٨٥ .

مضارب قبيلة طيء، حاول ان يبعدها عن مضارب القبيلة، فهدده الامام بقطع راسه اذا واصل الخديعة، مما ادى الى ان يكف عن خداعه ويرشد القوة نحو مضارب القبيلة، بعد ان كان كلما تقدم مسافة يدعي بانه قد ظل الطريق.

٦ - استخدام الخيالة وترك الجمال في معسكر خلفي مع الأحمال الزائدة، لأن تنقل الجمال سوية مع الخيول سوف يحتاج الى وقت طويل للتنقل من أجل قطع الطريق الى حي طيء، مما سيؤدي الى كشف الحركة وفرار المشركين، وقد فضل الامام علي الهجوم بخمسين فارساً على استخدام القوة كلها، متحملاً المخاطرة، من أجل تحقيق المباغتة وسرعة الضربة وشدتها، وهذا ماامكن ان يؤمّنه بسهولة.

ـ لقد قاد الامام علي مايقل عن ثلاث سرايا، واحدة على فدك، سنة ست للهجرة، حيث حي بني سعد، والثانية على «الفلس» حيث بنو طيء سنة تسع للهجرة، والثالثة توجهت لأول مرة نحو اليمن سنة ١٠ هـ ويقال بانه توجه الى اليمن مرتين، كسب منها الامام خبرة وتجربة في القيادة وممارسة الحرب وفنونها، كما شارك النبي الكريم في غزواته كلها[١]، حيث تعلم منه وتدرّب على يديه فاعزه بحمل رايته حيناً وقيادة جزء من قواته في احيان اخرى.

٩ - صفات القائد عند الامام علي(ع)

ـ مما لاشك فيه بان اختيار القادة في الجيوش الحديثة، يعتبر من أكثر المهمات تعقيداً، وتضع القيادات العليا شروطاً ومواصفات عند اختيار اي قائد، يرشح لأن يقود قطعة عسكرية وكلما كان مستوى القطعة كبيرا، كلما كانت عملية الاختيار معقدة اكثر، والشيء الملفت للانتباه حقا، هو أن الجيوش الشعبية، اصبحت لاتُعير تلك العملية اهتماما كبيراً، فعندما اصبحت الجيوش على النحو الذي نشاهده الآن، اي ان القادة اصبحوا هم ايضا يُختارون من بين الطبقات الشعبية، أصبح عطاء وانجاز تلك الجيوش محدوداً، وبالطبع فان هناك آراء أخرى تدعو الى ان تصبح القيادات من هذا الطراز دون أن تضع حدود معينة، وفي هذا المجال - وفي الواقع - لايمكن التفريق بسهولة ين جيوش الدول المتقدمة، او جيوش الدول الأخرى، ففي اوربا القرون الوسطى، كان الضباط يُختارون من

(١) المغازي، الواقدي، ج١، ص ٨ [لم يذكر الواقدي بان الامام علي قد تخلف عن اي غزوة].

بين طبقة النبلاء، الذين وضعوا أسس العسكرية في بلدانهم، ولقد انطبق ذلك، بكل وضوح، على الجيش البروسي، منذ تأسيسه وحتى انهيار الامبراطورية الألمانية عقب الحرب العالمية الأولى، ومن ثم سيطرة هتلر على مقاليد الجيش الألماني، وتحوله من جيش ارستقراطي، الى جيش شعبي، الا أن الجيش الألماني، لم يفقد كلية قادته الذين خرجوا من رحم طبقة النبلاء، والذين لم يكن الجيش الألماني ليقدر ان يتخلى عنهم، بل ان القادة المرموقين والذين برزوا فيه خلال الحرب العالمية الثانية، كانوا من بين هذه الطبقة بالذات، الا أن الجيوش الحديثة تبذل اليوم جهوداً كبيرة من أجل سد هذا النقص، وذلك بوضع برامج خاصة، متطورة لتدريب القادة واختيارهم، منها اشراكهم في دورات متتالية لاكتساب الخبرة، ثم اجراء دراسات اختبارية مستمرة للوصول الى تعيين ملامح القادة الذين يصلحون لاستلام المناصب القيادية المختلفة، وربما كانت جوانب من تلك الاهتمامات والفعاليات قادرة على تزويد الأفراد بما هو مرغوب من خبرات، لكن للصفات الاساسية التي يمتلكها الافراد انفسهم أهمية قصوى، فلازال الجيش الأمريكي مثلا، متردداً عن قبول الشاذين جنسياً كمقاتلين فيه، وتلك عينة واحدة فقط، تلاحظها الجيوش الحديثة، فللتربية التي يتلقاها الفرد في محيط اسرته اثر كبير على نمو شخصية الفرد واتزانه، فالفرد الذي يعيش في بيئة تمنحه خصائص طيبة، كاتزان التفكير، الشجاعة، الكرم، الاخلاص، والابتعاد عن اتيان امور مشينة، هذا الفرد لايشبه ذلك الفرد الذي يعيش في بيئة لايتعلم منها غير الغدر، الأنانية، الحقد، الشعور بالغبن، فالأول اصلح بالتأكيد من الثاني لتولي امور قيادية، وهو قادر على أن يلبي حاجات من يقودهم، كما يمكن الوثوق باخلاصه.

ــ والامام علي يحدد مواصفات القادة الذين يجب اختيارهم على رأس قواته، ومما يؤسف له ان جيوشاً كثيرة لم تعد تهتم بالمواصفات الواجب توفرها في القادة الذي يتبوأون مناصب قيادية عليا، فنجد الكثير من القادة فيها ممن لايصلحون على الاطلاق ان يستلموا تلك المسؤوليات الجسيمة، وكان من نتائجها، ان أغلب المعارك التي قادوها لم تنته الا الى الفشل، ذلك الفشل الذي كلف ثمناً باهضاً، ليس أقله ارتهان أوطان بكاملها لارادة الآخرين ورغباتهم. لنستعرض فيما يلي مواصفات القادة لدى الامام علي كما وردت في عهده لمالك

الأشتر عندما ولاه مصر[1]:

١ - انصحهم لله في ظنه، أي اكثرهم ايماناً بالله، وهو شرط اساسي يجب توفره لدى الفرد، كي يمكن ان يتجنب اقتراف المظالم، والابتعاد عن ارتكاب المعاصي، التي يمكن ان تجرّ الى مخالفات جماعية في التشكيل العسكري، كما ان الايمان يعطي دافعاً قوياً في بناء الشخصية، وتزويدها باسباب ثبات الروح المعنوية، واكتسابها لاحترام الآخرين.

٢ - اطهرهم جيباً، اي عفيفاً، وطهارة الجيب هنا كناية عن كونه لايستحوذ على اموال لاتخصه، أو الاتيان باعمال أخرى مشينة كانتهاك الأعراض وممارسة المنكرات، وتتعرض النفس البشرية للاغراء في موقف من المواقف، وغالبا ماكانت الغنائم مثلا تتعرض الى السرقة، او التصرف غير المشروع، وتعاني الجيوش الحديثة من هذه الآفة القاتلة، فقد شهدت احدى الحروب الحديثة المعروفة، عمليات سلب ونهب منظّم قام بها القادة أولاً، ثم تبعهم جنودهم ومرؤوسيهم، بحيث اصبح الجيش الغازي مضرباً للمثل في البربرية، والانفلات، مما تركه في آخر المطاف محطماً، يشعر في قرارة نفسه بفداحة الاثم الذي ارتكبه، مترقباً انتقاماً من خصمه، يتناسب مع حجم الأضرار التي سببها له، ويعتبر انتشار الرشوة داخل المؤسسة العسكرية من أهم مظاهر تفككها وانحلالها، فعندما يتجرأ القائد - في أي مستوى - على سلب الجنود حقوقهم، فانه يُظهر دلالة على عدم الاهتمام بمصيرهم، مما يحطم الثقة المتبادلة بينه وبينهم، وبالتالي فانه سيؤدي الى تحطيم المؤسسة نفسها، التي لن تستطيع الصمود امام الاختبارات الصعبة التي تنتظرها .

٣ - ممن يبطيء على الغضب، ويستريح الى العذر، اي ممن لايكون سريع الغضب، مما يفقده اتزان حكمه وشخصيته، ويخرجه عن طوره امام جنوده ومرؤوسيه، ويستريح الى العذر، اي يقبل العذر المعقول ويستريح اليه ويسكن عنده.

٤ - شَفوق على جنوده من الضعفاء، يرفق بهم ويرحمهم، يتعامل مع جنوده كما يتعامل الأب مع ابنائه، مما سيجعلهم بالتالي على استعداد للتضحية في اي

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، المجلد ٤، ص ١٢٨ .

وقت يطلبه منهم، لما يمتلكه في نفوسهم من تقدير واجلال، ان حب الجنود لقائدهم لايعوضه شيء على الاطلاق، لذا فان القائد الذي يريد ان يدخل حرباً، او معركة، عليه ان يتأكد بأن جنوده يحبونه، على ان ذلك الهدف يجب ان لايكون على حساب العناصر الأخرى المطلوبة، الضبط، وحسن الخلق... الخ.

٥ - ينبو عن الأقوياء، اي انه لايجانب الأقويا، يمنعهم عن اقتراف المظالم والتعدي على رفاقهم الآخرين، او التجاوز على اموال الناس ومصالحهم.

٦ - من ذوي الحسب والنسب، وهؤلاء من حَسُن خلقهم وأمن اليهم، فهم ان لم يتكرموا فانهم سوف يمنعون انفسهم عن التعدي والظلم، وقد أمر الامام ان يُكرَم ذوي الأحساب والبيوتات، ويجعل المعوّل عليهم، وقد دأب جهده ان يلتزم هذا الأمر، فقد كان من قادته، مالك الأشتر النخعي، وعدي بن حاتم الطائي، والأشعث الكندي، وعمر بن الحمق الخزاعي، وحجر بن عدي الكندي، وغيرهم من ذوي الحسب والنسب، وهذا لايعني بالطبع ان لايبدي اهتماماً بالآخرين من ذوي الماضي الجهادي والأخلاص لله من ذوي الهمة والشجاعة والاقدام، فقد أمّر عمار بن ياسر قائداً على خيالته في معركة الجمل، وكذلك فعل في معركة صفين، الا ان القاعدة العامة لديه، الاعتماد على ذوي الحسب والنسب من اعيان العرب واشرافهم، ومع ذلك فان الامام اشترط على اولئك ان يكونوا من الصالحين، واهل السابقة الحسنة، المعروفين بحسن السيرة والشجاعة.

٧ - الشجاعة. وبها يُحاز النصر، فانه عند الشدائد تمتحن القلوب الصلدة، التي لاتهاب الموت، وشجاعة القائد تؤثر تأثيراً مباشراً على كل المقاتلين الذين يقودهم، فان كان شجاعاً مقداماً، فان جنوده لن يترددوا عن اقتحام غمار الموت والقتال، اما اذا ظهر العجز والخوف عليه، فان ذلك سينعكس مباشرة على كل المقاتلة معه، وسوف يؤدي حتماً الى الانهيار الكامل، والجنود ينظرون الى قائدهم دوماً، فعند ظهور اية بادرة تردد او تذمّر، فانهم سوف يتصرفون بطريقة تظهر عدم رضاهم عن قائدهم.

٨ - الكرم. صفة من أكبر صفات النبل، وهي تجمع كل الصفات الحميدة الأخرى، فالكرم يعني في آخر المطاف، استعداد الكريم للعطاء في كل شيء، والتضحية بالنفس هي اعلى درجات الكرم واسماها.

٩ - ذكياً. لايكتفي برأي واحد عن العدو، بل يتبع آثاره واخباره، مستقصياً يبحث اشد البحث مستنتجاً مقارناً، سريع البديهة، حازم الرأي، لاينخدع بسهولة.

١٠ - لايهتم بالاطراء والمديح. ان من أكبر الآفات التي تصيب القادة قبولهم الاطراء والمديح، لانه يدفع القائد دوماً الى الاعتقاد بانه على صواب، مما سيدفعه الى الركون الى خططه وترتيباته التي اتخذها مطمئناً، وربما حاول العدو ان يمدح خصمه ويُطريه، قاصداً من وراء ذلك تضليله والايقاع به وايهامه، خاصة اولئك الذين يُظهرون استعداداً لقبول المديح والتأثر به، ولقد هزم الكثير من القادة نتيجة لمدحهم والاطراء عليهم، فقد يقال بان القائد الفلاني قائد بارع، لايجاريه احد من خصومه، وان لديه جيشاً لايمكن قهره، بينما الحقيقة هي خلاف ذلك، مما ينجم عنه بالتالي وقوع ذلك القائد في شباك عدوه الذي يعرف عنه كل دقيقة وخافية.

١١ - أكثر مراجعة على العدو. اي اكثرهم تحمساً لمقاتلة العدو، والحاق الهزيمة به، ولا يقبل بالاعذار التي يسمعها، شديداً عليه في يده ولسانه.

١٢ - يتراجع عندما يشعر بالخطأ. وهي من أعظم الصفات النبيلة، فالقائد العسكري يتعامل مع ارواح مقاتليه، وهم رهينة بين يديه وأمانة، فاذا شعر بانه لم يكن مصيباً في ماخطط له لمعركته المقبلة، فانه من الفضيلة ان يتراجع، ولا يركب رأسه مصراً على الخطأ، لأن ذلك يعني خسارته للحرب اولاً، ثم هلاك جنوده ومن معه ثانيا، وضياع ملكه ودولته فيما لو كان قائداً عاماً، وفي الحروب الحديثة، حدث أن اصر بعض القادة على التمسك بمواقفهم، معتبرين التراجع عن الخطأ مساً بسمعتهم، واهانة شخصية توجه اليهم، كما حدث لهتلر في الحرب العالمية الثانية في حصاره لمدينة ستالينغراد، وكما حدث لصدام حسين عند حصاره لمدينة عبادان في الحرب العراقية الايرانية.

١٣ - عادلاً. في توزيع المهمات والواجبات على جنوده، وعادلاً في توزيع الحقوق والأموال. وكان الامام علي عادلاً الى حد الشعرة، فعندما انتصر في معركة الجمل ودخل البصرة، وزع الأموال التي وجدها في بيت المال فيها على المقاتلين بالتساوي، خمسمائة درهم لكل منهم، وكانت حصته هو ايضا المقدار

نفسه، وعندما جاء احد الناس ممن تخلف عن القتال معه،طالباً منه أن يعطيه سهماً من المال، لأن قلبه كان معه في القتال، وان تخلفه كان اضطراراً، اعطاه حصته كلها، يجب ان يكون القائد عادلاً في الحقوق والواجبات، اذا اراد ان يكسب قلوب الذي يقاتلون معه.

١٤ - لايغضب لأنه قوي وعنيف. على القائد أن لايظهر الغضب بسبب شعوره بالقوة لأن ذلك سوف يجعله صغيراً في نظر جنوده ومرؤوسيه.

١٥ - لايتردد بسبب الضعف. ان التردد آفة من الآفات التي تحطم القيادة، فالقرار السريع حتى لو كان خطأ في بعض الأحيان، هو خير من التردد واظهار الحيرة والجمود.



الفصل الخامس

حروب الامام علي(ع)

١ - نظرة في الحرب وتطورها.
٢ - حرب الجمل.
٣ - حرب صفين.
٤ - حرب النهروان.

نظرة في الحرب وتطورها

ـ ان فكرة الحرب، وتوجهاتها، ثابتة الأسس، عبر التاريخ كله، وهي تستند دوماً الى العلاقة «بين اسلحة الصدمة والمقذوفات»[1]، وكل التطورات التي حدثت أساساً، كانت تتجه الى تغيير او تطوير العلاقة بينهما باستمرار، استناداً الى تلك الفكرة نفسها، والمقذوفات هي تلك الأسلحة التي ترمى من بعيد، والتي تمثل السهام والنبال، والرماح، وما ترميه المنجنيقات نظامها قديما، والهاونات والمدفعية والصواريخ والطائرات المختلفة الأنواع، نظامها الحديث، وقد تطور حديثها من قديمها، حتى وصل الى ماوصل اليه الآن، وما سيصل اليه في المستقبل والتي تهدف اساساً الى إحداث خسائر بالخصم والتأثير على معنوياته قبل الالتحمام به، اما قوة الصدمة، فهي الأثر الذي تحدثه الاسلحة التي يحملها المقاتل معه حتى يشتبك مع عدوه في آخر خطوة يخطوها نحوه، وكان السيف والرمح القصير وبقية الأسلحة الأخرى المعروفة سلاح صدمة في الحروب القديمة، والبندقية والقاذفة الخفيفة المقاومة للدبابات والأسلحة الشخصية الأخرى، سلاحها الحديث، وكان هذا التطور يحدث بصورة متدرجة، بحيث أن الحربة مثلاً، ظلت تعلق على البندقية في الحروب الحديثة، كما كانت تستعمل قديماً، كما كانت ايضاً تستعمل وهي محمولة على شكل سيف قصير في يد المقاتل قديماً - المقاتل الروماني كان يستخدم سيفاً قصيراً - وفكرة الحرب يمكن توضيحها ببساطة، في قتال التلاميذ، الذين يشكلون في مدارسهم او في احيائهم مجموعاتهم الخاصة بهم، والتي تشتبك مع مجموعات اخرى مشابهة لها، في المدرسة او الحي الذي يعيشون فيه او الاحياء المجاورة، يبدأ التلاميذ اولاً بالتراشق، بالحجارة او الحصى الصغير، واحياناً الكبير، او بكُرات الثلج، حسب نوع وشدة العداوة بين تلك المجموعات، او بأي شيء آخر يصلح للرمي، وعندما يكون القتال حقيقياً بينهما، والطرفان متكافئين تماماً، يتوقف بعضهم عن قذف الأشياء، بينما يحاولون التقرب من بعض، ليشتبكوا بالعصي والقبضات، وربما الأقدام، وعندما يغلب احد الطرفين، وتتراجع مجموعة منهما قليلاً الى الخلف،

---

(١) الاسلحة والتكتيكات، ونترنغام وبلاشفورد، ص ٣٤ .

كي تصبح بينهما فسحة ملائمة، يبدأ التقاذف والرمي بالحجارة وغيرها مرة أخرى، «وقد تستمر المطاردة والقضاء على المقاومة»[1] عن طريق الاعمال الصدامية، اما الاعمال الوقائية، فيظل القتال فيها معتمداً على المقذوفات بالدرجة الأولى، الا أن حرب المقذوفات وحدها، لن تؤدي الى الحسم، بل يقتضي توجيه القتال من مواقع قريبة، مرة أخرى، بين التلاميذ الصغار، وعلى هذه الشاكلة كانت تجري بين الجنود، للوصول الى الحسم، ولم تكن المقذوفات قادرة على ذلك، السهام، المنجنيقات وغيرها، وكما هي الحالة في الوقت الحاضر، اذ لاتستطيع الطائرات والصواريخ والمدفعية، ان تكسب المعركة لوحدها مطلقاً، فبدون تقدم المشاة والدبابات للاشتباك عن قرب مع الخصم، وازاحته او تدميره، فان النصر لن يُكسب ابداً، ولم يجر تعديل سياقات الانفتاح للمعركة، أو استبدالها، باستخدام سلاح واحد، كالقوة الجوية، التي ينادي انصارها، بانها قادرة وحدها على كسب المعركة.

ــ تظل القدرة على الحركة، القوة الضاربة، وتأمين الحماية هي مفاتيح النصر، وحتى لو عملت عناصر اخرى، كالمفاجأة، او الحشد في الزمان والمكان الحاسمين، او المناورة الذكية، على كسب النصر، فان هذه تظل ناشئة اساساً وبشكل مباشر، عن التفوق في القابلية على الحركة، القوة الضاربة، والوقاية المؤمَّنة، اي تظل كل الأمور والعناصر الأخرى التي تساعد على الحصول على النصر، ناجمة اساساً من توفر مفاتيح النصر الأساسية الثلاثة التي ذكرناها.

ــ «الا ان الغالب هو ان هذه الميزات كانت دائماً متداخلة في جيوش حديثة، تمكنت من تغيير اساليب القتال المألوفة، وهذا يجعل من الصعب فصل ماضي الحرب بعضه عن البعض الآخر»[2]. وهذا يعني أن بامكاننا ان ندرس تاريخ الحرب بسهولة، لو أن كل هذه المميزات الثلاثة، قد تطور وحده عبر مرحلة تاريخية معينة، لانها ببساطة كانت متداخلة، عبر مراحل تاريخ التطور الحربي كله، ولو كانت هذه العناصر قد تطورت كلاً على حدة، لامكننا تحليل الصراع المسلح على ضوء ذلك التطور الحاصل في تلك الميزة عينها، وعلى سبيل المثال،

---

(١) الأسلحة والتكتيكات، ونترنغهام وبلاشفور، ص ٣٤ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧ .

لو أن القدرة على الحركة كانت قد تطورت وحدها، او انها الشيء المهم الوحيد، لاستطعنا بكل بساطة، ان نحلل الحرب على ضوء تطور سرعة حركة القوات في كل مرحلة من التاريخ، ولكان لدينا في البدء، حرب المشاة، ثقيل او خفيف، ثم حرب فروسية، ثم حرب سكك حديدية، ثم حرب معدات تسير بالوقود، النفط، اي حرب عجلات وناقلات جنود ودبابات وطائرات... الخ. وكذلك الأمر بالنسبة للميزات الأخرى، القوة الضاربة، تأمين الحماية.

ـ بدأ القتال، في المفهوم الحربي، عندما أخذت الجيوش صفتها، بشكل بسيط، وكانت المعركة النموذجية، تبدأ بأن يأخذ المقاتلون أنساقاً غير مستوية، يواجه بعضها البعض الآخر، ثم يتقدم من أحد الجيشين مقاتل شجاع، يهز رمحه او سيفه، ثم يرتجز شعراً - كما في النماذج العربية - او يتكلم بعبارات فيها تحدٍ لخصومه، فتأخذ العزة والعصبية مقاتل من جيش الخصم، فيخرج له ملبياً نداءه للبراز، فيقتل احدهما الآخر، وقد تتكرر تلك الصورة لعدة مرات، وعندما يشعر احد الجيشين بانه قد اصيب بهزيمة معنوية، فانه يندفع الى الحرب هائجاً، فيصبح القتال شاملاً، ويتصاعد حتى يصل الذروة، الى ان تتمكن اسلحة الصدمة من إحداث تأثير على صفوف العدو، اما باختراقها وبعثرتها، او بانسحاب الخصم، ان تمكن من ذلك، وتكون اسلحة المقذوفات قد سبقت هذا العمل، واحدثت هي الأخرى اثرها المتوقع.

ـ ويمكن ملاحظة ان طرق قتال الشعوب وتسليحها لجيوشها، وتأمين الدروع لحمايتها، له علاقة وثيقة بطريقة عيشها، حياتها الاقتصادية، مواردها، فالعربي الذي كان يعيش في الصحراء، لايستطيع ان يحمل دروعاً كبيرة يحملها معه على جسده، او ترس كبير يحمي جبهته كلها من سلاح خصمه، نعم كانت لديه منها، لكنها ليست بالثقل الذي لدى الجيوش الأخرى التي كانت على تخوم ارضه، الجزيرة العربية، لكنه استعمل سيفاً خفيفاً بتاراً، مصنوعاً من اجود انواع الحديد، يستعمله بكل دقة وخفة، وترساً ذا سعة ملائمة، بل انه كان يستعمل جحفة صغيرة يصد بها ضربة السيف، كما ارتدى دروعاً، متذكراً دوماً بان حصانه او فرسه الرشيقان، لايتحملان اثقالاً كبيرة، كما كان يفعل المقاتل من جيش الروم او جيش فارس، فالأوربي الذي وصل الى فلسطين مثلاً، كان مثقلاً

بالحديد، مقلَّداً سيفاً كبيراً وثقيلاً، ربما استخدمه في القتال مرة واحدة فقط ضد خصمه، وبكل مايملك من قوة، مدرعاً بدروع سميكة تغطي يديه وقدميه ايضا، حتى حصانه كان قد غطي قسم من اعضائه فيها، يحمل كل هذه الأثقال حصاناً حجمه يصل الى ضعف حجم الحصان العربي الا انه كان محروماً من المناورة، بل ان الفارس منهم كان لايستطيع ان يلتفت الى الخلف الا بصعوبة شديدة، ولا يستطيع ان يزوغ عن ضربة خصمه بسهولة معتمداً على درعه في تأمين الوقاية له، واذا سقط على الأرض فانه يجهد ايما اجهاد ليستقيم على قدميه، بينما المقاتل العربي والمسلم، كان رشيقاً بسيفه، وتدريعه الضروري، وحصانه الرشيق القادر على الاستدارة والمناورة بسهولة نحو اليمين واليسار، مما يترك له فرصة كبيرة لتفادي الضربة الأولى لخصم مثقل بكل هذا الحديد، وقد ثبت ذلك بصورة واضحة، خلال الحروب الأولى مع الروم، ثم خلال الحروب الصليبية، لاحقاً، لقد ظلت اهمية الدروع واسلحة الصدمة والمبالغة فيها، عائقاً في بعض الأحيان لقوة مثقلة بالحديد عن الصمود امام قوة خفيفة ذات تدريع ملائم، فالمبالغة في ثقل الاسلحة والدروع يمنع المناورة على مستوى الفرد، او مجموعة المقاتلين، فلقد كان المقاتلون الاغريق ومن بعدهم الرومان يضطرون الى ان يرافقهم خدمهم، خاصة القادة منهم، كي يساعدوهم على حمل دروعهم وقسم من أسلحتهم لثقلها، وكان الفارس منهم يشعر بصعوبة عندما يمتطي صهوة حصانه، خاصة المقاتلين منهم في القرون الوسطى، الذين شاركوا في غزو فلسطين.

ــ كانت ميزة الجيش الاسلامي، خفة الحركة، وسرعة قطع المسافات، مما كان يؤمّن له المباغتة، ويُوقع عدوه في حيرة وارتباك، فلم يستخدم العرب العربات، كما كانت تستخدم لدى الفرس والرومان، ولم يستخدموا الفيلة او حيوانات اخرى، كسلاح من اسلحة الصدمة، وذلك لادخال الرعب في قلوب الأعداء واخافة خيولهم، ولم يستخدموا الدروع بكثرة، خاصة في الجاهلية، ربما بسبب ارتفاع اثمانها، وهذا مايفسر لنا حرص المقاتلين على الحصول على اسلاب القتلى، خاصة دروعهم وسلاحهم، وعندما كانوا يستخدمونها فانها لم تكن ثقيلة او تُزيَّن كما كان الاغريق والرومان يفعلون ذلك، وقد يقوم الفارس منهم

بتزيين بيضة الرأس، بريشة كبيرة، وغالباً ما يستخدم ريش النعام لهذا الغرض، كما كان يفعل الحمزة عم الرسول، الا ان الاغريق كانوا يزينون خوذهم ذات الحجم والثقل الكبيرين بريش «مأخوذة من عرف حصان، او مصنوعة من مادة قاسية، تجعل العسكري يبدو فارع الطول مخيفاً»[1]، وكان لثقل وكبر حجم خوذته ذلك تأثير متعب عليه وعلى دابته التي تتحمل كل دروعه الأخرى، التي صنعت بنفس الطريقة.

ــ اما بعد ظهور الاسلام واتساع رقعته، وزيادة حجم الجيوش المقاتلة، فان المسلمين اهتموا بالدروع الخاصة بهم، وزادوا من كمياتها واعدادها. كي يمكنها ان تقدم جيشاً لديه تدريعاً يستطيع ان يوازي جيوش خصومهم الفرس والروم، او دونه بقليل، وباعداد من المقاتلين المدرعين القادرين على تأمين الحماية لانفسهم من مقذوفات خصومهم، قبل ان تنشب المعركة، لقد اصبح المقاتل المسلم مدرّعاً بشكل ملائم ليواجه جيوشاً أكثر منه تدريعاً، كما اصبح اغلب القادة من المسلمين وعدد من المقاتلين يستصحبون معهم خدمهم ومواليهم، كي يساعدوهم على حمل تلك الدروع، والمساعدة في ارتدائها، الا ان اعدادا كبيرة منهم ظلت بدون درع، لعدم تيسر مايكفي منها لجميع المقاتلة، وكان الدرع العربي يتألف من قطعتين أمامية وخلفية، «ثم دعا بدرعه فلبسه حتى اذا وقع من بطنه فأمر ابنه محمد يجزمهما بعمامته»[2]، ويجزمهما تشير الى ان الدرع كان يتألف من قطعتين، يتم تثبيتهما بالشد، ووجد الامام، بعد انتصاره في حرب الجمل في مسالح البصرة، أسلحة كثيرة ودروع عليها نقش السلطان، اي انها عائدة، للدولة، فامر الامام بالابقاء عليها، وعدم المساس بها، لاستخدامها في تسليح جيشه، وهذا يدل على اهتمام الدولة بامور التسليح وحفظه في حواضر الامصار الاسلامية.

ــ وللمعنويات اثرها الكبير في الحرب، فالجنود الاغريق كانت معنوياتهم مبنية على حريتهم النسبية التي كان يتيحها لهم نظامهم السائد في وطنهم، والفرس خسروا معاركهم في آخر المطاف، بسبب انعدام الحرية لدى المقاتل

(١) الاسلحة والتكتيكات، وترنغهام وبلاشفورد، ص ٤٧ .
(٢) الجمل، الشيخ المفيد، ص ١٩١ .

عندهم، بسبب الظلم والحكم الجائر تحت سلطة آخر الأكاسرة الدين حكموا، أما المسلمون العرب، فكانت حريتهم قد امّنتها لهم طبيعة الحياة عندهم، ونمط العيش الذي كانوا يعيشونه، سعة الصحراء وامتدادها، والتجول فيها، نظام القبيلة المبني على التكافل، ومن ثم الايمان الذي حققته الدعوة الاسلامية في نفوسهم، والتي قهروا فيها الموت والصعاب، وكان للشجاعة في الحروب القديمة، بالنسبة لكل المقاتين، اثرها الواضح على سير الحرب، فالجبان لابد ان يُعرف، بعكس الحروب الحديثة، التي تهيء الوسائل الفنية فيها لجعل الجبان من المقاتلين قادراً على قتل اشجع الشجعان، قبل ان يصل اليه بمسافة بعيدة، الا أن للشجاعة حيز حتى في الحروب الحديثة، فالعمليات الخاصة، مثلاً، تحتاج الى شجعان ايضا، والشجاعة تظل من أبرز صفات القائد قديماً وحديثاً.

ـ لم يعرف العرب في الجاهلية اساليب الحرب التي كانت معروفة لدى جيوش الامبراطوريات الحاكمة على تخوم الجزيرة العربية، في العراق والشام، وربما عرفوها لكنهم لم يستخدموها، بل كانت حربهم، قتال كـرّ وفـرّ - كما ذكرنا - يخلو من المناورة، ربما لأن حروبهم كانت محدودة لقلة اعداد جيوشهم في ذلك الحين، ومع ذلك فانهم كانوا قد حققوا انتصارات على الروم والفرس، الذين يملكون جيوشاً كبيرة وأساليب قتال لم يكن العرب يُتقنونها، كما حدث في معركة ذي قار، بينهم وبين الفرس، قبل الاسلام، حيث انتصر العرب لأول مرة، في حرب خارجية لهم، الا انهم طوروا اساليب قتالهم حالما بدأت الدعوة الاسلامية بشن حروبها الدفاعية، وعندما انتقلت الجيوش المسلمة الى مرحلة الهجوم، خارج الجزيرة العربية، بدأت اساليبهم بالتطور اكثر فاكثر، وأخذت تنحو منحى استراتيجياً ذا تخطيط دقيق، حتى وصلت ذروتها، عندما اجتاحت جيوشهم العراق والشام، حيث وجه الخليفة ابو بكر اربعة جيوش الى الشام، اجتازت الجزيرة العربية متجهة اليها وهي:

١ - جيش عمر بن العاص، ويسير الى فلسطين.

٢ - جيش يزيد بن ابي سفيان، ووجهته الشام.

٣ - جيش شرحبيل بن حسنه: ويسير الى الشام خلف يزيد.

٤ - ابو عبيدة بن الجراح: ويتولى القيادة العامة، ويتجه الى حمص في اثر

شرحبيل[1].

ـ الا أن العرب كانوا يعرفون قبل الاسلام التقسيمات العسكرية والكتائب والوحدات، كما انهم كانوا يسمون الجيش «خميساً»[2]، وربما اتبعوا هذا التقسيم خلال تقدمهم من منطقة الى اخرى خلال معاركهم الكبرى في الجاهلية، وكانت التقسيمات العسكرية لديهم هي:

الرهط: من ٣ - ١٠ .

العصبة: من ١٠ - ٤ .

المقنب (المنسر) جماعة من الخيل (الفرسان): من ٣٠ - ٤٠، وتصل الى ٣٠٠ فارس، وتسمى احيانا (القنبلة).

الجمرة (القبيلة): من ٣٠٠ - ١٠٠٠ فارس.

السرية: من ٥٠ - ٤٠٠ وقد تكون أقل من ٥٠ - ٣٠٠ .

الكتيبة: من ١٠٠ - ١٠٠٠ او من ٤٠٠ - ١٠٠٠ .

الجيش: (فيلق أو جحفل): من ١٠٠ - ٤٠٠٠ .

الخميس: من ٤٠٠٠ - ١٢٠٠٠[3].

الاسباع: من ٧٠٠ ٧٠٠٠[4].

ـ وقد تُعزَّز الوحدة او القطعة، او التشكيل، فيقال عنها حينئذ (كتيبة، رجراجة او جرارة)، (جيش لجب)، (خميس عرمرم، وقد اطلق على القادة الذين يقودون أكثر من ألف رجل، الجرارين)[5]، وظلت تلك التشكيلات معروفة لدى العرب، الا أن الرسول الكريم كان يستخدم السرايا، وقد ارسلها مرات عديدة، حتى ان العمليات التي نفذتها سميت «حرب السرايا» أو«غزوات السرايا» وباعداد من المقاتلين مختلفة، يعتمد حجمها على نوع الواجب وقوة العدو.

ـ اما السلاح الذي كان يستخدمه العرب فهو نوعان، اسلحة هجومية وأخرى دفاعية:

---

(١) مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، العددان ١٥، ١٦، كانون الثاني ونيسان، ١٩٨٦، ص ٢٥٢ .

(٢) سمي الجيش خميساً، لأنه يتكون من خمسة أقسام، المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب (الرسول العربي وفن الحرب، لواء ركن مصطفى طلاس، ص ٢٩٦).

(٣) الادارة العسكرية في حروب الرسول محمد(ص) عميد ركن الدكتور محمد ظاهر وتر، ص ٤٨ .

(٤) المورد للكلمات، حرف السين.

(٥) الادارة العسكرية في حروب الرسول محمد(ص)، العميد الركن الدكتور محمد ظاهر وتر، ص ٤٩ .

الأسلحة الهجومية:

١ - السيف.

٢ - الرمح.

٣- الخنجر.

٤ - القنا.

٥ - الحراب.

٦ - القسي.

٧ - القوس.

٨ - المقلاع.

٩ - الدبابة، آلة من الات الحرب تصنع من خشب وتُصفّح بالجلود (في ذلك الوقت) يدخل فيها الرجال فيدبون الى الحصون فينقّبوها [الرسول العربي وفن الحرب، لمصطفى طلاس، ص ٢٨٦].

١٠ - المنجنيق، آلة من آلات الحصار تُرمى بها الحجارة الثقيلة، وقد استخدمه الرسول الكريم في حصاره لحصن النزار من حصون خيبر، بعد ان غنمه من أحد الحصون في معركة سابقة.

الأسلحة الدفاعية:

١ - الدرع.

٢ - الترس.

٣ - البيضة: توضع فوق الرأس وهي من الحديد[١].

٤ - المغفر: زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة [الرسول العربي وفن الحرب لمصطفى طلاس ص ٢٠٢].

٥ - الجحفة: هي الدرقة التي يتستّر بها المحارب بيده، وهي أصغر من الترس [نفس المصدر ص ٢٠٣].

٦ - اللأمة: وهي كل الدروع التي يلبسها المقاتل، وقد يسمى السلاح كله

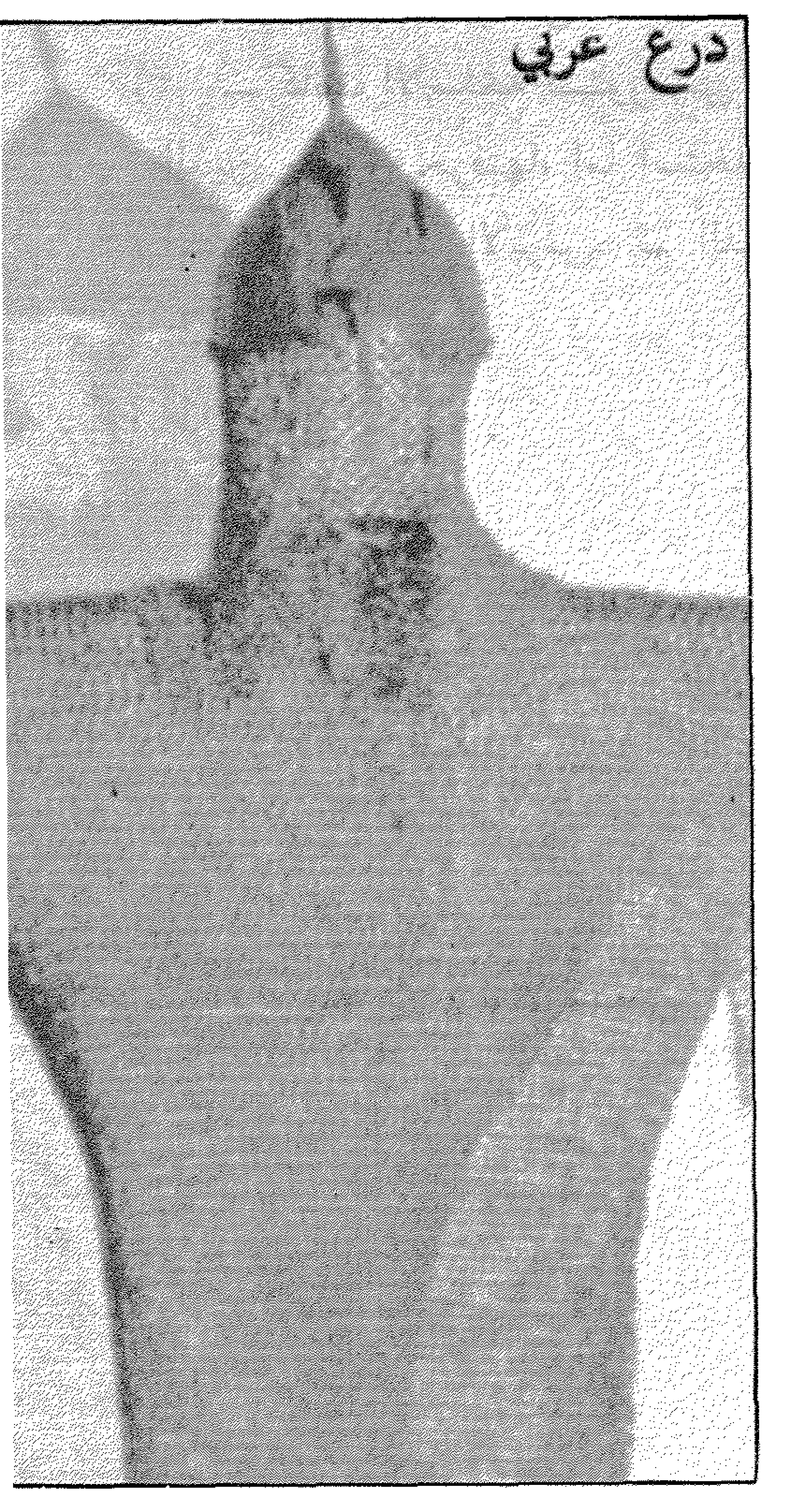
(١) في معركة أحد لبس الرسول الكريم من الشيخين درعاً واحدة، حتى انتهاى الى احد فلبس درعاً اخرى ومغفراً وبيضة فوق المغفر، فالمغفر اذن يغطي الرأس ايضاً.

لأمة [نفس المصدر ص ١٨٧].

ــ كانت الأسلحة تُستورد من الشام او اليمن او الهند، وبعض منها يصنعها الذين يتقنون حرفتها، اما استخدام الأسلحة الثقيلة، المنجنيق، فكان اول من استخدمه جذيمة الأبرش، ثم الدبابة وكان اول من استخُدمها عبد الله بن جعدة[١].


(١) الادارة العسكرية في حروب الرسول محمد(ص)، العميد الركن الدكتور محمد ضاهر وتر، ص ٥٠ .


درع عربي

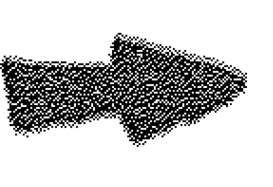

خوذة ودرع إسلاميين





نهر دجلة
نهر الفرات
الكوفة
ذي قار
البصرة
الثعلبية
فيد
الربذة
المدينة المنورة
مكة المكرمة
بحر القلزم (الأحمر)

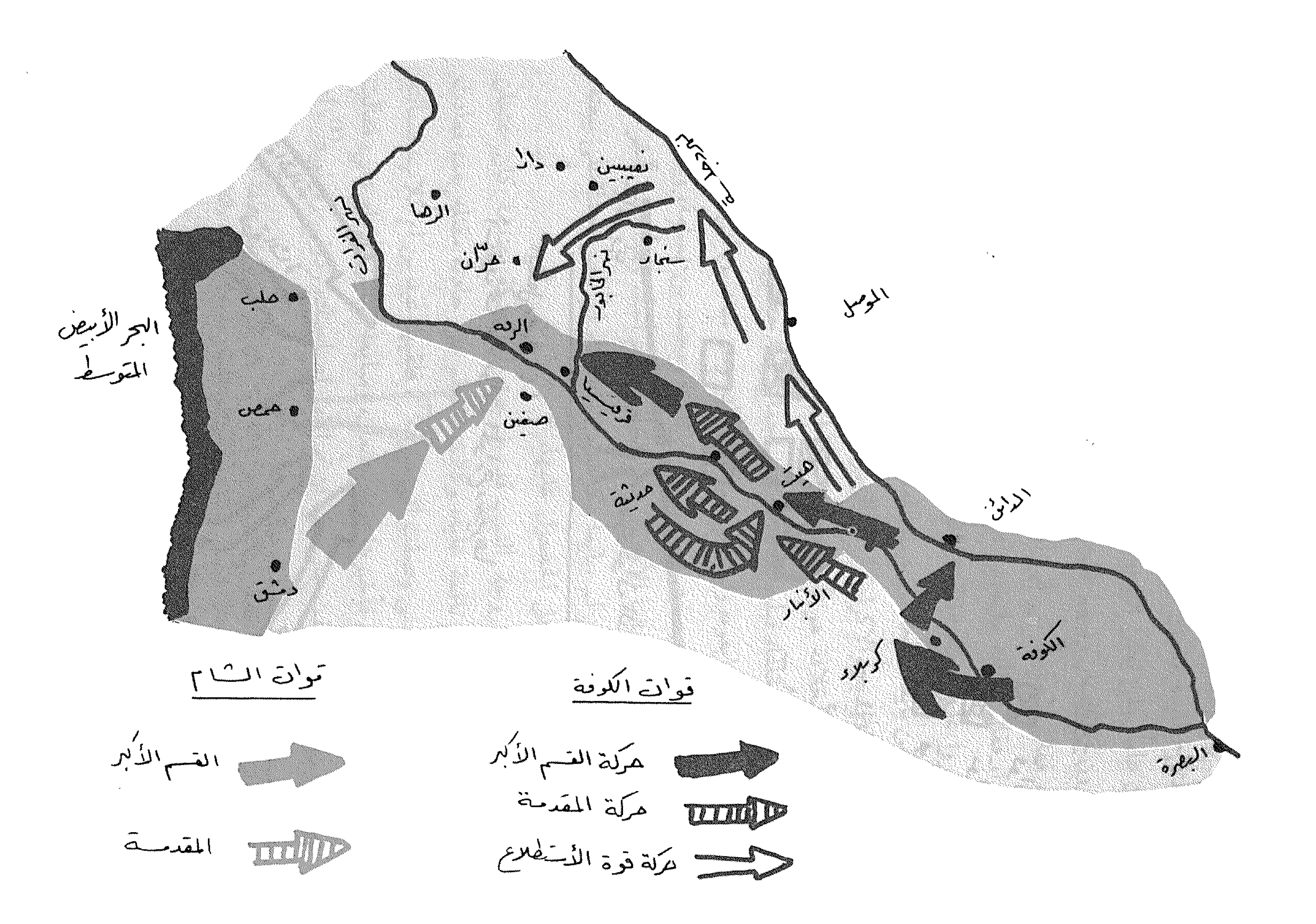
- حركة قوات الإمام من المدينة الى ذي قار
- حركة قوات أهل الجمل من مكة الى البصرة


جيش الإمام من المدينة


جيش الكوفة الى ذي قار


أهل الجمل الى البصرة

طرق


نصيبين
دارا
الرها
حران
سنجار
نهر الفرات
نهر الخابور
نهر دجلة
الموصل
حلب
حمص
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
الرقة
صفين
قرقيسيا
هيت
حديثة
الأنبار
المدائن
الكوفة
كربلاء
البصرة
قوات الشام
القسم الأكبر
المقدمة
قوات الكوفة
حركة القسم الأكبر
حركة المقدمة
حركة قوة الاستطلاع

معركة النهروان

الشكل رقم (١) إنفتاح قوات الطرفين

الرموز

قوات مشاة

قوات خيالة

قوات نبالة

- اللون الأزرق قوات الإمام

- اللون الأحمر قوات الخوارج

النهروان

عبور قوات الإمام الجسر

الشكل رقم (٢)

أسلوب محاصرة قوات الخوارج وتدميرها

قوة الخيالة

قوة المشاة

قوة المشاة

قوة الخيالة

معركة الجمل

ـ قُتل الخليفة عثمان في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ، وهو ابن التسعين عاماً، وفي نفس اليوم، بايع الانصار والمهاجرين الأمام علي[١]، «واجتمع المهاجرون والأنصار وفيهم طلحة والزبير، فاتوا علياً، فقالوا له يا ابا حسن هلم نبايعك، فقال لاحاجة لي في امركم، انا معكم، فمن اخترتم، فقد رضيت به، فاختاروا، فقالوا والله مانختار غيرك»[٢]، ورفض الامام طلبهم عدة مرات، الا انهم اصروا على بيعته، فقال تبايعون في المسجد، وهناك تمت البيعة العامة علناً، وكان اول من بايعه طلحة بن عبيد الله، ثم الزبير بن العوام، ولم يُذكر بان بيعتهما كانت تحت التهديد والاكراه، بل ان الزبير بن العوام كان يحث الامام على رفض بيعة ابي بكر للخلافة هو والعباس بن عبد المطلب، وكانت بيعته مستوفية لكل الشروط، بل ان الخلفاء قبله، لم يتوفر لهم اجماع كما حصل للامام، الا ان سبعة من المهاجرين لم يبايعوه، ولم يجبرهم على ذلك، وهم سعد بن ابي وقاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة، ومسلمة بن وقش، واسامة بن زيد، اما الأنصار فلم يتخلف منهم أحد، وهذا دليل آخر على ان كل من طلحة والزبير لم يبايعا مكرهين، لأن الامام لم يجبر احداً على بيعته، ولم يكره الناس من أجل الحصول عليها.

ـ وكانت عائشة زوجة النبي قد خرجت الى مكة عندما كان عثمان محصوراً في بيته، وهي ناقمة عليه، وكانت لاتعلم عن حادثة مقتله بعد، فعادت من مكة تريد المدينة، حتى وصلت الى سرف[٣]، فلقيها عبد بن ام كلاب، فسألته عن مايجري في المدينة، فأخبرها بمقتل عثمان، ومبايعة الناس للامام علي، فقالت «والله ليت ان هذه انطبقت على هذه ان تم الأمر لصاحبك، ردوني ردوني»[٤]، اي

---

(١) يقول ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، ص ١٢٩، ج٣، «ان الامام بويع بعد خمسة أيام من مقتل عثمان، وكان اليوم يوم الجمعة، وقال الخميس، لخمس بقين من ذي الحجة، عام ٣٥ هجرية، والناس يضنونه بانه بويع نفس يوم مقتل عثمان».

(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج٣، ص ٤٥٠ .

(٣) وهي موضع على ستة أميال من مكة (الى المدينة) وقيل سبعة وتسعة واثني عشر [معجم البلدان، ياقوت، ج٣، ص ٢١٢].

(٤) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، الجزء ٣، ص ٤٧٧، [تعني تنطبق السماء على الأرض].

انها قررت العودة الى مكة كي تبدأ بالعمل ضد الخليفة الجديد، الا ان ابن ام كلاب اعترض عليها، وذكّرها قولها بعثمان قائلا لها: «ولم فوالله ان اول من أمال حرفه لأنت؟، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر»[1]، وكانت عائشة تُخرج ثوب النبي وتقول «هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى سنته»[2]، تريد عثمان، فلما سمع الخليفة عثمان بذلك، قال: «رب اصرف عني كيدهن، ان كيدهن عظيم»[3]، عادت عائشة الى مكة وبدأت بالتحريض على الامام، والدعوة الى نقض بيعته، واصبحت مأوى وملجأ لكل المناهضين للخلافة.

ــ كان طلحة والزبير يأملان ان يوليهما الامام البصرة والكوفة، وكان عثمان لم يولهما شيئاً في خلافته، بل اختص اقاربه وعشيرته من بني امية «طلب طلحة والزبير من علي عليه السلام ان يوليهما المصرين، البصرة والكوفة، فقال: حتى انظر»[4]، ثم استشار الامام عبد الله بن عباس حول هذا الأمر، فنصحه ابن عباس ان لايوليهما، لانهما ان توليا اهم مصرين في الخلافة، البصرة والكوفة، وفيها من الرجال والأموال الكثير، اضافة الى مركز كل منهما المؤثر بين المسلمين، فربما تسوّل لهما نفسيهما نقض البيعة، واحداث المصاعب امام الامام، وكان مما اغراهما اكثر، ارسال معاوية كتابا الى الزبير يبلغه فيه: «اما بعد فاني قد بايعت لك أهل الشام، فاجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الحلب، فدونك الكوفة والبصرة، لايسبقك اليها ابن ابي طالب، فانه لاشيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبد الله من بعدك، فاظهر الطلب بدم عثمان، وأدعو الناس الى ذلك، وليكن منكما الجد والتشمير، أظفركما الله وخذل مناويكما»[5]، فلما وصل كتاب معاوية اليه كتمه عن الامام، واسرَّ به طلحة وقرأه عليه، فسُرا به، وكان لهما دافعاً ومشجعاً لبدء العمل المناهض للخلافة، ثم قررا الالتحاق بعائشة في مكة، حيث استئذنا الامام بالعمرة، الا ان الامام كان قد ادرك نواياهما، وانهما لم يكونا يريدان العمرة، بل انهما كانا يريدان الغدرة، وكان يدرك ايضاً انهما ان

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج٣، ص ٤٧٧ .
(٢) الجمل، الشيخ المفيد ص .١٢١
(٣) المصدر نفسه، ص ١٢١ .
(٤) نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، مجلد ١، ص ٧٧ .
(٥) المصدر نفسه، ص ٧٧ .

ظفرا بشيء، فانهما سوف يتنازعان، وان كل منهما يرى بان الأمر له دون صاحبه «والله لو ظفروا بما ارادوا، ولن ينالوا ذلك ابداً، ليَضربنّ احدهما عنق صاحبه بعد تنازع شديد»[1].

ـ سار طلحة والزبير الى مكة ملتحقين بعائشة، وكانا كلما التقاهما احد في الطريق، أعلنا بان ليس لعلي في اعناقهما بيعة، حتى وردا مكة، والتقيا بعائشة، وكان قد وصلها ايضا عبد الله بن كريز بن عامر والي عثمان على البصرة، ويعلى بن منية والي عثمان على اليمن، وكانا قد افرغا بيت المال مما فيه، وجلبا معهما الخراج وسلماه الى طلحة والزبير، كي يؤمّنا الاعداد للعمل المقبل، وما يُحتاج اليه من سلاح وخيل ودواب، فقد جلب يعلى معه عشرة الاف دينار، وأربعمائة بعير، وضعها تحت تصرف «الحركة» الجديدة، وكان بنو امية قد هربوا بعد حصار عثمان، ثم فروا بقضهم بعد مقتله، من المدينة الى مكة، وكان اول الهاربين مروان بن الحكم، وولدي عثمان ابان والوليد، وآخرين عديدين من وجوه بني امية.

ـ عندما تكامل المتآمرون، عقدوا اجتماعاً في بيت عائشة في مكة، لدراسة الموقف، واستعراض كافة الاحتمالات الممكنة، كانت عائشة ترى منذ بدء تجمع أهل الفتنة في مكة، ان تسدد الضربة أولاً الى القلب، فتتداعى بعده سائر الأطراف وتنهار، كانت تريد توجيه قواتها نحو المدينة، دار الخلافة، حيث لاتزال توجد فيها القوى التي حاصرت عثمان، او التي ألّبت عليه وقتلته، من الذين قدموا من الكوفة والبصرة ومصر، وكان رأي طلحة والزبير موافقاً لرأيها في أول الأمر، لكنهما كانا يخشيان فشل خطتهما، لأن المدينة، على الرغم من أن اهلها كانوا شبه محايدين، ولم تسلم قيادها للامام تماماً، لكنها ستقف معه عند نشوب الحرب مع طلحة والزبير، كما ان كثير من العرب المجاورين لها قد دخلوها مؤيدين للامام ومبايعين له، اضافة الى كل ذلك، فالخليفة لايزال فيها، وهو يمتلك القدرة على ادارة الصراع والسيطرة عليه، وهو ماكان واضحاً في ذهن الشيخين، ولم يريا بانهما كانا قادرين على مواجهة من سيدافعون عن انفسهم حتى آخر رمق، وقد كانت عائشة تعد العدة وتجمع الجيوش لهذا الغرض فقط، وهو مهاجمة

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن ابي الحديد، مجلد ١، ص ٧٧ .

المدينة، وخوض المعركة فيها، وانهاء الصراع في معركة واحدة في القلب، ثم ينتهي كل شيء، والمدينة قريبة منهم، الا ان تلك الخطة قد تم تغييرها خلال الاجتماع الذي عقد في بيتها بمكة، وصرفوا النظر عنها، لأنهم ادركوا استحالة احراز النصر في المدينة، وكان رأيهم حول هذا الأمر «المدينة؟؟.. ليس لنا بأهلها طاقة، فان من معنا لايقرنون بما بها من غوغاء»[١]، نعم لم تكن لديهم القوة الكافية لخوض الصراع وتحقيق النصر في المكان والزمان المطلوبين، وما عليهما سوى ان يفكرا في حل آخر.

ـ انقلب الرأي الى التوجه نحو الشام، ففيها العاصي الأكبر، وابن عم الخليفة المقتول، وفيها من الأموال والرجال مايكفي لمواصلة الحرب، كما يمكن لها ان تكون مقراً ملائما لادارة الحرب، وموئلاً للنشاط المعادي للامام على طول الارض الاسلامية وعرضها، ويمكن ان تتجمع فيها كل القوى الرافضة للخلافة الجديدة، وقائدها، الا أن تلك الفكرة التي وجدوها ملائمة في اول الأمر، صرفوا النظر عنها، لأن معاوية لن يُسلم لهم قيادها، كما ظنوا، وهو زعيمها، والسابق قبلهم اليها، وهو يريد الخلافة لنفسه، وعندما يحققوا الغلبة على الامام، ان تحقق لهم ذلك، فسوف ينتفض معاوية عليهم، لانه عندئذ سيكون احق بالخلافة منهم، وهو ماكان يلح عليه، وكان رأي يعلى بن منية أكثر الآراء استشفافاً لحقائق الموقف فيما يتعلق بالتوجه الى الشام، «ان معاوية قد سبقكم الى الشام، وفيها الجماعة، وأنتم تقدمون عليه غداً في فرقة، وهو ابن عم عثمان دونكم، أفرأيتم ان دفعكم عن الشام، او قال اجعلها شورى، اتقاتلونه؟ أم تجعلوها شورى فتخرجا منها؟»[٢].

ـ الا ان عبد الله بن عامر والي عثمان على البصرة، الذي تركها والتحق بمكة، يحمل اموال بيت مال المسلمين دعما للتحرك الجديد، اقترح على الشيخين، أن يشخصا الى البصرة، لأن له فيها اعواناً وصنائع ولأن لطلحة في البصرة شيعة، فقد راى المجتمعون ان ذلك الرأي هو الاصوب، واقنعوا عائشة على قبوله ومرافقتهم الى البصرة، لأنها قادرة على اقناع الناس فيها بالوقوف معهم، فيما لو

---

(١) الامام علي بن ابي طالب، عبد الفتاح عبد المقصود، مجلد ٢، ص ١٤ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥ .

احتج الناس على بيعتهما للامام علي، كما ان الكوفة سوف تسقط بايديهم بعد سيطرتهم على البصرة، هكذا تصوروا، وربما حدث ذلك قبل ان يستعد الامام لهما، فيسقط في يده حينها، خاصة وان للزبير في الكوفة أعواناً ومؤيدين، فان لم تستجب لهم، فانهم سوف يتحركون نحوها بجيوشهم التي سيزداد عددها وعدتها، بعد السيطرة على البصرة ونواحيها، عندها سيكون موقف الامام ضعيفاً، محصوراً في المدينة بينما سيعظم الحلف الجديد ضده، حلف الشام والعراق، البصرة والكوفة بما تمتلىء من الرجال والأموال والامكانيات، وهو مالم يكن يتوفر جزء قليل منه لدى الامام في ارض الحجاز، وبذا ستكون النهاية واضحة، انتصار الحلف الجديد على الخلافة وهي في مهدها.

ـ يصف الشيخ المفيد، أهداف المؤامرة والأسباب التي دفعت مدبريها الى التوجه نحو البصرة، وهي قصة لاتختلف كثيرا عما وردت في مصادر التاريخ الأخرى، اذ يقول «قالوا - يعني طلحة والزبير - نحب ان نسرع الى البصرة، فان بها شيعة عثمان وانصاره، وعامله عبد الله بن عامر، وهو قريبه ونسيبه، وقد عمل على استعداد الجنود من بلاد فارس وبلاد المشرق على الطلب بدم عثمان، وقد كاتبنا معاوية بن ابي سفيان، ان ينفذ لنا الجنود من الشام، فان ابطئنا على الخروج، خفنا ان يدهمنا علي بمكة، او في بعض نواحي الطريق فيمن يرى رأيه في عداوة عثمان، خوفاً من ان يفرق كلمتنا، واذا اسرعنا المسير الى البصرة، وآخرجنا عامله منها، وقتلنا شيعته بها، واستعنّا باموا له فيها، كنا على الثقة من الظفر بابن ابي طالب، وان قام بالمدينة سيرنا اليه جنوداً، حتى نحصره، فيخلع نفسه، او نقتله كما قُتل عثمان، وان سار فهو كالىء، ونحن جامّون، وهو على ظاهر البصرة، ونحن بها متحصنون، فلا يطول الزمان الا بفلّ جموعه، واهلاك نفسه واراحة المسلمين من فتنته»[1].

ـ عندما قرر أهل الجمل التحرك بسرعة الى البصرة، بعد ان استكملوا الاستعدادات اللازمة خرجوا، وكان ذلك بعد مقتل عثمان باربعة اشهر، وهتف منادي القوم في مكة، وكأنه يسوقهم الى حتفهم، «ايها الناس، ان ام المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون الى البصرة، فمن كان يريد اعزاز الاسلام وقتال

---

(١) الجمل، الشيخ المفيد، ص ١٢٦ .

المحلين، والطلب بثار عثمان، ولم يكن عنده مركب ولا جهاز، فهذا جهاز، وهذه نفقة»[1]، ووزعت الأموال التي سرقت من بيت مال المسلمين في كل من البصرة واليمن، وسار الركب متجهاً نحو البصرة، «ساروا في الف وقيل: في تسعمائة من أهل المدينة ومكة، ولحقهم الناس، فكانوا في ثلاثة آلاف»[2]، وعندما وصلوا الى البصرة، واهلها منقسمون على انفسهم، التحق بهم خلق كثير من أهلها، حتى صار عددهم يربو على الأثني عشر الفا، وربما وصل العشرين.

ـ كان الامام يستعد ويتجهز للشام، التي كان واليها قد اعلن شق عصا الطاعة عليه، واذا بالاخبار تتوارد الى المدينة، ان طلحة والزبير وعائشة قد سارا الى البصرة، بعد ان اعلنا سخطهما عليه، ونكثا البيعة، قرر الامام ان يجري تغييراً سريعاً في خططه، على ضوء ما استجد من تطورات جديدة، وقرر ان يلحق القوم قبل ان يصلوا الى البصرة، وربما استطاع ان يدركهم على الطريق ويمنعهم من الايغال في عصيانهم، ومنعهم من السيطرة على المدينة، البصرة، ان معركة الجمل تختلف عن صفين، في ان الأولى قد جرت على ارض موالية للخلافة، وعليها والٍ عينه الامام، واستقر الوضع فيها له، اما صفين فان الامام قد توجه فيها للقتال على ارض الشام، التي لم تبسط له يد الولاء والبيعة، في ارض لم تكن تخضع له، ولم يكن الامام متعجلاً في حركته نحوها، لأن الوضع فيها معلوم، اما البصرة فلازالت موالية له، ويجب ان يحرم اهل الجمل من اخراجها عنه، كان للوقت في معركة الجمل اهمية كبرى، بينما لم يكن كذلك في معركة صفين، حيث انتظر الامام مدة (١٧) شهراً في الكوفة، قبل حركته الى الشام، وقد قدر الامام الموقف تقديراً دقيقاً، وادرك هذا الأمر بوعي، لذا فانه اسرع اليهم بقوة خفيفة من الخيالة، ولم يكن يحمل معه اثقالاً، بقوة لاتزيد عن (٧٠٠) مقاتل، علّه يدركهم قبل ان يلتحق بهم اناس على الطريق الى البصرة، او عند وصولهم اليها، الا انه لم يدركهم، وعندما وصل الربذة وجدهم قد تركوها، عند مفترق الطريق الذي يفترق منها الى البصرة والكوفة، فقرر ان يتجه الى ذي قار الواقعة في منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة، ثم يرسل رسله اليها، حتى

---

(١) الامام علي بن ابي طالب، عبد الفتاح عبد المقصود، ج٣، ص ٢٤ .

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، المجلد الثالث، ص ٢٠٨ .

يأتيه انصاره ومؤيدوه من أهل الكوفة وهو بذي قار، عندها يتجه الى البصرة ليحسم الموقف هناك، لقد كان هدف الأمام من تقدمه السريع خلف اهل الجمل، ان يدركهم قبل وصولهم البصرة، كي يمنع اتساع الفتنة، فتصبح البصرة رافعة راية التمرد، اضافة الى الشام، وربما لحقت بهما الكوفة.

ـ سار اهل الجمل من مكة يقصدون البصرة، فمروا على «ذات عرق»[1]، ثم «الربذة»[2]، حيث مفرق الطرق هناك، يؤدي احدهما الى البصرة، والآخر الى الكوفة، وسلكوا الطريق نحو البصرة، حتى وصلوا الى «الحوأب»[3]، حيث علمت عائشة بانه المكان عينه الذي قصده النبي عندما نبّه ازواجه، بان احداهن تنبحها كلاب الحوأب، تخرج وهي ظالمة، لكن القوم شهدوا لها بان المكان ليس الحوأب، وانما مكان آخر، واصل القوم مسيرهم حتى وصلوا «حفر ابي موسى»[4]، ثم وصلوا الى «حفير»[5]، اقامت عائشة في الحفير تنتظر عودة عبد الله بن عامر الذي ارستلته الى البصرة، كي يأتيها باخبار اهلها واوضاعهم، لكن عثمان بن حنيف دعى كل من عمران بن حصين وابي الأسود الدؤلي، وهم من أنصار الامام علي، وقال لهما «انطلقا الى هذه المرأة، فاعلما علمها وعلم من معها»[6]، وصل مبعوثا عثمان بن حنيف الى الحفير، والتقيا بعائشة وطلحة والزبير، عادا بعدها الى عثمان واخبراه بان القوم يطالبون بثأر عثمان، وان البصرة سوف تتعرض للتهديد، واقترح ابي الأسود الدؤلي على عثمان ان يتهيأ للحرب التي لامفر منها، فقرر عثمان ان يمنعهم دخول البصرة حتى يصل الامام، ونادي عثمان في الناس، يأمرهم بالتهيؤ وارتداء السلاح والتجهّز، ثم خطب في المسجد فوجد ان لأهل الجمل انصاراً بين اهل البصرة.

ـ وصلت عائشة للبصرة، ودخلت «المربد»[7]، واجتمع انصار الفريقين هناك،

---

(١) ذات عرق : الحد بين نجد وتهامة على طريق مكة، البصرة [معجم البلدان، ياقوت، ج٤، ص ١٠٧].
(٢) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز اذا رحلت من فيد تريد مكة.
(٣) الحوأب: من مياه العرب على طريق البصرة، موضع في طريق البصرة محاذي البقرة.
(٤) حفر ابي موسى: وهي ركايا، احفرها ابو موسى الأشعري على جادة البصرة الى مكة، بينه وبين البصرة خمس ليال، [معجم البلدان، ياقوت، ج٢، ص ٢٧٥].
(٥) حفير: اول نزل من البصرة لمن يريد مكة، وتبعد عنها اربعة أميال.
(٦) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، المجلد الثالث، ص ٢١١ .
(٧) المربد: ومربد البصرة، اشهر محلاتها، وكان سوق الابل فيه قديماً، وهو الآن بائن عن البصرة، بينهما نحو ٣ أميال [معجم البلدان، ياقوت، ج٥ ، ص ٩٨].

بعد ان خرج عثمان بن حنيف مع جيشه لملاقاتهم، وبعد مجادلات وخطب، كانت عائشة آخر من خطب منهم، مال قسم من أهل البصرة من الذين خرجوا مع عثمان الى جانب عائشة، وبقي قسم منهم معه، انسحبت عائشة الى موضع الدباغين في المربد، وبقي اصحاب عثمان بن حنيف على حالهم.

ـ سارت عائشة ومن معها، طلحة والزبير، ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير، مع جيشهم، حتى اتت الى دار الامارة في البصرة، وطلب الجميع من عثمان بن حنيف الخروج عن الدار وترك الأمر لهم، فابى عليهم، وجمع لهم جنوده وانصاره وزمرة من أهل البصرة، فاقتتلوا قتالاً شديدا حتى غابت الشمس، وقد اصيب جيش عثمان بن حنيف بخسائر جسيمة، ثم بدأ بينهم التزاحف حتى وصل المقاتلون الى مقبرة بني مازن، ثم الى «الزابوقة»[1]، وكان القتال بينهم مستمراً، حيث كثر القتلى والجرحى بين الطرفين، حتى قرروا الصلح، على ان يظل عثمان في دار الامارة والمسجد وبيت المال، ولأهل الجمل ماشاؤوا من البصرة، وان يثبتوا هكذا حتى يقدم الامام على البصرة، وكانت تلك الخطأة القاتلة التي وقع فيها عثمان بن حنيف، وقد أمن على ما انتهى اليه الأمر، ووضع سلاحه، وتفرق الناس عنه، بينما ظل اهل الجمل على استعدادهم وعدتهم.

ـ كان الجو عاصفاً شديد الرياح، والجو خريفاً مقبلاً على الشتاء، وفيه قرص من البرد خاصة عند الليل، عندما تحرك عدد من اصحاب الجمل الى المسجد، وتفرقوا فيه، يخفون سلاحهم تحت ارديتهم، انتظاراً لمجيء عثمان ليقيم صلاة العشاء، كما تم الاتفاق عليه، وكان عدد من حراسه قد انتشر خارج المسجد، انتظاراً لمقدمه، وفجأة انتفض المتسللون الى المسجد، وانقضوا على حرس الوالي وقتلوهم ثم واصلوا خرقهم لاتفاق الصلح، وتوجهوا الى قصر الامارة وبيت المال، كان يقودهم مروان بن الحكم، ومن خلفه طلحة والزبير، فقتلوا جميع الحرس صبراً، متسللين خلسة، وكان عدد الحراس اربعون حارساً، ثم القوا القبض على عثمان بن حنيف، فاستشاروا عائشة حول مصيره، فامرت بقتله، لكنها عادت فاستثنت بعد ان نصحتها امرأة، وبأن له أهل وعشيرة في المدينة

(١) الزابوقة: موضع قريب من البصرة، كانت فيه وقعة الجمل أول النهار، وهي مدينة المسامعة بنت ربيعة بالبصرة [معجم البلدان، ياقوت، ج٣، ص ١٢٥].

ومكة سيثأرون له من أهل القتلة واقاربهم الذين تركوهم خلفهم، واخوه سهل بن حنيف واليا على المدينة، وله مكانة بين الأنصار، الأوس والخزرج، لكنهم آذوه وسجنوه، ونتفوا شعر لحيته وحاجبيه، ثم اطلقوا سراحه بعد ان خافوا من اخيه ان يسجن مشايخهم في المدينة ويوقع بهم، والتحق بالامام في ذي قار، وهو بهذه الحالة، مما اثار النقمة والتأثر في نفس الامام.

ــ وبلغ حكيم بن جبلة العبدي، ما انتهت اليه الأمور، وما عمل بعثمان بن حنيف ومقتل حراس بيت المال والامارة صبراً، ونقض اهل الجمل بنود الصلح، فقام في سبعمائة رجل من عبد القيس، وتوجه بهم الى جيش اهل الجمل، فقاتلهم قتالاً شديداً، ولم ينثن عنهم، ولم يخش كثرتهم وقلة جنوده، فقاتل حتى قتل ومعه اكثر جنوده، وقد اظهر من الشجاعة والصلابة مايفوق التصور، وكان دافعه الى ذلك ايمانه بان الامام على الحق، والقوم على باطل بكل مايعنيه من معاني، وكان ان انتهت اخر مقاومة في البصرة، التي اصبحت الآن بأيدي اهل الجمل، واستبيحت دماء اهلها، وجيء بكل من اتهم بانه اشترك في مقتل عثمان، فقتلوا امام اعين اهل المدينة، وليس من الذين قُتلوا له علاقة بمقتل عثمان، وكانوا لايزالون في المدينة لم يبرحوها منذ الحادثة، انما اراد طلحة والزبير ان يشفيا غليلهما من الامام علي بقتل انصاره وشيعته، والذين رفضوا خروجهم على الشرعية.

ــ وكان آخر ما أراده الزبير بعد ان استتب له الأمر، ان يتحرك بجيشه الى الامام في ذي قار، ويقاتله هناك، قبل ان يتوجه اليهم في البصرة، «لو كان لي الفا فارس الى خمسمائة فارس، ينهضون معي الساعة لأسير بهم الى علي، فاما ان آتي به بياتاً أو اصبحه صباحاً، لعلي اقتله قبل ان يأتيه مدده»[1]، فلم يجبه احد الى دعوته، فاغتاظ وقال: «هذه والله الفتنة التي كنا نتحدث عنها»[2].

ــ لقد وقع عثمان بن حنيف والي الامام في خطأ جسيم بقبوله الصلح مع أهل الجمل، فقد أمكنهم من نفسه وسلمهم مقاليد البصرة، باعطائهم وقتاً، استطاعوا ان يستفيدوا منه، فقد هاجموه وهو مطمئن لهم، ولم يكن جديراً به ان يأمن لهم، ويؤاخَذ ابن حنيف بما يلي:

(١) و(٢) الجمل، الشيخ المفيد، ص ١٥٥ .

١ - انهم عندما جاءوا وحاججهم، تأكد بأن طلحة والزبير قد نكثا البيعة، وجاءا يدّعيان الطلب بثأر عثمان، فكيف يقبل الصلح معهم، وقد نكثوا البيعة وهي اعظم شأنا من صلح صغير.

٢ - لقد اعطاهم الفرصة التي كانوا يريدونها، عندما خرج لمحاججتهم، فاحدث انقساماً بين اهل البصرة، الذين التحق قسم كبير منهم بأهل الجمل، مما مكنهم في آخر المطاف من بسط سيطرتهم على المدينة، وقد كان جديراً به ان يقبل نصيحة ابو الأسود الدؤلي وحكيم، بالتهيؤ فوراً للحرب عندما اخبره ابو الاسود الذي اوفده اليهم، ان القوم قادمون وهم مصممون على مهاجمة البصرة، اذ لم يكن من ذلك بد، ولو أن عثمان بن حنيف اتخذ موقفاً شديداً، واظهر سيطرة قوية، وجمع كل ماليده من قوة، وكانت لديه قبل وصول اهل الجمل الى البصرة، وانقسام اهلها، وتحصن فيها، وادار المعركة، وهو قادر على ذلك، لأمكن ان يصل اليه الامام بجيشه من ذي قار، وتم انهاء عصيان اهل الجمل، ان سلماً أو حرباً، قبل ان تقوى شوكتهم ويكثر عددهم وعدتهم ومالهم، الا أن تساهل عثمان، وقبوله الصلح، كان قد افسد كل شيء، لأن اهل الجمل، عندما سقطت البصرة في ايديهم، اعتبروا ذلك فاتحة لانتصارهم القادم على الامام علي، وشجعهم كثيراً على التمسك بمواقفهم وعنتهم، عندما وصل الامام الى البصرة وحاججهم قبل بدء معركة الجمل الكبرى.

٣ - لقد قاتل انصار الامام علي في البصرة بمجموعات متفرقة صغيرة، مجموعة حكيم العبدي، وحرس بيت المال والامارة، ثم معارك الوالي الأولى، فكان القضاء عليهم سهلاً، المجموعة تلو الأخرى، وهذا دليل على ضعف عثمان بن حنيف في ادارة المعركة، وعدم امساكه بالموقف بشدة، كما انه لم يقدر عناصر القوة التي لديه حق قدرها، فترك الناس ينفضّون من حوله، حالما عقد الصلح مع أهل الجمل، بينما كان يجدر به ان يهيء قواته مجهزة، مجتمعة، يستطيع ان ينفذ بها رداً سريعاً على خصومه، عندما يحدث امر غير متوقع، خصومه الذين كانوا قد قاتلهم بالأمس، وان يبث في البصرة عيوناً، ويضبط مسالكها ودروبها، وان لاينام ليله دون أن يتأكد بان لديه قوات قادرة على احباط اي عمل معادي، بانذار قصير.

٤ - لقد كان على عثمان ان يدرك بان اهل الجمل لن ينتظروا قدوم الامام عليهم، فتضيع منهم الفرصة التي سنحت لهم، وانهم لو ارادوا النصح، لقابلوا الامام في المدينة، وأنهوا خلافهم معه هناك، وليس على ابواب البصرة، وهم يحلمون بالقوة والمال الذي سيحصلون عليه عند احتلالهم لها.

ـ لما ورد خبر حركة اهل الجمل نحو البصرة، دعا الامام ابن عباس ومحمد بن ابي بكر، وعمار بن ياسر، وسهل بن حنيف، واخبرهم بالأمر، وسألهم عما يجب عمله، وقال لهم «اشيروا علي بما اسمع منكم القول فيه»[1]، فقال عمار انه يفضل الحركة الى الكوفة فوراً، لأن فيها الكثرة الموالية للامام، وكان رأي ابن عباس، ان يرسل الامام رجالاً الى الكوفة، فيعاجلوا القوم قبل ان يدخلوا البصرة، وكان رأي الامام بانه يجب التوجه فوراً وراء اهل الجمل، علّه يدركهم في الطريق فيأخذهم، وان فاتوهم، فانه يكتب الى الكوفة وبقية الأمصار، يستمد الجنود ليسيرهم الى البصرة، ثم سار بعد ان استخلف على المدينة تمام ابن عباس، وبعث القثم اخيه على مكة، ولما وصل الى الربذة، لم يلحق بالقوم - كما ذكرنا - فاتجه الى ذي قار، وارسل هاشم بن عتبة المرقال الى ابي موسى الأشعري في كتاب يستنفر فيه اهل الكوفة، فلم يُعر ابو موسى الكتاب اهتماماً، بل توعد هاشم بالسجن، فكتب هاشم للامام بذلك، فلما قرأه، ارسل علي ابنه الحسن وعمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة، وبعثهم الى ابي موسى في كتاب، مطالبا اياه أن يعتزل الكوفة وأهلها، الا ان ابي موسى ظل يراوغ، ويدعو اهل الكوفة الى التزام بيوتهم وعدم تلبية نداء الامام، وكان يثبط الهمم ويخلق الأعذار، وبلغ الامام ذلك، فارسل الأشتر خلفهم، الذي استطاع ان يحسم الأمر بالقوة، بعد ان طرد ابي موسى الأشعري من قصر الامارة ومنعه من دخوله، وتم حسم الموقف، وتحرك جيش الكوفة الى ذي قار صباح اليوم التالي، بعضهم أخذ البر، والآخر اخذ النهر، وقد التحق بالامام في ذي قار من أهل الكوفة ستة الاف وخمسة وستون رجلاً، احصاهم ابن عباس بنفسه فبلغ جند الامام عند وصولهم البصرة اثنا عشر الفا، ثبت ذلك من تقسيم ما وجد في بيت مال البصرة، بعد

---

(١) الجمل، الشيخ المفيد، ص ١٢٩ .

انتهاء معركة الجمل، فقد وجد في بيت المال ستة ملايين درهم «ستة ألاف الف درهم»[1]، وزعت على المقاتلة، فاصاب كل واحد منهم خمسمائة درهم، فلم يبق منها شيئاً.

ـ ترك الامام الربذة متوجهاً الى ذي قار[2]، فوصل جبل طيء، حيث التحق به عدد منهم، ويقول ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ بان الامام أمرهم ان يمكثوا في أرضهم، ولم يلتحق به احد منهم، ثم وصل فيد[3]، ومنها الى الثعلبية[4]، ثم منها الى الأساد، ثم ذي قار، ومن مسيره يتضح بان الطريق الى الكوفة يتفرع عن الطريق الى البصرة القادم، من المدينة المنورة في الربذة، مكث الامام في ذي قار خمسة عشر يوماً، ينتظر استمداده من الكوفة، حيث لعب ابو موسى الاشعري، دوراً مشبوهاً في تأخير حركة الجند الى ذي قار، مما ادى الى ضياع كل ذلك الوقت هدراً، وكان ذلك من العوامل التي اتاحت الفرصة لجيش أهل الجمل في احتلال البصرة والسيطرة عليها، وكان الامام مدركاً لهذا الوضع تماماً، لذا فانه أرسل رسله اربعة مرات، مطالبا ابي موسى ان يمتثل لأمره، لكنه لم يفعل الا بعد ان نحّاه ووبخه، وارسل الأشتر الذي ازاحه بالقوه.

ـ سار الامام من ذي قار قاصداً البصرة، حتى نزل على عبد القيس، فانضموا اليه، ثم واصل سيره حتى وصل الزاوية[5]، ثم تقدم من هناك يريد البصرة، فالتقى بجيش اهل الجمل عند موضع قصر عبيد الله بن زياد «فمكثوا ثلاثة أيام دون قتال»[6]، وكان يوم وصول الامام الى البصرة في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة، وكان الامام قد سبق اصحابه وهم يسيرون خلفه، اقترح كعب بن سور قاضي البصرة، وهو من أهل الجمل، ان يهاجموا الامام قائلاً «ياقوم اقطعوا هذا العنق من هؤلاء القوم»[7] فلم يجبه أحد.

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج١، ص٨٣ .

(٢) ذي قار: موضع على الفرات، جنوب الكوفة قرابة ١٠٠ ميل، حدثت فيها المعركة المشهورة بين العرب والفرس قبل الاسلام.

(٣) فيد: بليدة في منتصف طريق مكة من الكوفة [معجم البلدان، ياقوت، ج٤، ص ٢٨٢].

(٤) الثعلبية: من منازل طريق مكة والكوفة، وهي ثلثا الطريق، [معجم البلدان، ياقوت، ج٢، ص ٧٨].

(٥) الزاوية: موضع قرب البصرة، كانت فيه الوقعة المشهورة بين الحجاج وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة ٨٣ هجرية، [المصدر نفسه، ج٣، ص ١٢٨].

(٦) الكامل في التاريخ، ابن الأهير، مجلد ٣، ص ٢٣٦ .

(٧) المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٢٣٧ .

ـ لقد نشب القتال كما يدعي الطبري وابن الأثير في تواريخهما، بسبب مؤامرة حاكها مالك الأشتر وعدي بن حاتم الطائي، بالتواطؤ مع ابن السوداء، يقصد عمار بن ياسر «فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، واما علي فلم نعرف رأيه الى اليوم، ورأي الناس فينا واحد، فان يصطلحوا مع علي، فعلى دمائنا، فهلموا بنا نثب على علي، فنلحقه بعثمان، فتعود فتنة يرضى منّا فيها بالسكوت»[1]، لكنهم اتفقوا ان يهاجموا أهل الجمل دون علم الامام فتنشب الحرب ولا يعود مجال للصلح، وهذا امر لايصدقه العقل، ومجريات الأحداث السابقة واللاحقة، تضع هذا الادعاء في موضع الدس المحض، ولنا على هذا الرأي عدة دلائل وهي:

١ - كيف يسلّم الامام قادته واعظم الرجال لديه وهم، مالك الأشتر النخعي، وعدي بن حاتم الطائي وعمار بن ياسر الذي يسمونه ابن السوداء، وامه وابيه كانا أول شهداء الاسلام؟ كيف يفعل ذلك ولم يزل لديه امر جليل، عليه ان ينهيه، وهو عصيان معاوية في الشام، والذي لايقارن بفتنة أهل الجمل؟، فمن سيقف معه غير أخلص الناس له؟، هل سيقف معه الزبير وطلحة وابنيهما عبد الله ومحمد، وهم الذين كاتبهم معاوية مبايعاً لهما بالخلافة؟، بل كيف يثق الامام باناس نكثوا ثلاثة عهود، عهد بيعة عثمان، وعهد بيعة علي، وعهد الصلح مع أهل البصرة؟، وكان طلحة قد منع دفن عثمان في مقبرة البقيع في المدينة، نكاية، حيث خرج يقود جماعة الى البقيع، فمنع دفن عثمان في مقبرتها، فدفن في حش كوكب، وعندما غلب بنو اميه ضموا حش كوكب اليها، وهاهو الآن يطالب بدمه.

٢ - لو كان الأشتر لايهمه الا نجاة رأسه، لما انسحب عائداً، عندما ارسل الامام في طلبه في معركة صفين، بينما كان يوشك على احراز النصر، وقتل معاوية، حيث كان يطلب من الامام مهلة فواق ناقة كي يضع النصر بين يديه، وكان الأحرى به لو أنه كان يفكر هكذا، ان يترك الامام يقتله العاصون من جنده، ويتخلص هو من غريم ظل يطلب راسه الى آخر يوم من حياته، وبذا يتخلص من الاثنين، كما ذكر الطبري وابن الأثير.

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، المجلد ٣، ص ٢٣٥ .

٣ - لقد اثبت مالك الأشتر بانه الجندي الوفي المطيع للامام، الذي لم يكن ليعتمد عليه في المهمات والشدائد، الا لشدة اخلاصه له وتعلقه به، لكنها الكراهية والضغينة هي التي وجهت الذين كتبوا عن الاشتر في تواريخهم، ماكتبوا، لانهم يدركون تماماً بانه كان اعظم الناس شدة على اعداء الامام ومناوئيه، لايتهاون معهم، او يتراجع عنهم، وهو الذي قال عنه الامام يوم نُعي اليه وفاته: (رحم الله مالكاً، كان لي كما كنت لرسول الله)، انهم لم يجرؤا على التشكيك بمواقف الامام، فقاموا يكيلون التهم لصفوة رجاله، وهاهم يسمّون عمار بن ياسر «ابن السوداء»، فلا غرو في ذلك، أوَلم يُظلم أبو طالب، عندما ذكروا أنه مات مشركاً؟، لقد ظلم ايضاً لأنه والد علي ليس غير، وهو الذي دافع عن رسول الله والاسلام حتى آخر لحظة في حياته.

٤ - ان الحقيقة الماثلة في التاريخ هي ان مالكاً الأشتر لم يشترك في قتل الخليفة عثمان، وانما قدم مع المحتجين من أهل الكوفة على عمل واليه فيها، وعلى بعض الأعمال أتاها الخليفة، رأوا انها منافية لسيرة من سبقه، ولم أر مايثبت بان مالكاً قد حمل في يده سلاحاً او اشترك في قتل عثمان، سوى انه قابله اثناء الأزمة ناصحا له.

٥ - لماذا لم يسلّم عثمان بن عفان قاتل زياد بن عياض «وكان من الصحابة»؟، عندما كان ينادي عليه وهو في بيته، اذ رماه كثير بن الصلت الكندي، وهو من المدافعين عن عثمان بسهم فقتله، وعندما طلب منه المحاصرون لبيته ان يسلّم لهم كثير بن الصلت لقتله زياداً عدواناً، اجابهم «لم اكن لأقتل رجلاً نصرني، وانتم تريدون قتلي»، الا يحق للامام علي ان لايسلّم مالك وعدي وعمار بن ياسر، على فرض انهم اشتركوا في مقتل الخليفة عثمان، بنفس الدعوى والاعذار؟، لماذا يحق لعثمان ذلك، ولا يحقل لعلي مثله؟.

٦ - لو كان الأشتر يخشى قصاص اهل الجمل، لخشي معاوية في وقعة صفين، ولكان امضى وثيقة التحكيم، كي يخفف من نقمة اعدائه عليه، وهو آمن من جانب الامام، بعد كل الذي شهده معه من الأهوال، الا انه كان مؤمناً بان الذين قاتلهم، كانوا يستحقون منه كل الذي رأوه، ولم يكن ليتراجع عن رأيه هذا ابداً، وهو المعروف بالشجاعة والاقدام الذين لايدانيه فيهما احد بعد الامام علي.

٧ - لايعقل بان رجلاً مثل مالك الأشتر والذي عُرف بالحنكة وسداد الرأي، يفكر في قتل قائده، في الوقت الذي يقف فيه جيش الخصم متأهباً للقتال، وهو مطلوب عندهم، فلو افترض ان الأشتر قتل الامام، فهل ستكون النتائج الا كارثة ستصيب الأشتر نفسه أول من تصيب؟، فعدما يموت الامام، فان الباب سيفتح على مصراعيه امام قادة جيش اهل الجمل ليحصلوا على كل مايريدون، بعد ان يتمزق جيش الامام ارباً ارباً، دون قتال، عندها سيقع مالك الأشتر بايدي طلحة والزبير، ولن يكتفي هؤلاء منه بنتف شعره، كما فعلوا مع عثمان بن حنيف، وهو أقل شدة عليهم من مالك الأشتر.

٨ - ثم من قال بان الصلح سوف يتم بين الامام علي واهل الجمل؟ ألم يقتل اهل الجمل شيعة ومناصري الامام صبراً، وقد اسالوا من الدماء ظلماً وعدواناً مايكفي لمطالبتهم بدفع القتلة الى الامام، وهو حريص على ذلك، حرصه الذي يجب ان يظهره علنا على شيعته وانصاره، فعندما قتل الخوارج ابن خباب وامرأته، طالبهم الامام باصرار بدفع قتلته اليه لقتلهم به، فلما ابوا، قتلهم عن بكرة ابيهم، فهل سيسلّم قادة الجمل القتلة اليه راضخين؟ وها قد مرت ثلاثة ايام قبل الوقعة دون ان تظهر اية بوادر بذلك، ثم الا يعرف الامام بان طلحة بن عبيد الله عنيد، متشبث برأيه؟ ولن يترك فرصة للصلح والسلام، اذن فلماذا يتعجل الأشتر والمتآمرون معه هذا الأمر، وهو لايزال بعيد المنال؟.

قتال اليوم الأول

ـ يقول ابن ابي الحديد، في كتابه شرح نهج البلاغة، بان المعركة استمرت ثلاثة ايام متوالية، منذ الفجر حتى المغرب، عند كل يوم من أيامها، الا انني لم اجد في تواريخ ابن الأثير والطبري شيئاً عن ذلك، الا ان ابن الأثير كان قد ذكر بان الفريقين اقاموا ثلاثة ايام لم يكن بينهم قتال، وابن ابي الحديد ينقل عن ابي مخنف عن كتابه «معركة الجمل»، ولا يعني ذلك بان هناك تباين في المعلومات، لأن كل من ابن الأثير والطبري، كانا متشابهين في ما كتبا والذي يبدو ان ابن الأثير ينقل عن الطبري، الا انهما لم يظهرا اهتماما بتفاصيل المعركة والمدة التي

استغرقتها، كما فعل ابو مخنف، وهما قد نقلا ايضا عنه، فجاءت كتاباتهم عن سنه ٣٦هـ مختصرة، وكتاب ابي مخنف كان مختصاً بحرب الجمل وحدها، لذا فانه تتبع تفاصيل امور كثيرة، منها عدد الأيام التي استغرقها القتال، لكن ابن الأثير يشير اشارات ليست واضحة تماماً الى ان القتال لم يكن يوماً واحداً.

ــ اصبح الجيشان متقابلين، وركبت عائشة جملها، الذي درّع فوقه هودجها، وخرج الزبير في كامل عدته وسلاحه على ظهر فرس، يتبعه طلحة، فاخبر أصحاب الامام قائدهم بذلك، فخرج الامام اليهما حاسراً بدون درع، كي يظهر لهما بانه لايريد ان يقاتلهما، ويخفف مافي نفسيهما من نقمة، وكان يأمل من الزبير خيراً، فعاتبه، وذكره بقول النبي له بانه سيقاتل الامام وهو له ظالم، فخجل الزبير وبدت عليه الحيرة والارتباك، معترفاً بانه لم يكن عليه ان يقف هذا الموقف، انسحب الزبير من المعركة، عل الرغم من تأنيب ولده عبد الله، تاركاً القوم، والحرب على وشك ان تنشب، اما طلحة فانه لم ينفع معه كلام الامام، وعاد الامام الى جيشه بعد ان افلح في ثلم وحدة صف قيادة جيش عدوه، وتهيأ جيش الجمل للحرب، ونشب القتال بين الطرفين، واستمر شديداً، وقد بدا أن كفة أهل الجمل في أول الأمر راجحة، حيث بدأ جيش الامام بالتقهقر، وتضعضع ترتيبه القتالي، «واشتد الأمر حتى الزقت ميمنة اهل الكوفة بقلبهم»[1]، الا ان الامام استطاع ان يتدارك الموقف، فتقدم بمجموعة من مقاتلي الكوفة[2]، وغاص في اهل الجمل حتى ازاحهم عن مواضعهم، وعندما وقفت عائشة على الأمر، ان جيشها اوشك على الانهيار، نادت على انصارها تشجعهم وتبث الحمية فيهم فثبتوا، واستمر القتال شديداً حتى انتهى نهار ذلك اليوم، وتواقف الطرفان عند المساء، لقد فقد اهل الجمل في ذلك اليوم ابرز قادتهم، فقد قتل الزبير، قتله ابن جرموز، من قوم الأحنف بن قيس التميمي، الذي كان قد اعتزل القتال في معسكره، وكان الزبير يرؤوم التوجه الى مكة، وكان واضحاً بان الحرب سوف تنتهي في غير صالح اهل الجمل، بعد الخسائر الجسيمة، التي اصابتهم ذلك اليوم.

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، المجلد ٣، ص ٢٤٦ .

(٢) كانت للامام اضافة لذلك كتيبة من المهاجرين والأنصار تسمى «الخضراء»، كانت تشاركه الهجوم.

قتال اليوم الثاني

ـ بدأ القتال في اليوم الثاني عند الفجر، وخرج عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو من علية قوم البصرة واكثرهم مالاً وعقاراً، فطلب المبارزة مع الامام علي، حيث نادى على الامام برجز ذكرناه في مكانٍ آخر من الكتاب، فخرج اليه الامام وقضى عليه بضربة واحدة، وكان الجمل يدور وحوله اصحابه، وعليه عائشة، واشتد رغاؤه، وتزاحم الناس عليه، فنادى حتات المجاشعي، احد اصحاب الجمل، امكم امكم، فاختلط الناس ببعضهم واشتد القتال وكثر القتلى، وشد جماعة من جيش الامام يريدون الجمل، ونادى الامام «ويحكم ارشقوا الجمل بالنبل، اعقروه لعنه الله، فرشق بالسهام فلم يبق منه موضع الا اصابه النبل»[1]، لكن الجمل كان قد درّع ليمنع النبل من الولوج داخل الهودج، فاصبح كأنه القنفذ لكثرة ما اصيب من النبال، وكانت الأزد وضبّة تحامي وتذود عنه وتنادي بثأر عثمان، يالثارات عثمان، فصار شعارهم، وكان اصحاب الامام ينادون، يامحمد يامحمد، واتخذوه شعاراً لهم، وتقاتل الفريقان قتالاً شديداً، وكثر القتلى والجرحى، وكانت الأيدي والأرجل تتطاير حتى امتلأت ساحة المعركة بها، الا أن اهل البصرة قد اصيبوا بخسائر كبيرة، كما اصيب جند الكوفة بخسائر ايضاً، فلما جاء العصر تواقف الفريقان.

قتال اليوم الثالث

ـ وقف الجيشان باكراً وجهاً لوجه، فبرز اول الناس من أهل الجمل، عبد الله بن الزبير ودعا الى المبارزة، فبرز اليه الأشتر، فقالت عائشة «من برز الى عبد الله، قالوا: الأشتر، فقالت، وا ثكل أسماء، فضرب كل منهما صاحبه فجرحه»[1]، ثم اعتنقا وهما يتصارعان فتمكن الأشتر منه، وجلس على صدره، فهرع الناس من الفريقين اليهما يستنقذانهما، وكان الأشتر صائما ثلاثة ايام، لم يذق الطعام، وكانت هذه عادته في الحرب، وكان شيخاً طاعن السن، ولما شاهد عبد الله القوم

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، مجلد ١، ص ٨٨ .

قادمين اليه صاح بهم: اقتلوني ومالكاً، وكان القوم يعرفون مالك بالأشتر، فلم يجيبوه، فافلت ابن الزبير من تحت الأشتر مثخناً بالجراح، قال الأشتر شعراً في ذلك الموقف:

أعايش لولا انني كنت طاوياً ثلاثا لألفيت ابن اختك هالكا
غداة ينادي والرجال تحوزه بأضعف صوت اقتلوني ومالكا
فلم يعرفوه اذ دعاهم وغمه حدب عليه في العجاجة باركا
فنجاه مني أكله وشبابه واني شيخ لم أكن متماسكا[1]

ــ خرج الحرث بن زهير الأزدي من اصحاب الامام الى الجمل وعليه رجل منهم كان يدافع عنه دفاعا شديداً، فيقتل كل من يقترب اليه، فتقدم اليه زهير وبيده سيفه، فاختلفا هو والرجل ضربتين حتى قتل احدهما الآخر، وخرج من معسكر الجمل فارس يعرف بخباب بن عمر الراسبي، فارتجز قائلا:

اضربهم ولو أرى عليا عمّمته ابيض مشرفيا اريح منه معشراً غويا[2]

فخرج اليه الأشتر فارداه قتيلاً، ثم خرج عبد الرحمن بن عتاب بن أُسيد بن ابي العاص بن امية وهو من اعيان قريش وارتجز قائلا:

أنا ابن عتاب وسيفي ولول والموت عند الجمل المجلل[3]

فشد عليه الأشتر فقتله، وخرج عبد الله بن حكيم وهو من اعيان قريش ايضاً، طالبا البراز فخرج له الأشتر وضربه على رأسه وصرعه، ثم قام فنجا بنفسه.

ــ أخذ بخطام الجمل سبعون رجلاً من قريس قتلوا كلهم، وكان كلما قتل من أهل الجمل جماعة محيطة به، تقدم آخرون يحلون محلهم، وعندما لاحظ الامام ان الجمل اصبح لواءا لاهله، وأنه مادام قائما فالحرب سوف تستمر، وضع سيفه على عاتقه واتجه نحوه وامر اصحابه ان يتبعوه، حتى وصل اليه وبنو ضبة من حوله، فقاتلهم قتالاً شديداً، وشق طريقه بين صفوفهم حتى اقترب من الجمل في جماعة من النخع وهمدان، وقال لرجل من النخع اسمه بحير «دونك الجمل يابحير»[4]، فضرب عجزه بسيفه، فوقع على الأرض، وعج عجيجاً عجيباً، لم

(١) و(٢) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، مجلد ١، ص ٨٨ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٨٧ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٨٩ .

يُسمع اشد منه، حتى صُرع الجمل، وفرّ من كان حوله من اصحابه، تاركين عائشة فوقه داخل هودجها، فحُملت الى دار عبد الله بن خلف، وأمر الامام ان يحرق، ثم يذرى في الريح، وقال «لعنه الله من دابة، فما اشبهه بعجل بني اسرائيل، ثم قرأ «وانظر الى الهك الذي ظَلْت عليه عاكفاً، لنحرقنه ثم ننسفنه في في اليم نسفا»[1]، وبذا انتهت معركة الجمل بانتصار الامام، ومقتل كل من الزبير وطلحة، عندها امر الامام منادياً، فنادى «الا لاتتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تدخلوا الدور»[2]، مظهراً اخلاق الفارس الأصيل، الذي تأنف نفسه اتيان ماتعافه النفس النبيلة، قُتل في هذا اليوم طلحة بن عبيد الله، قتله مروان بنْ الحكم، رماه بسهم، فجرحه جرحاً بليغاً، فمات بعد ان نزف نزفاً شديداً، «وكان الذي رمى طلحة مروان بن الحكم»[3]، وهرب «فاستجار بمالك بن سجع فاجاره ووفى له»[4]، ثم سار الى المدينة، قتل مروان طلحة نكاية به، بعد ان ايقن بان الحرب اوشكت على نهايتها، وان القوم خاسرون لامحالة، وربما اراد مروان ان يتخلص من منافس في الصراع المقبل بين الامام علي ومعاوية.

ـ كان عدد القتلى في معركة الجمل «عشرة آلاف نصفهم من اصحاب علي ونصفهم من اصحاب عائشة»[5]، وقيل «قتل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف، وقتل من أهل البصرة في المعركة الثانية خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة، ومن أهل الكوفة خمسة آلاف»[6]، ويبدو جليا، بان جيش اهل الجمل كان اكثر عدداً من جيش اهل الكوفة، وربما وصل عددهم الى اكثر من عشرين الفاً، ولم يزد جيش الامام عن اثني عشر الفاً.

☆ ☆ ☆

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، مجلد ١، ص ٨٩ .
(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مجلد ٣، ص ٢٥٤ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٤ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٩ .
(٥) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج٣، ص ٥٤٣ .
(٦) المصدر نفسه، ص ٥٤٣ .

استراتيجية الامام علي(ع) العسكرية في معركة الجمل

١ - كان الامام علي يرى في الاسراع بانهاء التمرد والفتنة التي اعلنها عليه اهل الجمل، القضية لأولى في سلم الأولويات لديه، وكان يرغب في ان يضع حدا لتمردهم قبل وصولهم الى البصرة، وفي ذلك يكون قد منعهم من الحصول على موطيء قدم وقاعدة، تمدهم بالأموال والرجال، وتقوي شوكتهم، كما ان تطور الأمور، في غير صالحه، ربما سيشجع بقية من تسول له نفسه التمرد في الاقطار الاسلامية الأخرى، خاصة وان الوضع في مصر لم يكن مستقراً تماماً، كما ان بقاء البصرة مدة طويلة بايدي المتمردين، كان سيشكل بحد ذاته تهديدات محتملة كثيرة، اولها انه سيضعه بين قوتين كبيرتين، الشام من الشمال الغربي والبصرة من اقصى جنوب العراق، خاصة وان معاوية كان قد كتب الى الزبير مخاطباً اياه بامير المؤمنين، فلو ان امر البصرة استمر لفترة طويلة، ربما شجع ذلك معاوية واهل الجمل على مهاجمة الكوفة، مركز الولاء الرئيسي للامام، والسيطرة عليها وحرمان الامام من قاعدة اساسية ورئيسية، لايمكن من دونها ان يستمر في مقارعة خصومه، ولو أن الكوفة سقطت بايدي الحلف المعادي، فانه يمكن مهاجمة مقره الحالي في المدينة، عندها لن يضمن عدم تمكن عدوه منه، لأن ميزان القوى سوف يكون في صالح اعدائه، فيما لو طال انتظاره في المدينة، التي لايمكن ان تؤمن له حاجاته من الرجال والأموال والعتاد، وقد يدفع القبائل المحيطة بالبصرة، استمرار سيطرة أهل الجمل عليها مدة طويلة، الى اعلان الولاء لهم، والخروج عن طاعته.

ـ لقد قدر الامام الموقف بدقة، لذا فانه سارع الى الحركة من المدينة خلف اهل الجمل، بقوات خيالة خفيفة وسريعة، وبقوة لاتزيد عن السبعمائة مقاتل، وكان هدفه ان يدركهم في الطريق، وهم لايزالون قليلي العدد والعدة، فينهي امرهم بسرعة، قبل ان يتوسع خطرهم ويعظم تهديدهم، وعندما لم يدركهم اضطر الى التوجه الى ذي قار، اذ قدر بانه لاطاقة له على ملاحقتهم بعد ان قاربوا الوصول الى البصرة، واصبحت قوتهم تزيد على مالديه من قوة اضعافاً، وكان مكوثه في ذي قار وعدم توجهه مباشرة الى الكوفة، يحمل نفس المعنى

ايضا، فلم يكن الامام يرغب في ان يقطع المسافة من ذي قار الى الكوفة مع جيشه، لانه بعد ان غادر الربذة، التحق به عدد من المقاتلين، فاصبح جيشه كبيراً بالنسبة الى عدده عندما تحرك من المدينة، وربما وصل تعداد جيشه في ذي قار عند مكوثه فيها الخمسة الاف، مقاتل مع احمالهم واثقالهم، وكان يأمل ان يختصر من الوقت اللازم لحركته الى البصرة، لأن تنقله الى الكوفة من ذي قار ثم عودته اليها متجهاً الى البصرة مع جيشه يحتاج الى وقت كبير نسبياً. لقد ظلت عملية كسب الوقت من اعظم الدروس في حرب الجمل، ولولا مماطلة ابي موسى الأشعري، وايغاله في تثبيط همم اهل الكوفة، والذي اخر حركة الامام الى البصرة حوالي (١٠) ايام، لامكن الوصول الى اهل الجمل قبل ان تقوى شوكتهم ويزداد عددهم وعدتهم باحتلالهم البصرة، لقد مكث الامام (١٥) يوماً في ذي قار، وكان يمكن له أن يمضي خمسة ايام فقط، هي الوقت الذي يتطلبه وصول رسوله من ذي قار الى الكوفة، والوقت الذي تستغرقه حركة القوة من الكوفة الى ذي قار.



معركة صفين

ـ ورد الامام علي الكوفة من البصرة، بعد فراغه من حرب الجمل، يوم الاثنين، الثاني عشر من رجب، سنة ست وثلاثين للهجرة، فلم تمض بضعة ايام حتى ارسل الامام قوة بقيادة مالك الأشتر الى الموصل، ونصيبين، ودارا[1]، وسنجار، وآمد[2]، وهيت وعانات، وماكان تحت سلطة الامام من تلك الأرض من الجزيرة، كانت الغاية من ارسال تلك القوة، الاستطلاع وجمع المعلومات عن العدو، واتجاهات الرأي العام للسكان، واية معلومات اخرى، وكان اهم مافي الأمر، اشعار من يعنيهم الأمر، الأصدقاء والأعداء، ان الامام مهتم ببسط نفوذه على أرض الخلافة في تلك الأنحاء، وان يده قادرة على الوصول الى المكان الذي يريد في الوقت الذي يريد، خاصة وان المنطقة التي جالها الأشتر تتاخم ارضاً ومدنا من الجزيرة يدين اهلها بالولاء لمعاوية، ويمكن مقارنة عمل تلك القوة بما يسمى اليوم «الاستطلاع بالقوة»، لأن الاستطلاع وجمع المعلومات، يمكن ان يتم بوسائل عديدة منها: استنطاق الاسرى، الكمائن القريبة من العدو، الجواسيس، وهي اساليب استخدمت في الحروب القديمة ايضاً، اضافة لما يمكن ان تقدمه الوسائل الحديثة من المعلومات، كالأقمار الصناعية، التنصت، وغيرها، والاستطلاع بالقوة، ويسمى ايضا الاستطلاع المسلح، يعني توجيه قوة مسلحة، واجبها جمع المعلومات عن العدو بالقوة، اي الاصطدام به، مما يؤدي الى اجباره على القيام برد فعل، يمكن ان يكشف نواياه، قوته، استعداداته للحرب.

ـ وكان معاوية، قد بعث هو الآخر قوة بقيادة الضحاك بن قيس، على مافي سلطانه من ارض الجزيرة، وكانت كل من حران[3] والرقة والرها[4] وقرقيسيا[5]،

---

(١) دارا: وهي بلدة في لحف جبل، بين نصيبين وما ردين، وهي من بلاد الجزيرة، ذات بساتين ومياه، تقع اليوم في تركيا، وعندها عسكر دارا بن دارا الملك بن قباذ الملك، لما لقي الاسكندر المقدوني، فقتله الاسكندر وتزوج ابنته، وسميت دارا باسمه [معجم البلدان، ياقوت، ج٢، ص ٤١٨، والمؤلف].

(٢) آمد: وهي أعظم مدن ديار بكر واشهرها، وهي بلد قريب من دجلة، [معجم البلدان، ياقوت، ج١، ص ٥٦]، تقع اليوم في تركيا «المؤلف».

(٣) حران: وهي مدينة مشهورة بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم [معجم البلدان، ياقوت، ج٢، ص ٢٣٥].

(٤) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، بينهما ستة فراسخ، [المصدر نفسه ، ج٣، ص ١٠٦].

(٥) قرقيسيا: بلدة على نهر الخابور، في مثلث بين الخابور والفرات، [المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٢٨].

تخضع له، وقد هرب اليها أغلب العثمانية الذين تركوا البصرة والكوفة، ولما سمع الضحاك بوصول مالك الأشتر الى ارض الجزيرة، بعث الى اهل الرقة كي يمدوه، ففعلوا، وكان جل أهلها من العثمانية، فجاء اليه المدد يقودهم سماك بن مخرمة[1]، توجه الضحاك الى حران يريد لقاء الأشتر، فالتقى الضحاك وسماك بن مخرمة بمرج مرينا، بين حران والرقة، وتقدم الأشتر اليهما في نفس الموقع، (مرج مرينا)، فنشب بينهما قتال شديد، حتى جاء الليل، ولما وجد الضحاك بانه لايستطيع ان يصمد امام قوة الأشتر، انسحب الى حصن حران وتحصن فيه، ولما اصبح الأشتر وجدهم قد انسحبوا، فطاردهم الى حران وحاصرهم فيها.

ـ ولما وصل الخبر الى معاوية بان الضحاك محاصر في حران من قبل الأشتر، بعث اليه قوة خيالة كبيرة بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، كي يفك عنهم الحصار وينجدهم، فلما بلغ الأشتر ذلك، قرر ان يخوض المعركة مع الضحاك بسرعة، قبل ان تصل قوات عبد الرحمن بن خالد اليه، فيختل التوازن بين قواته وقوات عدوه، فعبأ قواته ووزعها، وقد أخذت شكل الانفتاح للمعركة، نادى الأشتر على الضحاك وهو في حصن حران: «ألا ان الحي عزيز، الا ان الذمار منيع، الا تنزلون ايها الثعالب الرواغة؟، احتجرتم احتجار الضِباب»[2]، فلم ينزلوا له ويئس منهم، فمضى حتى سار على اهل الرقة فتحرزوا منه، ثم توجه الى اهل قرقيسيا ففعلوا كذلك، توجه بعدها قافلاً الى الكوفة، ولما بلغ عبد الرحمن بن خالد انصراف الاشتر عاد الى الشام، وتلك المناوشات التي حدثت بين مالك والضحاك كانت اول المعارك بين اهل الكوفة والشام، كان لاختراق الأشتر ارض الشام تاثير كبير على اهلها، خاصة المناطق التي اجتازها، حيث ظلوا يتذكرون سطوته وقوته، وعندما عاد اليهم مع جيش الامام، عندما وصل الرقة، خافوه فنفذوا ماطلب منهم.

ـ انتظر الامام مدة سبعة عشر شهراً في الكوفة قبل ان يتوجه الى صفين، انجز خلالها اعمالاً مهمة عديدة اهمها:

١ - الاستعداد للحرب وجمع القوات في الكوفة.

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٢ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣ .

٢ - مكاتبة معاوية وعمر بن العاص، محاولاً ان يثنيهما عن اشاعة الفتنة، وتفريق الامة، ويلقي عليهم اثم ماسيترتب عن عصيانهم وتمردهم على الخلافة، وكان ينصح لهم تارة ويتوعد تارة أخرى، ويرسل الرسل في كتب اليهم يحاججهم ويعذرهم.

٣ - ترتيب الوضع النفسي والمعنوي لمآزريه وأنصاره، ومعاتبة الذين لم يلحقوا به في البصرة من أهل الكوفة.

٤ - تأميره الولاة على الأمصار الاسلامية.

٥ - تقسيم الجيش وتأمير القادة.

وسنتحدث باختصار عن مافعله الامام في الكوفة وما انجزه فيها.

الاستعداد للحرب

ـ كتب الامام كتباً عديدة الى ولاته، او ولاة الخليفة عثمان، ممن كان يرتجي منهم أن يجيبوا دعوته، بالنهوض الى الكوفة، وجمع المقاتلة والتوجه بهم اليه استعداداً للحركة الى صفين، فقد كتب الى جرير بن عبد الله البجلي، وكان والياً لعثمان على ثغر همدان[١]، فاجابه جرير بانه يبايعه حفاظاً على وحدة الأمة «الا وان البقاء في الجماعة، والفناء في الفرقة، وعليٌ حاملكم على الحق ما استقمتم، فان ملتم اقام ميلكم»[٢]، هذا ماخطب به قومه، وتوجه الى الكوفة ملتحقاً بالامام مبايعاً له.

ـ ثم بعث الى الاشعث بن قيس الكندي كتاباً، وكان الأشعث واليا لعثمان على اذربيجان، وقد كان عمرو بن عثمان قد تزوج ابنة الأشعث، والأشعث كان في الجاهليه ملكاً، وذا سلطان كبير على قومه كندة وبين العرب كلها، فلما قرأ كتاب الامام، خطب في قومه مظهراً الولاء للخليفة الجديد، لكنه عندما ذهب الى منزله قال لأصحابه: «ان كتاب علي قد اوحشني، وهو آخذ بمال اذربيجان، وأنا لاحق بمعاوية، فقال القوم: الموت خير لك من ذلك»[٣]، فخجل ان يلتحق بمعاوية فسار مع قومه ملتحقا بالامام في الكوفة.

---

(١) و(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٥ و٢٠ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٢١ .

ـ ولما سمع اشراف العرب وسادتهم قدوم الامام على الكوفة، قدموا عليه يبايعونه، وكانت قبائلهم ليست معهم، بل تخلفت عنهم في البصرة، وكان من بينهم الأحنف بن قيس رأس تميم، وجارية بن قدامة، وحارثة بن بدر، وزيد بن جبلة، وأعين بن ضبة، وعظيم الناس وأكثرهم بنو تميم، وبعد ان تداول الامام مع اشراف القوم واعيانهم الأمر، طلب الى الأحنف بن قيس ان يكتب الى قومه بني سعد من تميم كي يقدموا من البصرة، فكتب اليهم، فما ان وصلهم كتاب رئيسهم حتى نزلوا الكوفة «فعزّت بالكوفة وكثرت، ثم قدمت عليهم ربيعة»[1].

ـ وكتب الامام الى عامله مخنف بن سليم واليه على اصبهان وهمدان، يأمره بالالتحاق به في الكوفة بمن معه من المقاتلة، فلما وصل كتابه اليه، اقبل الى الكوفة وشهد صفين معه.

ـ وما كاد الامام يبرح النخيلة منطقة تحشد قواته، حتى وصلها عبد الله بن عباس واليه على البصرة، بعد ان كتب له كتاباً بهذا الشأن، اقبل ابن عباس بعد ان استعمل على البصرة، ابا الأسود الدؤلي، وخرج معه قوم كثير ومعه رؤوس الأخماس[2] «خالد بن معمر السدوسي على بكر بن وائل، وعمر بن مرجوم العبدي على عبد القيس، وصبرة بن شيحان الأزدي على الأزد، والأحنف بن قيس على تميم وضبة الرباب، وشريك بن الأعور الحارثي على أهل العالية»[3]، وكان ان امتلأت الكوفة بالعابرين الى النخيلة من المقاتلين والأحمال والأثقال وعُدد القتال، وكان الامام قد اصدر امراً الى قواته ان تتوجه الى النخيلة وتعسكر هناك، بانتظار الحركة واستعداداً لها، وربما كان يرغب ايضاً ان يجنب العاصمة كثرة الزحام، الذي يؤدي الى حدوث ازمات، في الزاد والمأوى، وغيرها من مظاهر قد تخل بالانضباط العام.

ـ وقد وردت ارقام مختلفة في عدد الجيش الذي سار به الامام الى صفين، فنصر بن مزاحم يذكر في صفحة (١٥٦) من كتابه «وقعة صفين» بان الامام استعمل على مقدمته مالك الأشتر بن الحارث النُخعي، وسار هو في خمسين

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٢٧ .

(٢) الخميس: قوة من المقاتلين تتراوح مابين أربعة آلاف الى ١٢ الف مقاتل [الادارة العسكرية في حروب الرسول(ص)، العميد الركن الدكتور محمد ضاهر وتر، ص ٤٨].

(٣) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١١٧ .

ومائة الف من أهل العراق، بينما كانت المقدمة تتألف من اربعة الاف «من متبصري اهل العراق»[1]، يقودهم الأشتر، عندما عبروا الفرات الى صفين، فيكون عدد الجيش (١٥٤) الفاً من المقاتلين، ثم يعود في الصفحة (١٥٧) فيذكر بانهم مائة الف او يزيدون، وذلك عندما عين الامام معسكراً له في صفين، حيث وضعت الأحمال والأثقال التي كانت مع الجيش، وهذا يعني بان قوة الجيش ليست أكثر من (١٠٠) الف بكثير، وربما لم يكن يتجاوز المائة وعشرة الاف مقاتل، وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير، قال الامام شعراً مهدداً به عمر بن العاص، وقد ورد فيه ان عدد الجيش الذي سيقوده الى الشام سبعين الفا:

لاصبحن العاصي ابن العاصي سبعين الفا عاقدي النواصي[2].

والاحتجاج بانهم سبعين ضعيف لكثرة استعماله في المبالغات.

ــ ويذكر عبد الفتاح عبد المقصود في كتابه الامام علي بن أبي طالب، المجلد الثاني الجزء الرابع، صفحة ١٣٢ مايلي عن عدد جنود الامام وهو يصف مسيره الى صفين: «وخطت به الدابة تخوض، يتبعها جنده الأباة من كل فارس وراجل، فرقة وراء فرقة، وقبيلٌ اثر قبيل، قرابة خمسين الفاً، تأثروا خطاه في مسيره، يسلمهم الفرات الى دجلة»، ولم يذكر المؤلف المصدر الذي استقى منه تلك المعلومات، الا ان نصر بن مزاحم في كتابه المذكور يذكر بان جيش الامام كان مائة وخمسين الفاً، «وسار علي في خمسين ومائة الف من اهل العراق»[3]، كما ذكر في مكان آخر «وكان اهل الشام من أهل العراق بالضعف»[4].

المكاتبة

ــ كتب الامام كثيراً الى معاوية وعمر بن العاص، وارسل لهم الرسل، على أمل ان يقنعهم بالعودة الى الطاعة ونبذ الفتنة، فكانوا يزدادون عناداً، كلما وصلهم من الأمام كتاب، وكانت اجاباتهم له لاتخفي الحقد والضغينة والتمرد فقد ارسل الامام جرير بن عبد الله البجلي الى معاوية في كتاب له، ومكث عنده

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣، ص ٢٧٩ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٦ .
(٣) معركة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٥٦ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٦ .

مدة تقارب الثلاثة شهور، دون ان يحصل منه على جواب، وكان معاوية يلهيه كسباً للوقت، حيث كان يخطط هو للمجابهة في كل الاتجاهات، بعد ان جمع أهل الشام، وحصل منهم على البيعة له تأراً للخليفة عثمان، وبعد ان اطمأن الى وضعه في الشام، وحصل على تأييد القوم فيها، قال لجرير:

«ياجرير الحق بصاحبك، وكتب اليه بالحرب»[1].

ـ ثم ارسل الامام كتاباً آخر الي معاوية يحذره فيه من موقفه هذا، فما كان منه الا أن بعث كتاباً الى الامام مليئاً بالسب والاهانة كقوله له بانه انما اجبر على البيعة للخلفاء قبله «وفي ابطائك عن الخلفاء، تقاد الى كل منهم كما يقاد الفحل المخشوش»[2]، [والمخشوش الذي جعل في عظم انفه الخشاش، وهو عود يجعل في انف البعير يشد به الزمام ليكون اسرع في القيادة]، فاجابه الامام بكتاب طويل تمتليء سطوره بالنُبل والأدب الجمّ، مذكراً اياه فيه موقع بني هاشم من الاسلام وفضلهم فيه وبلاءهم من أجله، وجهادهم في سبيله، في الوقت الذي كانت فيه العرب وقريش خاصة ترفع راية العداء والحصار لهم وللدين الذي حمله النبي الكريم، ولم يكن له الا اهله والقلة من اصحابه، وذكّره بأن ابا سفيان كان قد جاء الى الامام بعد وفاة ابي بكر، عارضاً ان يبايعه «فأبوك كان اعرف بحقي منك، فان تعرف من حقي ماكان ابوك يعرف، تصب رشدك، وان لم تفعل، فسيغني الله عنك»[3].

ـ ومن المفيد ان نذكر جانباً من رسالة الامام تلك الى معاوية كي نقف على خلق الامام في المخاطبة والمحاجة مع أكثر الناس عداء له «وذكرتَ ان الله اجتبى له من المسلمين - يقصد الرسول الكريم - اعواناً ايده الله بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الاسلام، فكان افضلهم - زعمتَ - في الاسلام، وانصحهم لله ورسوله الخليفة، وخليفة الخليفة، ولعمري ان مكانهما من الاسلام لعظيم، وان المصاب بهما لجرح في الاسلام شديد، رحمهما الله وجزاهما باحسن الجزاء، وذكرتَ ان عثمان كان في الفضل ثالثاً، فان يكن عثمان محسناً فسيجزيه الله باحسانه، وان يكن مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً لايتعاظمه

(١) و(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٨٧ و ص ٩١ .
(٣) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٩١ .

ذنب، ان يغفره، ولعمر الله اني لأرجو اذا اعطى الله الناس على قدر فضائلهم في الاسلام ونصيحتهم لله ورسوله ان يكون نصيبنا الأوفر، ان محمداً صلى الله عليه وسلم لـمّا دعا الى الايمان بالله والتوحيد كنا - أهل البيت - اول من آمن به، وصدق بما جاء به، فلبثنا احوالاً مجرمة، وما يَعبُد اللهَ في ربع ساكن من العرب غيرنا، فاراد قومنا قتل نبينا، واجتياح اصلنا، وهموا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل، فمنعونا الميرة، وامسكوا عنا العَذْب، وأحلسونا الخوف، وجعلوا علينا الأرصاد والعيون، واضطرونا الى جبل وعر، واوقدوا لنا نار الحرب، وكتبوا علينا بينهم كتاباً لايواكلونا ولا يشاربونا ولا يناكحونا ولا يبايعونا، ولانأمن فيهم حتى ندفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقتلوه ويمثلوا به»[1]، الى ان يقول له «واما ماذكرت من أمر عثمان وقطيعتي رحمَه، وتأليبي عليه، فان عثمان عمل ماقد بلغك، فصنع الناس به ما قد رأيت وقد علمت، اني كنت في عزلة عنه، الا ان تتجنى، فتجنَّ مابدا لك، واما ماذكرت من أمر قَتَلَة عثمان فاني نظرت في هذا الأمر وضربت انفه وعينيه فلم أر دفعهم اليك ولا الى غيرك»[2].

ـ ثم كتب اليه مرة أخرى كتاباً، ينصحه فيه ويذكره بان ليس له حق في الولاية، وانه ادعى امراً ليس اهله، فمعاوية ليس له قِدم في الاسلام، وليس له عهد من رسول الله، وختمه «ولا تمكّن الشيطان من بغيته فيك»[3]، الا أن معاوية ظل راكباً رأسه، فيجيب الامامَ بالطريقة نفسها المليئة بالقذف والتجبر «ولعمري مامظي لك من السابقات لشبيه ان يكون ممحوقاً، لما اجترأت عليه من سفك الدماء، وخلاف أهل الحق، فاقرأ سورة الفلق، وتعوذ بالله من شر نفسك، فانك الحاسد اذا حسد»[4].

ـ ثم كتب الى عمر بن العاص، ينصحه ويذكره ان الدنيا زائلة وزائفة «والسعيد من وُعظ بغيره، فلا تحبِط اجرك، ابا عبد الله، ولا تجارين معاوية في باطله، فان معاوية غَمَص الناس وسفه الحق»[5]. فاجاب عمر بن العاص الامام

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٨٩ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٩١ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٩ .
(٤) المصدر نفسه، ص ١١٠ .
(٥) المصدر نفسه، ص ١١١، وغمص الناس احتقرهم، ولم يرهم شيئاً، وسفه الحق، مختلف في تأويله.

«اما بعد فان الذي فيه صلاحنا وألفة ذات بيننا ان تُنيب الى الحق. وان نُجيب الى ماتدعون اليه من شورى»[1]، وهو يتضمن عدم اقراره بيعة الامام والاعتراف بالخلافة الجديدة. ووصل كتاب عمر بن العاص الى الامام علي، قبل ان يرتحل من النخيلة بقليل.

ـ عند وصول الامام الى ارض الرقة، اقترح عليه بعض اصحابه ان يكتب الى معاوية وأهل الشام، يأمرهم بترك ماهم فيه من الخطأ والعصيان، فكتب لمعاوية «واني ادعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه، وحقن دماء هذه الأمة، فان قبلتم اصبتم رشدكم، واهتديتم لحظكم، وان ابيتم الا الفرقة وشق عصا هذه الأمة، فلن تزدادوا من الله الا بعداً، ولن يزداد الرب عليكم الا سخطاً، والسلام»[2]، فاجاب معاوية الامامَ ببيت شعر واحد فقط يقول فيه بانه ليس بينه وبين الامام عتاب، وان الحرب هي التي تفصل بينهم

ليس بيني وبين قيس عتاب   غير طعن الكلى وضرب الرقاب[3]

ـ ان موقف الامام بضرورة عزل معاوية عن ولاية الشام كان امراً يعود الى الخليفة، وحقاً من حقوقه، يتوجب على المسلمين اطاعته وانفاذه، الم يعزل الخليفة عمر بن الخطاب خالد بن الوليد عن قيادة الجيش الاسلامي في الشام بعد تسلمه الخلافة بعد ابي بكر مباشرة، وخالد بن الوليد قد ارتكب اموراً كان لايرضاها، والامام كان يرى في معاوية نواقص كثيرة تمنع، أن يكون واليا على احد الامصار الاسلامية الهامة، فكان قراره بعزله ينسجم والتوجهات التي بدأ في تنفيذها حال استلامه لمسؤولية الخلافة الاسلامية.

تهيئة الوضع النفسي

ـ عندما وصل الامام الى ذي قار قادماً من المدينة، في طريقه الى البصرة لمحاربة طلحة والزبير، ارسل الى اهل الكوفة رسلاً كثيرة، ولده الحسن وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عباس ومالك الأشتر، وعدي بن حاتم، وانتظر لمدة (١٥) يوماً هناك على أمل وصول انصاره وجنده من الكوفة، لكن ابا موسى الأشعري، كان

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١١١ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥١ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٥١ .

يحبط الهمم، ويدعو الناس الى التزام بيوتهم وعدم تلبية دعوة الامام، وقد تحدثنا عن ذلك مفصلا في معركة الجمل، وقد ترك ذلك اثراً سيئاً في بعض أهل الكوفة، فقد تخلف عن الامام بعض وجوه المدينة ورؤساؤها، وقد ساء ذلك الامام، لذلك فانه حال وصوله الى الكوفة، ادرك ان وجود من لم يلبِّ دعوته المسير اليه في ذي قار، على وضعهم، ربما يترك اثراً نفسياً سيئاً على المقاتلين وعشائر واقارب هؤلاء، لذا فانه قام بنفسه بتصحيح الأوضاع، وفي اول خطبة له عند وصوله الكوفة، نوّه الى الذين لم ينصروه في حرب الجمل وعتب عليهم: «الا أنه قد قعد عن نصرتي منكم رجال، فانا عليهم عاتب زارٍ، فاهجروهم وأسمعوهم مايكرهون. حتى يعتبوا ليُعرف بذلك حزب الله عند الفرقة»[1]، وعندما قام مالك بن حبيب اليربوعي، وكان صاحب شرطة الامام في الكوفة، مخاطباً الامام حول ضرورة قتل من تخلف، وانّ هَجْرهم وإسماعهم ما لايحبون ليس كافياً لردعهم، اجابه الامام بان الله لم يقض بذلك، وان الاسراف في القتل قد نهى الله عنه. لم يكن الامام يائساً من كل الذين لم يلتحقوا به من أهل الكوفة، فان من بينهم مَن هم أكثر الناس موالاة وتأييداً له، وكان من بين هؤلاء سليمان بن صَرَد الخزاعي وابو بردة الأزدي، وسعيد بن قيس، وهؤلاء من اعيان ووجوه العرب وسادة القبائل في الكوفة، وقد افلح الامام بالحفاظ على الوحدة بين أهل الكوفة، الا نفراً قليلاً من المتخلفين الذين كانوا يضمرون العداوة للامام، التحقوا بمعاوية عندما سنحت لهم الفرصة لاحقاً، وكان من بين الذين قبلوا عتاب الامام لهم المجاهد سليمان بن صرد الذي تخلف عن حرب البصرة، ثم التحق مع الامام في حرب صفين، والذي قاد حركة التوابين في الكوفة، بعد مقتل الامام الحسين، وقُتل على يد عبيد الله بن زياد هو وثلّة من المؤمنين، في معركة غير متكافئة بين مجموعة قليلة ممن عاهدوه على الموت، وجيش من الشام كان يفوقهم اضعافاً عدداً وعدة يقودهم عبيد الله بن زياد.

تأميره الولاة

ــ وكان من بين الأعمال الهامة التي انجزها الامام، تعيينه الولاة على الأمصار

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٤ .

الخاضعة له، والتي لم يؤمّر عليها عندما كان في المدينة، كي ينصرف الى معالجة الوضع في الشام، بعد ان يؤمن سيطرته على البلاد الاسلامية الأخرى، كي يجعلها عمقاً له في صراعه المقبل، تمده بالرجال والمال وما تحتاجه الحرب، فقد بعث يزيد بن قيس الأرحبي على المدائن وجوخا[1] كلها، «وبعث مخنف بن سليم على اصبهان وهمدان»[2]، وقرظة بن كعب على البهقباذات[3]، وقدامة بن مظعون الأزدي على كسكر[4]، وعدي بن الحارث على مدينة بهرسير واستانها[5]، وحسان البكري على استان العالي[6]، وسعد بن مسعود الثقفي عم المختار الثقفي على استان الزوابي[7]، واستعمل ربعي بن كاس على سجستان، وهو من بني تميم، وبعث خليداً الى خراسان «فسار خليد حتى اذا دنا من نيسابور بلغه ان اهل خراسان قد كفروا ونزعوا يدهم من الطاعة، وقدم عليهم عمال كسرى من كابل، فقاتل أهل نيسابور فهزمهم وحصر اهلها، وبعث الى علي بالفتح والسبي، ثم صمد لبنات كسرى فنزلن على امان، فبعث بهن الى علي عليه السلام»[8]، وكان الامام قد عين بعض الولاة على امصار اخرى من الدولة الاسلامية وهو في المدينة، فبعث عبيد الله بن العباس على اليمن، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر وجعل القثم بن العباس على مكة، وسهل بن حنيف على المدينة، فاستتب له امر الخلافة في كل الأمصار الاسلامية على امتدادها، باستثناء الشام.

تقسيم الجيش وتأمير القادة

ــ وفي الكوفة ايضاً قسّم الجيش، حسب القبائل، وعين عليهم القاده، اضافة

(١) جوخا: اسم نهر وكورة قريب من بغداد [معجم البلدان، ياقوت، ج٢، ص ١٧٨].
(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٣ .
(٣) البهقباذات، ثلاث نواحي ببغداد منسوبة الى قباذين فيوز والد انوشيروان [المصدر نفسه، ص ١١].
(٤) كسكر: تقع في الوسط بين الكوفة والبصرة، [معجم البلدان، ياقوت، ج٤، ص ٤٦١].
(٥) بهرسير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن، غربي دجلة باتجاه الايوان، [نفس المصدر، ج١، ص ٥١٦]. «الايوان»: ايوان كسرى [المؤلف].
(٦) استان العالي: كورة من غربي بغداد من السواد، تشتمل على اربعة طساميج: الانبار، بادروبا، وقصر بل ومسكن. [نصر ابن مزاحم، ص ١١].
(٧) استان الزوابي، في العراق اربعة انهار، نهران فوق بغداد، ونهران تحتها، يقال لكل واحد منهما زاب [المصدر نفسه، ص ١١] .
(٨) المصدر نفسه، ص ١٩ .

لأهل البصرة الذين قدموا عليه مع عبد الله بن عباس، وبذا تكون هيكلية الجيش، ومنها القوة التي ارسلها من المدائن بقيادة معقل بن قيس الرياحي، قد اصبحت واضحة، فقد أمّر قبائل الكوفة لكل من: سعد بن مسعود الثقفي على قيس وعبد القيس، ومعقل بن قيس الرياحي على تميم وضبة الرباب، وقريش وكنانة وأسد، ومخنف بن سليم على الأزد وبجيلة وخثعم الأنصار وخزاعة، وحجر بن عدي الكندي على كندة وحضرموت وقضاعة ومهرة، وزياد بن النضر على مذحج والأشعريين، وسعيد بن قيس بن مرة الهمداني على همدان ومن معهم من حِميَر، وعدي بن حاتم على طيء، ويجمعهم الدعوة مع مذحج، وتختلف الرايتان، راية مذحج مع زياد بن النضر، وراية طيء مع عدي بن حاتم[1].



(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١١٨ .

حركة قوات الامام من الكوفة الى صفين (انظر الخارطة)(*):

ـ قبل ان يتحرك الامام الى النخيلة، اخرج قوة المقدمة بقيادة زياد بن النضر وشريح بن هانىء، وبعثهما في اثني عشر الفا، زياد بن النضر على (٨) الاف منهم، وشريح بن هانىء على اربعة، وأمرهم ان يلزموا الجانب الغربي من نهر الفرات، كقوة مقدمة لجيشه القاصد الى صفين، وزودهم بوصايا عامة للعمل، ووضح لهم درجة القيادة، علاقة كل قوة بالأخرى، وقد شرحنا ذلك في مواضع سابقة مختلفة.

ـ ويمكن تصور النخيلة، منطقة تحشد القوات، قبل حركة الامام منها، بانها حينئذٍ تعج عجيجها بمن حملت وحَوَت، ومنافذ الكوفة اليها تمتلىء بالجند، والدروب الطويلة المؤدية الى الفضاء الفسيح الذي ينساب في اديمه الناعم الفرات انسياب الثعبان، للنجائب رغاء، وللخيول صهيل يملأ السماء، وللأسنة صليل، والصدور التي تتوق للقاء ربها، شهيقها دعاء وزفيرها تكبير، والصحراء المحتدة تواجه السيل، من الرجال الذي يرتدون ازياء الحرب، والاثقال والأحمال، تترك خلف مسيرها غباراً يتصاعد الى الأعالي، يملأ القلوب رهبة وخشوعاً، وهنا اعادت القوة ترتيبها للمسير، فألفت الكتائب، وانتظمت الأخماس، ثم عقدت الألوية، ونادى المنادي استعداداً للرحيل، والبدء بالمسير، وكان العام في ربعه الأخير، والشتاء يوشك ان يلفظ انفاسه، ونسمات الهواء العليل تعلن مقدم الربيع، والسماء صافية، وارسلت الشمس اشعتها على الكون، تزيد المتأهبين اشراقاً وزهواً، وكان الطقس لطيفاً معتدلاً، وربما استعرض الامام قواته وهي في منطقة تحشدها، فقد كانت العادة قديماً ان يتم استعراض القوات قبل حركتها الى ارض المعركة، تشجيعاً لها، واظهاراً وابرازاً لقوتها ومضاء اسلحتها وهيبة فرسانها وسطوتهم، وتأكيد العزم في قلوبهم وتعميق اصرارهم على المضي الى الارض التي سيحوزون فيها على المجد والنصر.

تحرك الامام من النخيلة يوم الأربعاء الخامس من شوال سنة ٣٦هـ بعد ان ترك الكوفة وأمّر عليها عقبة بن عمر الأنصاري، ارسل على دابته، وقبل ان يضع

(*) الخرائط الواردة في الكتاب من وضع المؤلف

قدمه في ركابها قال «بسم الله، فلما جلس على ظهرها قال: سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وانا الى ربنا لمنقلبون»، ثم قال: اللهم اني اعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحيرة بعد اليقين، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد، اللهم انت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، لايجمعها غيرك لأن المستخلف لايكون مستصحباً، والمستصحب لايكون مستخلفاً»[١]، وقبل ان يخرج صلى ركعتين، ثم سار وخرج امامه الحر بن سهم بن طريف الربعي (ربيعة تميم) وهو يقول[٢]:

يافرسي سيري وامّي الشاما	وقطعـي الحزون والأعلاما
ونابذي من خالف الاماما	اني لأرجو ان لقينا العاما
جمع بني اميّة الطغاما	ان نقتل العاصي والهماما

وان نزيل من رجال الهاما

ـ سار الامام حتى وصل الى دير ابي موسى، وهو من الكوفة على فرسخين فصلى بها العصر، ثم وصل الى شاطىء نرس[٣]، بين موضع حمام ابي بردة وحمام عمر، فصلى بالناس المغرب.

ـ ثم واصل سيره حتى وصل الى قبة قبين[٤]، وفيها بساتين نخيلها طوال تقع على النهر نفسه، اقحم دابته النهر وعبر الى تلك البيعة، ثم تحرك فعبر نهر الفرات شرقاً الى بابل، والتي لم يكن الامام يرغب ان يمكث فيها، لأن اهلها قد خسف الله بهم، فحرك دابته مسرعاً حتى اجتاز نهراً صغيراً ووصل الصراة[٥]، فنزل بها مصلياً العصر، ثم تحرك الى ساباط[٦]، متجهاً الى غرب نهر دجلة، فبات فيها، ثم اصبح حتى وصل مظلم ساباط[٧]، ثم ارسل الامام الحارث بن الأعور الى اهل المدائن التي تقع على الجانب الشرقي من دجلة، مقابل ساباط، كي يلتحقوا به، فخلّف عليهم عدي بن حاتم، مكث عندهم ثلاثة ايام، خرج بعدها

(١)وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٣٣ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣ .

(٣) نرس: نهر حفره نرسي بن بهرام بنواحي الكوفة مأخذه من الفرات [المصدر نفسه، ص ١٣٤].

(٤) قبة قبين: اسم نهر وولاية في العراق اطراف الكوفة، [معجم البلدان، ياقوت، ج٤، ص ٣٠٩].

(٥) الصراة: نهر يأخذ من نهر عيسى من بلدة يقال لها المحول، بينها وبين بغداد فرسخ وهو نهر من انهار الفرات، [وقعة صفين، نصر ابن مزاحم، ص ١٣٥].

(٦) ساباط: بلدة في المدائن معروفة تقع غرب دجلة والمدائن شرقها [المصدر نفسه، ص ١٣٦].

(٧) مظلم ساباط، مضاف الى ساباط التي قرب المدائن، [المصدر نفسه، ص ١٣٦].

يصحبه ثمانمائة مقاتل، وترك ابنه يزيد عليهم، حيث لحقه في اربعمائة رجل، والتحق مع الامام بالف ومائتي مقاتل، واصل الامام سيره في مظلم ساباط، متجهاً الى مدينة بهر سير، قرب بغداد.

- عند وصول الامام الى المدائن بعث معقل بن قيس الرياحي، في ثلاثة الاف مقاتل، وأمره ان يسير الى الموصل ثم نصيبين، على ان يلتقي معه في الرقة، وقد زوده بوصايا عمل تعمل القوة على ضوئها، «خذ على الموصل، ثم نصيبين، ثم القني بالرقة، فاني موافيها، وسكن الناس وأمنهم، ولا تقاتل الا من قاتلك، وسر البردين، وغور الناس، واقم الليل، ورفه في السير، ولا تسر في الليل، فان الله جعله سكناً، أرح فيك[1] بدنك وجندك وظهرك، فاذا كان السحر او حين ينبطح الفجر فسر»[2]، فخرج حتى وصل الحديثة، وقد كانت في ذلك الوقت منزل الناس، ثم اكمل سيره حتى التقى الامام في الرقة.

ـ واصل الامام سيره منعطفاً نحو الغرب، منتقلاً من شواطىء دجلة الغربية، محاذياً شواطىء الفرات الشرقية، حتى وصل الأنبار، حيث كان جلّ اهلها يومئذ من الفرس، حيث اصبحت الجزيرة على اتساعها امامه، فولج فيها، حيث تسكن قبيلتا بني تغلب وبني النمر، وكان بنو تغلب قد بلغ الامام عنهم بانهم خالفوا العهد الذي عهدوه في الفتح، وكان الامام يتوعدهم، فلما دخل بلادهم، استقبله منهم مسلمون كثيرون، فسرّه مارأى، وعفى عنهم.

ـ ثم سار الامام بمحاذاة شواطىء الفرات الشرقية، ماراً بهيت وحديثه، ثم عانات، ثم قرقيسيا، ثم الرقة، وكان «جل اهلها الذين فروا من الكوفة برأيهم واهوائهم الى معاوية، فاقفلوا ابوابها وتحصنوا فيها، وكان اميرهم سماك بن مخرمة الأسدي في طاعة معاوية، وقد فارق علياً في نحو مائة رجل من بني اسد، ثم أخذ يكاتب قومه حتى لحق به منهم سبعمائة رجل»[3]، وسماك هذا كان قد قاتل مع الضحاك مالكاً الأشتر يوم ارسله الامام بقوة استطلاع على نفس المحور، عند قدومه الى الكوفة، اراد الامام ان يعبر من الرقة الى غرب الفرات حيث ارض صفين، فامر اهل الرقة ان يجسروا له جسراً، كي يعبر منه، لكنهم

(١) هكذا في وقعة صفين، ويبدو لي الصواب (فيه).
(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٤٨ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦ .

أبوا عليه ذلك وابعدوا سفنهم عن نظره، مما اضطره الى تركهم والتوجه الى منبج[1]، وهنا يظهر الامام علي خلقاً قل نظيره، فأهل الرقة كانوا قد قاتلوا جيشه، وهاهم الآن يتمردون عليه، فيمنعون عنه سفنهم، ويعرقلون حركته وجهده، الا انه لم يعاقبهم، بل تجاوزهم وترك عليهم الأشتر، فناداهم: «يا أهل هذا الحصن اني اقسم بالله لئن مضى امير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها، لأجردن فيكم السيف، ولاقتلن مقاتلتكم، ولأخربن ارضكم، ولآخذن اموالكم»[2]، فلما تناهى الى اسماعهم ماقاله الأشتر، قالوا: ان الأشتر يفي بما يقول، فدعونا نجسر لهم جسراً يعبرون منه، فنصبوا الجسر، وبعث الأشتر على الامام ان يقدم ويعبر من الرقة، فعاد الامام وعبرت الأثقال والرجال، وامر الأشتر أن يؤمن الحماية للجسر ومعه ثلاثة الاف مقاتل، حتى عبرت القوة كلها، وكان الأشتر آخر من عبر من الناس راجلاً، ويشير عبد الفتاح عبد المقصود في كتابة الامام علي بن ابي طالب، بان الامام ترك قوة ثابتة لحماية الجسر، وهذا امر منطقي، لأن عليه ان يؤمن طريق العراق سالكاً في كل الأوقات.

ـ بعد أن عبر الامام نهر الفرات، دعا زياد بن النضر وشريح بن هانيء، قادة مقدمة قواته، اللذين التحقا به بالقرب من قرقيسيا، وأمرهما بالتقدم نحو صفين امامه، وكانت القوة لم تزل في حالة انفتاح، وكان طريقها عندما تقدمت من الكوفة محاذياً للحافات الغربية لنهر الفرات، فلما كادا أن يصلا الى عانات وصلهما خبر قدوم جيش معاوية من دمشق لملاقاة الامام، فكان رأيهما أن يعبرا الى شرق النهر، واللحاق بالقسم الأكبر من قوات الامام، لانهما ادركا بانه ليس عملياً ان يكون بينهما وبين قوات الامام مانعاً مائياً كبيراً، وهم بعيدون عن الامام، وفي حالة تقدمهم الى صفين، فربما اصطدموا بقوات القسم الأكبر لمعاوية، قبل ان يصلا الى الامام، فليس باستطاعتهم مواجهة جيش الشام بالقوة التي كانت معهما - اثنا عشر الف مقاتل - ولم يأملا ان تصلهما قوات تعزيز أخرى من جيش الامام، فتوجها الى عانات للعبور منها، فمنعهم اهلها وحبسوا عنهم

---

(١) منبج: مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وارزاق واسعة في فضاء من الأرض بينها وبين الفرات ٣ فراسخ، منها الى الفرات يوم واحد، والى حلب ٤ ايام، [معجم البلدان، ياقوت، ج٥، ص ٢٠٦].

(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص

السفن، مما اضطرهم الى العودة الى هيت، وكانت تحت سلطة الامام، فعبروا من هناك، وواصلوا السير حتى التحقوا بالقسم الأكبر لقوات الامام، وعندما علم الامام بالتحاق القوة اليه قادمة من الخلف، قال «مقدمتي تأتي من ورائي»[1]، الا أن قائدي القوة اوضحا وجهة نظرهما، والدوافع التي حدت بهما الى اتخاذ قرارهما، عندئذ قال لهما الامام «قد اصبتما رشدكما»[2]، خاصة وان زياد بن النضر وشريح بن هانىء من أكثر القوم اخلاصاً للامام وتفانياً فيه، ثم تقدما امام القسم الأكبر نحو صفين فما كادوا ان يصلوا جيش معاوية، حتى التقوا بمقدمة جيشه التي كان يقودها ابو الأعور السلمي، فبعثوا خبراً للامام، انهم قد التقوا جيش الشام، فدعوناهم للطاعة فابوا، طالبين منه ان يصدر لهم توجيهاً، فارسل لهم مالك الأشتر، وقد زوده باوامر توضح له ماعليه ان يفعله، عند لقاء مقدمة جيش الشام، ثم ارسل الى قائدي المقدمة امراً بتأمير الأشتر قائداً لقوة المقدمة.

ـ كانت اول معركة في صفين قد حدثت، عندما التقت مقدمة الامام بقيادة مالك الأشتر، وكان قد أمّره عليها وسرحه الى صفين امامه - كما ذكرنا -، وصل الأشتر واستلم القيادة من زياد بن النضر، حيث كانت قوة مقدمة الامام متواقفة مع قوة مقدمة جيش معاوية، واتبع ما أمره به الامام، وكف عن القتال، فما ان جاء المساء حتى حمل ابو الأعور السلمي، وكان قائداً لقوة مقدمة جيش معاوية على جيش الأشتر، دام القتال ساعة ثبت فيها الأشتر، بعد ان اضطربت قوته بسبب الهجوم المفاجىء للسلمي، انسحب ابو الأعور السلمي عن ساحة القتال، حتى انقضت الليلة، خرج هاشم المرقال، صباح اليوم التالي في قوة خيالة حسنة التسليح والعدد، متقدماً نحو ابي الأعور، فاقتتلوا ذلك اليوم قتالاً شديداً، تحمل الخيل على الخيل.. والرجال على الرجال، ثم انصرفوا عن بعض، وفي صباح اليوم الثالث، بكر الأشتر عليهم بهجوم شديد بكامل قوته، فاصاب من أهل الشام، وقتل منهم، وطلب الأشتر ابا الأعور السلمي للبراز، فلم يبرز له، متعللاً باعذار لاتدل الا على خوفة، فقال الأشتر: نظر الى نفسه، اي خاف عليها، توقف القتال بقية النهار، وحجز الليل بين الطرفين، حتى اذا كان صباح اليوم الرابع،

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٥٣ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٣ .

كان ابو الأعور قد انسحب الى جيش الشام، فعاد الأشتر الى جيش الامام بعد ان وجد غريمه قد انسحب.

ـ تحرك الامام في جيشه، تسبقه مقدمته بقيادة مالك الأشتر، متجهاً الى صفين، وكان الامام قد اعاد تجحفل قوات مقدمته، فأخرج مع الأشتر اربعة الاف من خيرة مقاتلي جيشه، لما سمع معاوية بحركة جيش العراق، سار بجيشه مسرعاً، وكان على مقدمته ابو الأعور السلمي، وعلى ساقته بسر بن ارطأة، كل جيش يبغي ان يصل الى ارض المعركة قبل الآخر، كي يختار الموقع المناسب لمعسكره. وصلت مقدمة معاوية الى قناصرين، يتبعها جيشه، وكان ابو الأعور السلمي قد سبق الأشتر وسيطر على الماء، فعزم الأشتر على ازاحته من موضعه، فشن عليه هجوماً كاسحاً، وازاحه عن معسكره متقهقراً، فلم ير معاوية بداً الا أن يتقدم نحو الاشتر بكامل جيشه، مما اضطر الأشتر الى التراجع، بعد ان ترك موضع الماء الى جيش معاوية، الذي منع جيش الامام من التزود به، اختار الامام علي معسكراً لقواته، وانزلت الأحمال والأثقال، فاستقر جيشه على الارض.

ـ منع اهل الشام الماء عن أهل العراق، ولم يقبل معاوية نصيحة عمر بن العاص ان يترك اهل العراق يتزودون بالماء، واخذ بنصائح الطغام من اصحابه، ارسل الامام صعصعة بن صوحان الى معاوية يطالبه ان يخلّيَ بين أهل العراق والماء، فاصر على منعه، وكان قد ارسل ابا الأعور ومعه قوة كي تقف على الماء وتمنعه عن جيش الامام، ثم عزز القوة تلك بارسال قوة اخرى يقودها عمر بن العاص، ولم يحتمل قادة جيش الامام، الأشعث بن قيس ومالك الأشتر منعهم الماء، بعد ان مضت ثلاثة ايام والجيش يشكو من العطش وقلة الماء، فلم يجد الامام بداً سوى ان يأمرهم بازاحة القوم عن الشريعة فخرج الأشعث بن قيس، باثني عشر الف مقاتل، ومعه مالك الأشتر بقوة خيالة مختارة، فما كان الصبح الا ونشب القتال، فترجل الأشتر والأشعث عن خيولهم، وترجل معهم خيالهتم، وبدأ القتال، فلم تمض سويعات حتى تم ازاحة جيش الشام عن الشريعة، وقد قتل الأشتر في ذلك اليوم، من أهل الشام بيده، صالح بن فيروز، وكان مشهوراً بشدة البأس، وكان اول من قتل، ثم خرج اليه فارس آخر يدعى مالك بن ادهم السلماني، وكان من فرسان الشام، فقتله الأشتر، ثم خرج رياح بن عتيك، فقتله

ايضاً، ثم قتل ابراهيم بن الوضاح، ثم قتل زامل بن عيك اخُ رياح، ثم قتل الأجلح، وكان الذين قتلهم الأشتر في البراز تسعة من أشد فرسان الشام واشهرهم، بعد أن اصبح الماء بايدي جيش العراق، تقدم الامام الى الشريعة وعسكر بالقرب منها، ولم يمنع أهل الشام من التزود بحاجتهم من الماء، فكان أهل الشام والعراق يختلفون مع بعض في طريقهم الى الماء.

ـ بعد ان لاحظ معاوية ان جيشه قد ازيح من مكانه، عمد الى حيلة، فقد اطلق سهماً على جيش الامام وكتب فيه «من عبد الله الناصح، فاني اخبركم ان معاوية يريد ان يفجر عليكم الفرات فيغرقكم، فخذوا حذركم»[1]، ثم ارسل مائتي رجل من الفعلة الى عاقول النهر بايديهم المرور والزبل»[2]، كي يكمل خدعته بانه يريد تفجير الفرات على جيش اهل العراق، صدق جيش الامام ذلك، وبدأت الفوضى تدب فيه، ووصل الخبر الى الامام، فنصح القوم وان معاوية يريد ان يزيل القوم عن اماكنهم، فلم يتلفتوا اليه، ورحلوا عن مكان معسكرهم، مما اضطره ان يترك مكانه ويرتحل ايضا، فقام معاوية باحتلال معسكر الامام، دعا الامام الأشتر والأشعث، فعاتبهما، فتعهد الأشعث بانه سيداوي ما أفسده هو والأشتر، خرج الأشعث بقومه من كندة، يمشون على اقدامهم وهو يرمي الرمح امامهم ويأمرهم أن يسيروا اليه، وقام الأشتر بشن هجوم صاعق بقوة خيالته، فدام القتال ساعة على الماء، حتى انكشف جيش الشام عن الماء ثلاثة فراسخ، فلما غلب الامام على الماء، بعث الى معاوية يدعوه الى الاكتيال منه وانه لايفعل كما فعل هو.

ـ ظل الموقف هادئاً حتى كان ذو الحجة، حيث بدأ القتال بقوى محدودة، فكان الامام يخرج الأشراف من اصحابه، ومعهم مجموعة من المقاتلين، ويخرج معاوية مجموعاته بقيادة اعيان اهل الشام، فيقتتلان في خيلهما ومشاتهما ثم ينصرفان، اي ان القتال لم يكن يجري في مجموع الجيشين، «وكان علي عليه السلام يخرج الأشتر بخيله، وحجر بن عدي مرة، وشبث بن ربعي التميمي مرة، ومرة خالد بن المعمر السدوسي، ومرة زياد بن النضر الحارثي، ومرة زياد بن جعفر الكندي، ومره سعد بن قيس الهمداني، ومرة معقل بن قيس الرياحي،

(١) و(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٩١ .

ومرة قيس بن سعد بن عبادة، وكان أكثر القوم حروباً الأشتر»[1]، وكان معاوية يفعل كذلك ايضاً فيخرج اليهم «عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي، ومرة ابو الأعور السلمي، ومرة حبيب بن مسلمة الفهري، ومروة ابن ذي الكلاع، ومرة عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ومرة شرحبيل بن السمط، ومرة حمزة بن مالك الهمداني»[2]، فاستغرق قتالهم طيلة شهر ذي الحجة، وربما تقاتلوا في اليوم مرتين، أوله وآخره.

ــ عندما دخل محرم الحرام، توقف القتال وكف الجيشان عن بعض، الى ان انقضى شهر محرم، وتبعاً لاستراتيجية الامام العامة، بدأ بارسال الرسل الى معاوية علة يفلح في حقن الدماء وايقاف الحرب، فارسل الى معاوية وفداً، يتألف من كل من عدي بن حاتم، وشبث بن ربعي، ويزيد بن قيس، وزياد بن خصفة، فلم يقبل منهم معاوية وهدد عدي بن حاتم قائلاً له «اما والله انك لمن المجلبين على ابن عفان، وانت لمن قتله، واني ارجو أن تكون ممن يقتله الله، هيهات ياعدي، قد حلبت بالساعد الأشد»[3]، ثم ارسل معاوية وفداً الى الامام علي يتألف من كل من : حبيب بن مسلمة الفهري، وشرحبيل بن السمط، ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمي، مطالبين الامام بدفع قتلة عثمان يقتلونهم به، وطالبوا الامام ايضاً ان يعتزل ويجعلها شورى، فلم ير الامام في ماجاءوا به شيئاً جديداً.

ــ مضى شهر محرم، ودخل شهر صفر من عام سبع وثلاثين للهجرة، وهو الشهر الذين شهد استعداد الطرفين الكامل للحرب، وشهد اعنف المعارك، وقد ارسل الامام انذاره النهائي لجيش الشام، بأن بعث مرثد بن الحارث الجشمي، وامره ان ينادي عليهم باسم الامام «اني قد استدمتكم واستأنيت بكم، لتراجعوا الحق وتنيبوا اليه، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم اليه فلم تتناهوا، عن طغيان، ولم تجيبوا الى حق، واني قد نبذت اليكم على سواء، ان الله لايحب الخائنين»[4].

ــ استمر القتال حتى يوم الأربعاء لثلاث عشرة خَلين من صفر سنة سبع وثلاثين[5]، اي ان القتال دام حوالي اربعة عشر يوماً، وكانت الحرب سجالاً، مرة

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٩٥ .
(٢) و(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٩ و ١٩٧ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٣ .
(٥) الكامل في التاريخ ابن الأثير، ج٣، ص ٣٢١ .

تكون فيه الغلبة لأهل الشام، ومرة لأهل العراق، وسوف نورد وصفا لموقفين هما من أعظم المواقف، الأول عندما كادت الحرب ان تنتهي بانتصار اهل الشام، والثاني عندما كادت تقضي على معاوية، لولا خدعة رفع المصاحف، التي انقذته من نهاية محتومة، فبعد ان شاهد معاوية الحرب وقد اوشكت على نهايتها بخسارته، وضاقت به السبل استشار عمر بن العاص، علّه يجد له حلاً، كما اعتاد يوماً ان يفعل، فتفتق ذهن عمر عن سبيل للخلاص، وهو أن يرفع جيشهم المصاحف فوق الرماح، فان نفع ذلك فخير، وان لم ينفع فانه سوف يبث الفرقة بين صفوف جيش الامام، وسيكون ذلك اضعافاً لهم وتوهيناً، وربما سيحد من اندفاعهم في القتال وشدتهم فيه.

ـ كان قتال يوم الخميس لسبعة خلون من شهر صفر، يوماً شديداً على اهل العراق، فكان بدء القتال يميل الى كفة جيش الكوفة، فقد خرج الامام يقود جيشه من القلب، وكان على ميمنته عبد الله بن بديل الخزاعي، وعلى ميسرته عبد الله بن عباس، اما قراء العراق فقد توزعوا الى ثلاث مجموعات، الأولى مع عمار بن ياسر، والثانية مع قيس بن سعد، اما الثالثة فقد التحقت مع عبد الله بن بديل، فزحفوا الى جيش معاوية الذي كان يتمركز في قبة عظيمة اتخذها مقراً له، وكانت القبة هدفاً لعبد الله بن بديل، وكان عبد الله يمسك سيفين وعليه درعان وكان قد قرر ان لايعود هذا اليوم دون أن يفنى او يحقق نصراً، وقد تقدم في الميمنة نحو ميسرة اهل الشام وعليها حبيب بن مسلمة، فقاتل قتالاً شديداً، وأخذ يدفع اهل الشام حتى كشف ميسرتهم، وأوصلهم الى القبة، ثم أخذ يحوزهم ويدفعهم بعنف حتى وصل الى قبة معاوية، الذي اخلى موقعه، وقد خشي على نفسه، فارسل على حبيب بن مسلمة عدة مرات يستنجده، حتى اتاه وحمل حملة شديدة ازاحت ميمنة اهل العراق، ولم يتبق منهم سوى عبد الله بن بديل ومعه مائة مقاتل من القراء، لكنه صمم على قتل معاوية حتى وصل اليه فنادى معاوية على اهل الشام: «ويلكم! الصخر والحجارة اذا عجزتم عن السلاح»[1]، فرموه بالحجارة والصخر حتى اثخنوه، وقتل عبد الله بن بديل، وهزمت ميمنة اهل العراق، وتدهور الموقف، وبدا ان جيش أهل العراق آخذ بالتراجع والهزيمة، وان

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٢٤٦ .

عقده بدأ بالانفراط، وكان الامام قد لاحظ ان الموقف قد بدأ بالتهدور، فقام بمعالجة الأمر بثبات ورباطة جأش، فعطف على ميسرته راكضاً، يامرهم بالرجوع، ويذكّرهم بعار الفرار، ومر بمالك الأشتر الذي امره ان يتصدى للفارين من المعركة، ويذكرهم «اين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه الى الحياة التي لاتبقى لكم»[1]، فخاطبهم بما اوصاه به الامام، واخذ يجمعهم مذكراً اياهم بالعهد الذي قطعوه للامام بنصرة الاسلام والذود عن حياضه، ثم نادى على قبيلة مذحج مشيداً بهم مادحاً اياهم مذكراً ببطولاتهم، فاجتمعوا له واطاعوه، التفوا حوله، وتكاثروا، بعد ان كانوا قد هربوا تاركين ساحة المعركة.

ــ استمر الاشتر يجمع من حوله كل من يلاقيه، وأخذ يتقدم حتى وصل ميمنة الجيش، التي استلم قيادتها زياد بن النضر بعد مقتل عبد الله بن بديل الخزاعي، واجتمع مع الأشتر معظم من فرّ من ساحة القتال، ثم بدأ بشن هجومه العزوم الصاعق، فكان ان ازاح ميسرة اهل الشام وكشفهم عن جيش اهل العراق، حتى الحقهم بجيش معاوية خلال ساعات، وكان ان قُتل زياد بن النضر قائد مقدمة الأمام على جيشه عندما تقدم من الكوفة الى صفين، وكان يوماً مشهوداً من ايام صفين كثر فيه القتل بين الطرفين.

ــ وفي اليوم التاسع من صفر، خطب معاوية في جيشه محرضاً اياهم على القتال، فاجابه ذو الكلاع وعبيد الله بن عمر، وكانت حِمْيَر يقودها ذو الكلاع قد اخذت مكانها للقتال، تقابلهم قبيلة ربيعة من أهل العراق، فنشب القتال وكانت خسائر ربيعة كبيرة، لانها ظلت تقاتل بثبات كل يوم دون ان تهن، ولم يهرب منها الا القليل، لذا فانها تحمّلت ثقل الخسائر الأكبر، فقامت قبيلة عبد القيس من العراق بنجدتها، فتضعضعت اركان حِمْير، وقُتل ذو الكلاع، ولم يمض يوم الا وقتل عبيد الله بن عمر، الذي كان يقود كتيبة من أهل الشام تدعى الرقطاء، وتعدادها اربعة ألاف مقاتل عليهم اثواب خضر، ولقد وصلت شدة القتال الى ذروتها، ولنقرأ معا مقطعاً لنصر بن مزاحم يصف فيه هول ماوصلت اليه الحرب من شدة «ثم تمادى الناس في القتال، فاضطربوا بالسيوف حتى

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٢٥٠ .

تعطفت[١]، وصارت كالمناجل، وتطاعنوا بالرماح حتى تكسرت وتناثرت اسنتها، ثم جثوا على الركبات فتحاثوا بالتراب، يحثو بعضهم وجوه بعض بالتراب، ثم تعانقوا وتكادموا بالأفواه، وترآموا بالصخر والحجارة، ثم تحاجزوا، فجعل الرجل من أهل العراق يمر على اهل الشام فيقول: من أين آخذ[٢] الى رايات بني فلان؟ فيقولون: هاهنا لاهداك الله، ويمر الرجل من أهل الشام على أهل العراق فيقول: كيف آخذ على رايات بني فلان؟ فيقولون: هاهنا لا حفظك الله ولاعافاك»[٣]، وهي صورة حية لشدة الحرب وقسوتها، التي وصلت الى الدرجة التي يختلط فيها اهل الشام باهل العراق، واهل العراق باهل الشام، يسأل بعضهم بعضاً عن الطريق الى رايته وقبيلته.

ليلة الهرير

ـ وهي أشد أيام الحرب هولاً، والتي كان جيش العراق بعدها على وشك الفوز بالنصر على جيش الشام، وسنتحدث عنها بعد قليل، وكان جيش العراق والشام قد فقد الكثير من قادتهما البارزين، فقد قُتل من جيش العراق، عمار بن ياسر، وهاشم المرقال، وزياد بن النضر، وعبد الله بن بديل الذي كان ثقله على معاوية شديداً، اما من جيش الشام، فقد قُتل ذو الكلاع، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وحوشب بن ظليم الذي كان لمقتله أثر كبير على اهل الشام، وقد بدأت معنوياتهم بالتدهور، وكان جزعهم على قتلاهم واضحاً، وقد جاء ذلك على لسان احدهم، فقد قال معاوية بن خديج: «يا أهل الشام، قبّح الله ملكاً يملكه المرء بعد حوشب وذي الكلاع»[٤]، وقد احسن معاوية بن ابي سفيان بحراجة الموقف فخطب اهل الشام محاولاً ان يرفع من معنوياتهم، «يا أهل الشام، ماجعلكم احق بالجزع على قتلاكم من أهل العراق على قتلاهم، فوالله ماذو الكلاع فيكم باعظم من عمار بن ياسر فيهم، ولا حوشب فيكم باعظم من هاشم فيهم، وما عبد الله

(١) تعطفت: انثنت وتلوّت.
(٢) من أين آخذ: او كيف آخذ
(٣) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٣٠٤ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٤٥٥ .

بن عمر فيكم بأعظم من ابن بديل فيهم، وما الرجال الا اشباه، وما التمحيص الا من عند الله، فابشروا فان الله قد قتل من القوم ثلاثة، قتل عمار بن ياسر وهو كان فتاهم، وقتل هاشماً وكان جمرتهم، وقتل ابن بديل وهو فاعل الأفاعيل، وبقي الأشعث والأشتر وعدي بن حاتم، فاما الأشعث فحماه مصره، وأما الأشتر وعدي فغضبا للفتنة، والله قاتِلهما غداً ان شاء الله»[1]، فلم يعجب قوله اهل الشام، الذين بدأوا يملّون الحرب ويكرهون القتال، وهو ما انعكس عليهم في الايام التالية من القتال.

ــ كان يوم الثلاثاء العاشر من شهر صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة، وهو اليوم الذي قرر فيه الامام ان يكون فاصلاً، وخاطب جنوده طالباً منهم ان يحسموا الموقف و«ايها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ماقد رأيتم، ولم يبق منهم الا آخر نَفَس، وان الأمور اذا اقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم مابلغنا، وانا غاد عليهم بالغداة احاكمهم الى الله عزوجل»[2]، فانتظم جيش اهل العراق في صفوفه، وخرج مالك الأشتر فارساً مقنعاً لايُرى منه الا عيناه، وبيده رمح، وبدأ يضرب على رؤوس المقاتلين ويقول «سووا صفوفكم رحمكم الله»، حتى اذا عدل الصفوف والرايات، التفت اليهم وظهره الى اهل الشام، وخطب بجيش العراق: «الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه، اقدمهم هجرة، واوّلهم اسلاماً، سيف من سيوف الله صبَّه على اعدائه، فانظروا اذا حمي الوطيس وثار القتام وتكسّر المران، وجالت الخيل بالأبطال، فلا اسمع الا غمغمة او همهمة، فاتبعوني وكونوا في اثري»[3].

ــ اشتبك الجيشان، ونشب قتال شديد، لم يُشهد له مثيل طيلة ايام حرب صفين، فقد قُتل نهار ذلك اليوم حتى منصف الليلة، سبعون الفاً من الجانبين، فلم يتركوا سلاحاً الا وتقاتلوا به، فتراموا اولاً بالنبل والحجارة حتى نفذت من بين ايديهم وجعبهم، ثم استخدموا رماحهم حتى تكسرت، ثم تلاحموا بالسيف وعُمُد الحديد «فلم يسمع السامع الا وقع الحديد بعضه على بعض، لهو اشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق، ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً، وكان الأشتر

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٤٥٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٧٦ ، خطبها الامام ليلة الثلاثاء .

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٧٤ .

يجول في جيش العراق فيما بين الميمنة والميسرة، يوجه الكتائب والقبائل ويحرضها على مواصلة التقدم، فلم يصبح الصباح الا وساحة المعركة قد اصبحت خلفه وتجاوزها، ثم استمر القتال من منتصف الليل الى ارتفاع الضحى، وكان الأشتر لايزال يقود القتال، يامر مقاتليه ان يتقدموا قيد رمحه الذي كان يرميه امامه حتى انتهى الى قلب عسكرهم، وقد فجه فجاً، وعندما شاهد الامام ان الأشتر قد اوشك على الانتصار، وانه يحرز تقدماً كبيراً في الجانب الذي فيه، اخذ ينجده ويمده بالمقاتلين، ادرك الامام بان النصر اصبح بين يديه، وان ذلك اليوم سيكون آخر ايام القتال، وبلغ معاوية ان الامام قد قال بان غداً سيشهد الحكم على القاسطين فايقن بان نهايته آتية لاريب فيها، فقال لعمر بن العاص «انما هي الليلة حتى يغدو علي علينا بالفيصل فما ترى؟، قال: ان رجالك لايقومون لرجاله، ولست مثله، وهو يقاتلك على امر وانت تقاتله على غيره، انت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك ان ظفرت بهم، وأهل الشام لايخافون علياً ان ظفر بهم»[1].

ـ لم يعد لمعاوية كي يتخلص من المأزق الذي فيه سوى الحيلة والمكر، ورفعت المصاحف على رؤوس الرماح، بعد ان اشار عمر بن العاص على معاوية ان يفعل ذلك، فحدث الخلاف بين جيش اهل العراق، جماعة تقول بايقاف القتال، واخرى تنادي بمواصلة الحرب حتى النصر. ويعتبر رفع المصاحف خدعة لاينبغي الوقوع في حبائلها، وتغلب رأي الذين يطالبون بايقاف الحرب، فتوقفت، وكُتب كتاب الصلح والموادعة، ووقع عليه الطرفان، الامام علي وقادته، ومعاوية وقادته، الا مالك الأشتر، الذي قال عندما دعي ان يكتب اسمه في الصحيفة: «لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها الشمال ان كتبَ لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة، اولست على بينة من ربي، ويقين من ضلالة عدوي؟»[2].

ـ عندما وُقّعت صحيفة الصلح بين جيش العراق وجيش الشام، وبدأ الاشعث بن قيس بقراءتها وهو يمر على الجيشين، كان جيش الشام يظهرون الرضا والقبول، ولـمّا كان يعرضه على جيش العراق قبيلة قبيلة، وراية فراية،

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٤٧٧ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠١ .

حتى مر على رايات عَنَزة، وكانوا مع جيش الامام باربعة الاف مقاتل، قال بعض من مقاتليهم: لاحكم الا لله، وهو الشعار الذي اصبح فيما بعد ينادي به الخوارج من جيش الامام، الذين رفضوا بعدها خلافة الامام وولاية معاوية معا، وكان لهم دورهم فيما بعد، في فترة حكم بني امية وبني العباس.



استراتيجية الامام علي العسكرية في حرب صفين

ــ تبرز مقدرة الامام علي وفهمه «الاستراتيجي» واضحين للعيان، خلال تقدمه الكبير على رأس قواته من الكوفة - وبالتحديد من منطقة التحشد التي انتخبها في منطقة النخيلة، والتي تقع الى مسافة حوالي عشرين كيلومتراً جنوبي كربلاء - الى منطقة صفين حيث قطع حوالي أكثر من الف كيلومتر، عبر فيها الوديان والسهول والصحاري والأنهار، على رأس جيش يصل تعداده الى اكثر من سبعين الفاً من المقاتلين، مع اثقالهم وأحمالهم وذيلهم الاداري، حيث اعد العدة، واكمل الاستعدادات لهذا التقدم الطويل بكل تفاصيله ومتطلباته. كانت سعة الحركة وطول المسافة التي قطعتها القوات التي سارت في محاور مختلفة، تقدم لمحة استراتيجية واضحة لعمل الامام وانجازه العسكري، فحال وصوله الكوفة، اخرج مالك الأشتر على رأس قوة خيالة متجهة الى الموصل ونصيبين ودارا، ثم انكفأ باتجاه الفرات الى الرقة، ثم واصل سيره عائداً الى الكوفة، ماراً بعانات وحديثة، وحالما قرر التقدم الى صفين، اخرج قوة مقدمة قوامها اثنا عشر الف مقاتل، بقيادة زياد بن النضر وشريح بن هانيء، آخذةً الحافات الغربية لنهر الفرات، هدفها اخبار الامام عن اي تحرك لجيش الخصم، ولم يهمل الجانب الأيمن لمحور تقدمه، وما ان وصل الى مقابل المدائن عند ساباط حتى ارسل قوة استطلاع مسلحة بقيادة معقل بن قيس الرياحي في ثلاثة الاف مقاتل، سائراً على نفس المحور الذي سار عليه قبله مالك الأشتر، مما ترك أثراً كبيراً في نفوس العامة من الناس، ومنعهم من القيام باي عمل مناوىء لسلطة الخلافة.

ــ كان مسيره ملتصقاً بالرافدين، يسير بينهما، مرة الى الفرات وأخرى الى دجلة، حتى اذا أشرف على الجزيرة الممتدة من شمال الأنبار حتى أقاصي سوريا والعراق، مال الى الفرات فأخذ جانبه الأيسر، تاركاً دجلة، مجتازاً الأنبار، فغاص في الجزيرة الى اقاصيها. كان العراق كله هدفه، سواده الخصيب الذي ينبض بالحياة، تجري فيه الروافد، تدفع فيه الحياة، ولم يدع ركناً محيطاً به خلال تقدمه الا ونفضه وفتش فيه، يبعث العيون والطلائع، داس جنده السهول والوديان، اخترقوا السهول الفسيحة والبساتين اليانعة، حيث المسير سهل مريح، والماء

متوفر، وامداد الجنود متيسر من هذه الأرض التي ظلت تعطي كل الخير لامتداد سنين طويلة، وفي جوار دجلة، مقابل المدائن، اخرج قوة مسلحة، تعلو الأرض بمحاذاة النهر، الى جانبه الغربي، تتجه صعوداً الى الموصل، ثم تنثني الى نصيبين، التي تقع الآن في تركيا، ثم تتجه بمحاذاة نهر الخابور، مخترقة جبال سنجار وقد أوشكت ان تبلغ السور العظيم الذي تؤلفه الهضبة الأرمينية الذاهبة الى السماء، وكان مجاز جيشه الكبير، القلب، وسط الجزيرة، مع انحرافه عن الشرق، قاصداً الرقة على نهر الفرات، حيث يطل من هناك على حوض حلب، حيث ينفتح منها الطريق ليناً سهلاً الى ارض عدوه، اينما سار فان أقدامه ثابتة، لها موقعها الأمين المعلوم، فنهر الفرات يشكل مانعاً طبيعياً له على الجانب الأيسر لتقدمه، وقوة المقدمة كانت تسير على جانبه الغربي، تؤمن له الصحراء الممتدة الى الشام، تمنع عنه اية مباغتة، قد يفكر جيش الشام في القيام بها، بشن هجوم او القيام بالتقدم من هذا الاتجاه، سالكاً عبر الصحراء مسلكاً غير متوقع، ولم يتقدم من الكوفة مخترقاً الصحراء الى الشام، متجنباً المشاكل التي يسببها التقدم في الأراضي الصحراوية. وأهمها قلة الماء والأرزاق، والذي كان يقتضي منه ان يكتال منها، مما يؤدي الى زيادة أحماله وأثقاله وساقاته، جاراً خلفه ذيلاً ادارياً طويلاً، يجب توجيه الانتباه اليه، اضافة الى تفاوت درجات الحرارة بين الليل والنهار، وقلة المعلومات التي يمكن ان ترده عن تحرك قوات جيش الشام.

ـ يعتبر كل من مبدأي الأمن والاستخبارات من أهم مبادىء التقدم، وتأمين هذين المبدأين سيؤدي بالضرورة الى انجاح عملية التقدم، وكان الامام يتقدم مختاراً الزمان والمكان الذي قرره للقاء عدوه، وهذا النوع من التقدم يسمى بالمصطلح العسكري الحديث «التقدم للتماس»، ولم يكن هذا الأمر غائباً عن ذهن الامام، وهو الذي دفعه الى اتخاذ تلك الاجراءات في خطته تلك، ويعني الأمن حرمان العدو من مباغتة القوة المتقدمة، ومفاجأتها بعملية لم يكن جرى حسابها، من أحد الجهات، الامام، اليمين او اليسار، او الخلف، مما سيربك عملية التقدم بأسرها، وربما افشلها، فكان ان ارسل قوة معقل بن قيس الرياحي، كي تؤمن له الجانب الأيمن لتقدمه وأرسل قوة الطليعة في الجانب الغربي لنهر الفرات، مسنداً جناحه الأيسر على مانع مائي كبير - نهر الفرات -، وبذا يكون

قد وضع قوات الجزء الأكبر في صندوق من الحماية، امتنها له قواته والمانع المائي الممتد امامه الى مسافات بعيدة.

ـ كانت خطة الامام ان تلتقي قواته الثلاث، الأصل - القسم الأكبر - والمقدمة وقوات الاستطلاع في الرقة، جيش معقل بن قيس وقوات الجزء الأكبر التي يقودها هو، وقوة المقدمة بقيادة زياد بن النضر وشريح بن هانىء، حيث يكون قد أشرف على ارض الشام كلها، مستنداً الى الخلف على قاعده قوية وعمق استراتيجي يمتد الى المحيط الهندي وبحر العرب جنوباً، وبلاد فارس الى الشرق، يقدم له كل مايريده من الرجال والعتاد والتموين، ولم يغفل الامام ان يترك قوة لحماية الجسر الذي انشأه مالك الأشتر في الرقة، حيث يطمئن الى انه قادر على جعل عمقه مفتوحاً خلفه، تمر اليه منه الامدادات بحرية، كما انه يمكنه ان يستخدمه في حالة تحول الموقف في غير صالحه، متجهاً مرة أخرى الى عمقه، اقصى الجزيرة العربية حتى بحر العرب والمحيط الهندي وبلاد فارس وجزيرة ابن عمر - ديار بكر وماردين ونصيبين - كانت الأرض خلفه له، دائنة بالولاء، وكان الهدف الاستراتيجي لحركة الامام تلك، الهبوط الى الشام من اعاليها، وهي بعيدة من أن تجد مقاومة تذكر، الا عندما يقرر هو متى واين ستكون المعركة.

ـ اما وكر معاوية، أرض الشام، فهي ركن محصور، ينتهي الى الصحراء مباشرة، بل ان دمشق نفسها تقع على حافات الصحراء، كذلك مدنها الكبرى، حمص وحلب، التي تشكل بالنسبة له القواعد الأساسية لتحركه، حيث يسهل التوجه اليها دون عناء، وهاهو جيش الامام يقف في مواجهتها، فلا موانع طبيعية هامة قادرة ان تمنع تقدم اية قوات اليها، ومن الخلف البحر الأبيض المتوسط، الذي يضرب خلفه طوقاً، يجعله محصوراً على الأرض الضيقة، نهباً للقوات المتقدمة على البر، اما في جنوب الشام، فتقع ارض مصر، حيث لايزال واليها من قبل الامام ممسكاً بزمام الأمور، وربما شجعته ظروف تطور الحرب الى التقدم من مصر عبر فلسطين باتجاه دمشق، وبذا يقع معاوية بين فكي كماشة، وقد ذكر ذلك شخصياً لعمر بن العاص وتخوف منه كثيراً. اما الشمال فهي ارض الروم، ففي حالة اصابته بنكسة حربية، فانه لن يعتمد عليها، لأن الذهب والفضة والجواري التي اهداها الى قيصرها، طامعاً في موادعته، لن يفيده، لأن الروم كانوا ايضاً

يتربصون بارض المسلمين، وينظرون ماسوف تسفر عنه نتائج الحرب الآتية.

ـ يبدو واضحاً بان معاوية لم يكن يمتلك عمقاً استراتيجياً، فالمسافة بين الرقة وحمص صحراوية، يصعب فيها اعادة التنظيم لقوة مهزومة، خاصة وان معاوية كان قد حشد كل الذي يستطيعه من مقاتلة في ارض صفين، ولم يعد لديه احتياطي من القوات في مدن الشام، حمص، حلب، دمشق، فلسطين، حيث قدم عمر بن العاص منها بما جلبه معه من قوات، ولم يبق فيها الا القليل، وان خسارة المعركة سوف تعني بالنسبة له، توجه قوات الامام علي مباشرة الى قلب الحواضر الشامية، واحتلالها الواحدة تلو الأخرى، مما سيعني حرمان معاوية من المنطقة الحيوية، فيما لو استطاع أن يفلت بجلده من صفين، كما حاول ذلك عدة مرات خلال احتدام المعارك، وكان واضحاً بان خسارته المعركة في صفين تعني نهايته، اذ ان عمقه الاستراتيجي كان قشرة يسهل النفاذ اليها، [يعرف العمق الاستراتيجي بانه «المنطقة الواقعة بين الخط الامامي المتقدم، الذي تستطيع دولة ما أن تحتفظ فيه بقوات عسكرية للدفاع عن نفسها، وبين مناطقها الحيوية، وهي المنطقة التي يعني اختراقها من قبل العدو، القضاء على تلك الدولة»[1]]، فسقوط المناطق الحيوية التي تلي العمق الاستراتيجي سوف يؤدي الى انهيار اية مقاومة منظمة اخرى، بسبب فقدانها مصادر قوتها المادية والبشرية، وهذا ماكان سيحدث لمعاوية، لو أن الأمور لم تجر بالطريقة التي جرت بها.



(١) مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، العدد ٣١، سنة ١٩٩٠، ص ٣٤ .

معركة النَهْرَوان[١]

ـ كان ظهور الخوارج اول ماظهروا، وسماع شعارهم الذي ظلوا ينادون به طيلة الفترة التي كانوا فيها يناهضون خلافة الامام علي، وحكم الأمويين والعباسيين من بعده، «لاحكم الا لله»، بعد التحكيم في وقعة صفين مباشرة، فلما كتبت الوثيقة، قام الأشعث بن قيس الكندي، يتلوها على صفوف الجيشين، وبدأ بجيش معاوية الذي رضي بها، ثم مر بها على صفوف جيش اهل العراق، يعرضها على كل راية وقبيلة، حتى مر على رايات قبيلة عَنَزة، وكان منهم مع الامام اربعة آلاف مقاتل[٢]، فلما قرأها عليهم نادى بعض الفتيان: «لاحكم الا لله، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما حتى قتلا على باب رواق معاوية»[٣]، ثم بدأت دعوة هؤلاء تنتشر بين القبائل الأخرى، فكانت بنو راسب قد فعلت مثلهم، ثم قسم من بني تميم، وعلت الأصوات أن لاحكم الا لله، ولم ينفع نصح الامام لهم، وتصايحوا من كل ناحية، واعلنوا براءتهم من علي وشهدوا عليه بالشرك، كما حكموا على معاوية من قبل، ولم يكن للامام من بد الا البراءة منهم ومن مسلكهم وضلالتهم، كان ذلك يوم السابع عشر من صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة.

ـ عندما عاد الامام من صفين الى الكوفة، عاد معه الخوارج، لكنهم افترقوا عنه الى النهروان. فارسل اليهم عبد الله بن عباس فعاد ولم يصنع شيئاً، فخرج اليهم الامام فكلمهم وحاججهم، فقالوا له: استغفر ربك، فقال: استغفر الله من كل ذنب اذنبته، وهي اجابة عامة، لاتعني شيئاً بذاته، فقبل بها الخوراج ورجعوا الى الكوفة، لكن الأشعث بن قيس الكندي كان يريد افساد المودة والهدوء بين جيش الامام وانصاره، فجاء الامامَ يقول له بان الناس يتحدثون بانك رجعت عن

---

(١) نهروان: وهي ثلاثة نهروانات، الأعلى والأوسط والأسفل، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، حدها الأعلى متصل ببغداد، وفيها عدة بلاد متوسطة، [معجم البلدان، ياقوت، ج٥، ص ٣٢١]، «وهي اليوم مندثرة، الا من آثار لأنهارها في الجزء الجنوبي الشرقي من نهر ديالى من بغداد باتجاه واسط»[المؤلف]. ويقول ابن ابي الحديد في شرح النهج مجلد ١، ص ٢٠٢، ان النهروان، نهر واحد يقال لاعلاه تامرا ولاسفله النهروان.

(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٥١٢ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٥١٢ .

كفرك، فخطب الناس، مستنكراً مايشاع بينهم، فخرج الخوارج من المسجد وهم ينادون لاحكم الا لله، وعندما حلّ موعد التحكيم، وبعث الامام علي ابا موسى الأشعري ليذهب الى دومة الجندل، ارسل الخوارج بعضهم الى بعض، واجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي، الذي اصبح قائدهم، بعد ان بايعوه، وامرهم بالخروج من الكوفة، منكرين التحكيم، بعد ان بايعوا الراسبي «لعشرة خلون من شوال»[1] سنة ٣٧ للهجرة، وقرروا ان يخرجوا فراداً كي لايكشف امرهم، وبعثوا الى اصحابهم في البصرة ان يوافوهم في النهروان، فاجتمع خوارج البصرة في خمسمائة رجل وجعلوا عليهم مسعر بن فدكي التميمي، وساروا ولحقوا بالخوارج في النهروان وعلم الامام بهذا التحرك، فكتب لهم «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي امير المؤمنين الى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس، اما بعد فان هذين الرجلين الذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعا اهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملا بالسنة ولم ينفّذا القرآن حكماً، فبرىء الله ورسوله منهما والمؤمنون، فاذا بلغكم كتابي هذا، فاقبلوا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم»[2]، فاجابوه بانهم لايقبلون بادنى من شهادته على نفسه بالكفر، واعلان التوبة منه، فيئس من صلاحهم ودعوتهم الى الصف.

ــ كان الامام قد قرر ان يترك الخوارج ولا يحاربهم، لأنه كان مدركاً ان الأمر يجب أن يحسم مع معاوية في صفين مرة أخرى، فدعا الناس الى الالتحاق بالنخيلة، وكان أن التحق اليها، من أهل الكوفة، خمسة وستون الفا، وثلاثة الاف ومائتا رجل من أهل البصرة، وكان جميع من معه ثمانية وستون الفا ومائتا رجل[3]، الا أن بعضاً من اصحابه كان يرى بانه يقتضي محاربة الذين خرجوا عليه في النهروان قبل ان يتوجهوا الى الشام، لأنهم لايأمنون ان يتركوا اهلهم واموالهم عرضة لخطر هؤلاء خلفهم، الا أن الامام ظل مصراً على رأيه، غير ان الخوارج بدأوا بالتحرك، واخذوا يعترضون الناس، ويقتلونهم، وكان ان قتلوا عبد الله بن خباب، وكان صاحب رسول الله، «فقدّموه على ضفة النهر فضربوا عنقه فسال دمه كأنه شراك نعل»[4]، وبقروا بطن ام ولده، وأخرجوا جنينها، ثم بدأوا

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، الجزء الرابع، ص ٥٦ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٧ .
(٣) ينظر السابق ص ٥٩ .
(٤) المصدر نفسه، ص٦١ .

بقتل الناس، فقتلوا عدداً من النساء، وكانوا يفعلون ذلك بدون رحمة أو شفقة «قتلوا ثلاث نسوة من طيء، وقتلوا ام سنان الصيداوية»[1]، وبلغ ذلك الامام فارسل اليهم الحارث بن مرة العبدي رسولاً منه فقتلوه، ووصل خبرهم الى الامام وأهل الكوفة، فقالوا له «يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في اموالنا وعيالنا، سر بنا الى القوم، فاذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا الى عدونا من أهل الشام»[2]، فلم يكن بد من التوجه اليهم، بعد ان اخذ خطرهم بالتعاظم، فسار الامام متوجهاً الى النهروان، وبعد ان تحدث معهم ناصحاً لهم، محذراً اياهم بانهم لن يحصدوا شيئاً سوى الندم على عملهم هذا، وخطب فيهم خطبة طويلة، لكنهم رفضوا ان ينصاعوا للحق، فتنادوا الى القتال، فعبر الامام النهر اليهم بقواته وعبّأها، فجعل على ميمنته حجر بن عدي الكندي، وعلى ميسرته شبث ابن ربعي، او معقل بن قيس الرياحي، وعلى الخيل ابا ايوب الأنصاري، وعلى الرجالة ابا قتادة الأنصاري، وعلى اهل المدينة وهم سبعمائة رجل قيس بن سعد بن عبادة، وعبأ الخوارج قوتهم ايضاً، فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي وعلى الميسرة شريح بن اوفى العبسي، وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسدي، وعلى المشاة منهم حرقوص بن زهير السعدي.

ـ كان الامام يعي بان هؤلاء القوم قد ضلوا، وخدع قسم منهم، فكان يأمل بأن يعودوا الى جادة الصواب، معظمهم على الأقل، وكانوا قد قاتلوا معه في الجمل وصفين، فلم يعدم الأمل فيهم، فرفع لهم راية الامان مع ابي ايوب، فنادى عليهم ان كل من يأتي الى هذه الراية ممن لم يقتل احداً من قبل، فهو آمن، ومن انصرف منهم الى الكوفة أو المدائن فهو آمن، وان الامام ليس راغباً في قتل أحد، سوى الذين ارتكبوا جرماً بقتلهم الأبرياء من الناس، فانصرف منهم اول من أنصرف خمسمائة فارس تاركين النهروان، وخرجت جماعة أخرى منهم متوجهة الى الكوفة، والتحق به حوالي المائة منهم «وكانوا اربعة الاف، فكانوا الذين بقوا مع عبد الله بن وهب منهم ألفين وثمانمائة»[3].

ـ كانت خطة الامام القضاء على من تبقى منهم قضاء مبرماً، فعبر النهر

---

(١) و(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج٤، ص ٦١ .
(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣، ص ٣٤٦ .

اليهم عند جسر كان عليه، ورتب قواته بالطريقة التي تتيح له ذلك، فقد قدم امام صفوفه الخيالة اولاً، ثم صف خلفهم المشاة بصفين، ثم وضع خلف المشاة رماة السهام من النبّالة، وأمر اصحابه ان لايقاتلوهم حتى يبدأوهم بالقتال، وكان الامام قد ادرك، بعد ان القى نظرة على قوة الخوارج، فوجد انها يتالف أغلبها من المشاة، الا ثلاثمائة فارس منهم، بانهم سوف يتعبون خلال تقدمهم وهرولتهم حتى يصلوا الى جيشه، وسوف يصبحون عندها جل قوتهم غير قادرة على القتال، وكان قد صمم حركة قواته كي تطبق عليهم من جميع الجهات ويحصرهم، فقد أمر خيالته بأن تنفرج عنهم نحو اليمين واليسار، ثم تفعل المشاة كذلك ايضاً، يبدأ الرماة بعدها بتوجيه ضربة قوية بالنبال الى وجوه جيش الخوارج المتقدم نحوهم، فيصيبهم الوهن والارهاق، ثم تعود الخيالة لتطبق عليهم من اليمين واليسار، ويندفع المشاة بعدها الى الامام مكملاً ماتبقى من مهام قتالية، منظفاً ساحة المعركة مما تبقى منهم، وكان ان تقدم جيش الخوارج فوقع في الفخ الذي نصب له، ولم ينج منهم الا ثمانية، ولم تستمر المعركة اكثر من ساعتين، ولم يصب فيها من جند الامام الا سبعة أشخاص، وكان الامام قد توقع نهاية القتال بالطريقة التي انتهت اليها، وقد اخبر اصحابه قبل بدء المعركة بذلك، أمر الامام علي بمن جرح من الخوارج ان يُدفعوا الى قبائلهم، وأمر بحملهم معهم لمداواتهم، فاذا برئوا من جراحهم، يحملونهم الى الكوفة، وجمع الغنائم من سلاح وخيل ودواب فقسمه بين اصحابه، اما متاعهم وعبيدهم واماؤهم، فانه عندما وصل الى الكوفة ردّها اليهم.

ــ بعد ان فرغ الامام من الخوارج دعا الناس الى موافاته في النخيلة للمسير الى الشام لانهاء تمرد معاوية فيها، فاظهر قسم منهم بانهم بحاجة الى اصلاح سلاحهم والتزود بما يحتاجونه من عدة قتال، الأقواس والنبال، لكن الامام توجه الى النخيلة ونزل فيها منتظراً اكمال تحشد قواته فيها، وافاه فيها قسم من اهل الكوفة، لكنهم بدأوا يتسللون من معسكر النخيلة سراً عائدين الى الكوفة، ولم يبق معه الا وجوه القوم، واعيانهم، حتى اوشك معسكره ان يخلو من المقاتلة الا قليلاً، مما اضطره الى العودة الى الكوفة وصرف النظر مؤقتاً عن التوجه الى الشام...

النتائج التي انتهت اليها معركة النهروان:

ـ ان ماتمخضت عنه حرب النهروان من نتائج، كانت خطيرة جداً بالنسبة للامام علي ويمكن اجمالها بما يلي:

١ - ان الحرب قد انتهت، الا أن الامام اصبح غير قادر على مواصلة مسيره الى الشام لأنهاء تمرد معاوية، في الوقت الذي كان يريده هو، مما ادى في آخر المطاف الى تجرؤ معاوية باعلان نفسه اميراً للمؤمنين، وارساله السرايا نحو اطراف الدولة الاسلامية خارج الشام، باعثة الرعب والخوف بين المسلمين، بعد ان اعطى معاوية قادة تلك الغارات صلاحيات واسعة بقتل الناس ونهب اموالهم وسبي ذراريهم.

٢ - مواصلة الخوارج العمل ضد الامام، بالوسائل المتاحة لديهم، فعمدوا الى التآمر، ووضعوا خطة لقتل الامام علي ومعاوية بن ابي سفيان وعمر بن العاص في يوم واحد، وبعد ان نفذت المؤامرة لم ينجح المتآمرون الا بقتل الامام علي وكان ذلك يوم الجمعة لأحدى عشرة ليلة بقين من رمضان سنة ٤٠ للهجرة، والذي ادى الى تسلم معاوية زمام الأمور بعد ان تخلى له الامام الحسن عن الخلافة، وتنازله عنها اثر صلحه المشهور معه.

٣ - كان لخروج مَن خرج على الامام من الذين نادوا برفض التحكيم، اثر خطير على جيشه، فقد أحدث انقساماً خطيراً بين صفوفه، والذي انتهى الى تدني الروح المعنوية بين المقاتلين ومن ثم تركهم لمعسكر الامام في النخيلة، مما دفع الامام الى ترك المعسكر ايضاً والعودة الى الكوفة بعد ان احس بان القوم لايرغبون بالمسير الى الشام في الوقت الذي اراده هو.

٤ - لم تنته اعمال الخوارج، ولم يقف تحركهم، فبعد معركة النهروان، في خلافة الامام علي، خرج الـ(خرّيت الناجي) منهم، قاصداً المدائن ومعه عدد من أهل الكوفة قرابة الثلاثمائة شخص، وقتلوا مسلماً وقطعوه بسيوفهم، فارسل اليهم الامام زياد بن خصفة الذي كان ينتظر في دير ابي موسى قرب الكوفة، وكان معه عدد قليل من المقاتلة، فتوجه اليهم قرب المدائن فقاتلهم هناك فلم يستطع ان ينالهم، وتسللوا في الليل متوجهين الى الأهواز، حيث التحق بهم

الاعراب هناك ممن يرون رأيهم، كما التحقت بهم اعداد كبيرة من الناس من الذين كانوا يطمحون بمنع الخراج عن الدولة، وكثر عددهم، فكتب الامام الى زياد ان يعود الى الكوفة، وارسل قوة أخرى بقيادة معقل بن قيس الرياحي مع الفين من المقاتلة، وكتب الى عبد الله بن عباس واليه على البصرة أن يعززه بقوة من عنده، فخرج معقل بن قيس متوجهاً الى الأهواز، وانتظر هناك حتى قدوم المدد له من البصرة، فتتبع أثر الخوارج الذي كانوا متوجهين الى رامهرمز، وفيها قلعة يريدون التحصن بها، وادركهم هناك، وامتهم الا الخريت ومن قتل الناس من اصحابه، ودارت معركة شديدة، قتل على اثرها الخريت وتفرقت جماعته، وهكذا ظل الخوارج يعملون خلف جبهة الامام من الكوفة الى الأهواز وما يليها، حيث اشغلوا الامام واضطروه الى قتالهم، في الوقت الذي كان يريد ان يتوجه الى الشام، ويدعو الناس الى ذلك، فكان لعمل الخوارج تأثير كبير في تعثر الاستعدادات وتباطؤ الناس، وتشجيع معاوية على التظاهر علناً، وايغاله باعمال الغارات على قصبات ومدن الأمصار الاسلامية الصغيرة وايذاء أهلها ونهب املاكهم وسبي ذراريهم، لدفعهم الى فقدان الثقة بسلطة الامام والتهاون في نصرته.



الفصل السادس

اخلاق الفروسية عند الامام علي

اخلاق الفروسية عند الامام علي

ـ اخلاق الفارس هي ذلك النوع من السلوك لدى المقاتل او المقاتلين الذي يستهدف اظهار صفات اخلاقية عظيمة، والتمسك بها، كالعفو عند المقدرة، عفة النفس، التعامل برحمة مع الأسرى، الوفاء بالعهد، الابتعاد عن الغدر، وعدم الاتيان بأي عمل يسيء الى سمعة المقاتل وشرفه العسكري، وقد كانت اخلاق الفروسية تلك في الحروب القديمة ذات قواعد واعراف يلتزم بها المقاتلون بحدود معينة، كل حسب ثقافته ونمط سلوكه الاجتماعي، طبيعة الأفكار السائدة في مجتمعه، والعظام من القادة في تاريخ العالم، بل القلة منهم، من التزم بتلك الأخلاق، وطبيعة الحروب القديمة تمنح الفرصة للمقاتل او القائد ان يظهر هذا النوع من الأخلاق أكثر وضوحاً، فلقد كانت الحرب تجري وجها لوجه، فتتيح لذوي النزعات الانسانية الفريدة وسمو الأخلاق، أن يظهروها امام اعدائهم واصدقائهم، اما في الحرب الحديثة، فاخلاق الفروسية بدأت بالاضمحلال شيئاً فشيئا، فالاسلحة الحديثة لاتتيح تنمية تلك الأخلاق وروحها، لأنها لاتسمح الا بالدمار والخراب والقتل الجماعي، ولم يعد للاخلاق التي كان القدامى من المقاتلين يمارسونها مجالاً كبيراً، فالغدر الذي كانت تعافه النفس الأبية اصبح متطلباً من متطلبات الحرب، وهو مايسمى اليوم «خداع العدو»، ونحن لانلوم كثيراً في هذا المجال، لأن طبيعة الحرب وفنها اصبحت هكذا، الا أن فسحة محدودة تظل ماثلة امام الذين يريدون ممارسة نبل الاخلاق وسموها، فلقد كان جنود الثورة الفرنسية يفتخرون بانهم يتركون أول اطلاقة مدفع لعدوهم، ويبدي الجنود اخلاقاً انسانية تجاه زملائهم من جنود العدو، فيعاملونهم بالحسنى، ويقدمون لهم حاجتهم من الأكل والشرب.

ـ تظل الصفة السائدة في الحروب الحديثة، تدمير العدو بكل الأساليب، افناؤه والقضاء عليه، وفي احيان كثيرة ليست هناك حاجة ملحة الى كل هذا العنف والقتل، سوى ابراز المزيد من مظاهر البربرية والوحشية، تدفع جيوشاً بكاملها الى الانغماس في اعمال تعافها النفس البشرية، كقتل الاسرى، وايقاع خسائر كبيرة بين المدنيين ومؤسسات الخدمات الانسانية المحضة، ومما يؤسف له ان

تلك الأعمال تدخل ضمن مايسمى ظلماً «ضرورات الحرب» والتي لاضرورة لها في اغلب الأحيان.

ـ ويبقى الامام علماً من أعلام الفروسية، ونبراساً لها، وليس هذا ادعاء، فقد اثبت ذلك خلال حروبه كلها، وما علينا سوى ان نلقي نظرة على اخلاق الفروسية لديه كي نخرج بحكمنا هذا.

ومن أخلاق الفروسية التي رواها لنا التاريخ مايلي:

عفة النفس

ـ كان الامام عفيف النفس، يشيح وجهه عندما يرى انكسار عدوه وذله، مظهراً استرحامه وتذلله، يعفو عنهم حتى وان كان هؤلاء الأعداء من الطغاة المنابذين له بشدة، والمؤلبين عليه الناس والحاشدين له في ساحات المعارك والحروب، فعمر بن العاص كان سبباً في البلاء على الامام، لايكتم كرهه الشديد له، وهو يلي معاوية في حربه ونكايته، بل انه ربما فارقه في الكثير من المواقف التي وقفها ضد الامام، فهو الذي نصح لمعاوية برفع المصاحف، تلك الفتنة التي ادت الى ان تنتهي الحرب في صفين الى ما انتهت اليه، كما انه هو الذي رتب خدعة خلع الامام علي مع ابي موسى الأشعري، وثبّت معاوية كما يثبت الخاتم في الاصبع، اقسم ابن العاص على منازلة الامام في حرب صفين وقتله، فالتقى بالامام، وكانت تلك القصة التي اصبحت مضرب الأمثال بين العرب.

ـ كان عمر بن العاص يكره الحرث بن النضر الخثعمي كرهاً شديداً، وكان الحرث من أصحاب الامام علي المقربين، لايزال يذكر الحرث ويذمه في كل مجلس ويعيبه، حتى قال الحرث فيه شعراً[1]:

ليس عمرو بتارك ذكره الحرث بالسوء او لاقى عليا

واضع السيف فوق منكبه الأيمن لايحسب الفوارس شيّا

ليت عمراً يلقاه في حومة النقع وقد أمست السيوف عِصيا

فالقه ان اردت مكرمة الدهر وايه به ونـاد اليّا

شاعت تلك الأبيات بين الجيشين في صفين حتى بلغت مسامع عمر بن العاص، فغضب غضباً شديداً «فاقسم بالله ليلقين علياً ولو مات الف موتة»[2]، فلما شاهد الامام وقد اختلط الجيشان في القتال، تقدم اليه وفي يده رمح، فتقدم نحوه الامام وعلا عليه بفرسه بعد ان صرعه برمحه، فما كان من عمر بن العاص حتى ألقى بنفسه من فرسه على الأرض، فاتحاً رجليه، كاشفاً عورته، فتركه الامام وانصرف عنه، مشيحاً وجهه، مستدبراً له، فاعتبر الناس ذلك مكرمة من مكارمه العديدة، وضُرب بها المثل، حتى ان معاوية حليفه كان قد عيّره عندما عاد

---

(١) و(٢) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، المجلد ٢، ص ١١٠ .

اليه من القتال، حيث قال له «أحمد الله وعورتك، اما والله ان لو عرفته ما اقحمت عليه»[1]، ويقال بانه قال له مرة، أحمد الله واستك على نجاتك.

ودونك ماقاله الشاعر أبو فراس الحمداني في قصيدته المشهورة (أراك عصي الدمع) معرضاً بتلك الحادثة:

ولا خير في رد الردى بمذلة　　　كما ردّها يوماً بسوءته عمرو

ـــ وقد حدث لبسر بن ارطأة ماحدث لعمر بن العاص ايضاً، وبسر هذا من طغاة اهل الشام وأكثرهم ايغالاً بالدماء وكرهاً للامام، وهو المعروف بغاراته على العراق، يقتل من أهلها ويسلب اموالهم ويسبي ذراريهم، وهو الذي قتل ولدي عبيد الله بن العباس والي الامام علي على اليمن امام اعين امهما، ولو كان غير علي من ظفر به لقتله ألف مرة، كان بسر مع معاوية مرة في حرب صفين فأمره ان يلقى الامام علياً ويقتله، مذكراً اياه بانه طالما سمعه يتمنى ان يظفر به فيصرعه كي يحصل على الدنيا والآخرة!!، وظل يشجعه ويمنّيه الاماني، حتى لقي الامام في الحرب فتوجه اليه يروم قتله «فصرعه علي عليه السلام وعرض له معه مثل ماعرض له مع عمر»[2]، اي انه كشف له عورته، فتركه الامام وخلّى سبيله، فقال الحرث بن نضر الخثعمي في ذلك شعراً، اخترنا منه هذه الأبيات:

أفي كل يوم فارس لك ينتهي　　　وعورته وسط العجاجة بادية[3]
يكفّ لها عنه علي سنانه　　　ويضحك منها في الخلاء معاوية
بدت أمس من عمرو تقنع رأسه　　　وعورة بسر مثلها حذو حاذية
فقولا لعمرو ثم بسرا ألا انظرا　　　لنفسكما لاتلقيا الليث ثانية
ولا تحملا الا الحيا وخصاكما　　　هما كانتا والله للنفس واقية
وكونا بعيداً حيث لايبلغ القنا　　　نحوركما ان التجارب كافية

ـــ ولم يمنع الامام الماء عندما غلبه عليه مرتين، فقد ارسل الى معاوية أن يقدم اهل الشام فيكتالون منه، وكان معاوية قد منع الماء على أهل العراق، ولم ينفع معه نصح عمر بن العاص له ولا رسول الامام الذي ارسله له بان يكفّ عن صد جيشه من الوِرْد، فهل كان يفعله قائد غيره، مُنع من الماء مرتين؟، وكان قد غلب

---

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٤٠٧ .
(٢) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، المجلد الثاني، ص ١١١ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١١١ .

عليه بقوة السلاح، وقدم في سبيله العديد من الضحايا، غير ان يمنع عدوه من وروده والحق معه، الا ان الامام كان يريد ان يعطي درساً فريداً من نوعه في سمو الأخلاق ونبلها، ليس فقط في معركة صفين وزمنها، بل على امتداد التاريخ، الذي سيحفظ له ذلك الى الأبد.



العفو عند المقدرة

ـ من شيم الفروسية ونبلها، ان يعفو الفارس عن غريمه عندما يتمكن منه، وطالما كان الامام هكذا حتى ان اعداءه اصبحوا يعرفون ذلك جيداً، فاهل العراق كانوا يخشون انتصار اعدائه، لأنهم لن يرحموهم لو انتصروا عليهم، وأهل الشام كانوا يعلمون جيداً لو ان الامام كان قد انتصر عليهم، فانه سيعفو عنهم، كما فعل مع أهل الجمل في البصرة، وقد اخبر عمر بن العاص معاوية بتلك الحقيقة، فعندما انتصر الامام على اهل الجمل ارسل عائشة مع عبد الله بن الزبير، الذي كان كارهاً للامام ماقتاً له، الى مكة، خرجت يوم السبت أول شهر رجب، «وشيّعها أميالاً وسرّح بنيه معها يوماً»[1]، ولم يلاحق الفارين، عتبة بن ابي سفيان وعبد الرحمن ويحيى ابني الحكم، وترك مروان بن الحكم يعود الى الحجاز، وأمّن الناس، ولم يقتل جريحاً أو اسيراً، ولم يسمح بأخذ السبايا من النساء، بل ان صفية زوجة عبد الله بن خلف الذي قتله الامام عندما طلب منه البراز، قالت له عندما رأته بعد انتهاء معركة الجمل، ودخول الامام الى البصرة «ياعلي! ياقاتل الأحبة، يامفرق الجمع، ايتم الله منك بنيك، كما ايتمت وُلْد عبد الله منه، فلم يرد عليها شيئاً»[2]، ثم اعادت عليه القول مرة أخرى «فكفّ بغلته وقال: هممت ان افتح هذا الباب، وأشار الى باب في الدار، وأقتل من فيه، وكان فيه ناس من الجرحى، فأُخبر عليّ بمكانهم، فتغافل عنهم فسكت، وكان مذهبه ان لايقتل مدبراً ولا يذْفِف على جريح، ولا يكشف ستراً، ولا يأخذ مالاً»[3]، وكان الامام علي حينئذ في زيارة لعائشة في دار عبد الله بن خلف، ولم يفعل لها شيئاً، رغم كل الذي اسمعته اياه وهو الخليفة الذي يجب ان لايقال له هكذا.

ـ نادى الامام عندما هزم أهل الجمل: «ان لاتجهزوا على جريح ولا تتبعوا مدبراً، وقسّم ماحواه العسكر من السلاح والكراع»[4]، اي ان الامام لم يتعد الى اموال أهل الجمل في البصرة، بل أمر جنده ان يقتسموا ماترك في ساحة المعركة،

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، المجلد ٣، ص ٢٥٨ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٦ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٦ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٧ .

قال عمار بن ياسر للامام علي بعد انتهاء وقعة الجمل «ماترى في سبي الذراري، قال: ما أرى عليهم من سبيل، انما قاتلنا من قاتَلَنا»[1]، وقال له بعض القراء من أصحابه «أقسم من ذراريهم لنا واموالهم، والا فما الذي احل دماءهم ولم يحل اموالهم، فقال عليه السلام: هذه الذرية لاسبيل عليها، وهم في دار هجرة، وانما قتلنا من حاربنا وبغى علينا، واما اموالهم فهي ميراث لمستحقيها من ارحامهم، فقال عمار رحمه الله: لانتبع مدبرهم ولا نجهز على جريحهم، فقال(ع): لا لأني آمنتهم»[2].

ـ وكان المقاتلون من جيش الامام يمرون على الذهب والفضة، فلا يمدون ايديهم عليها، فلم يسمح لهم الامام الا في طلب الطعام، اصابوه عندما وجدوه، وأمر الامام ان تقسّم اموال قتلى أهل الجمل في أهليهم، واعتبرها ميراثاً لهم، وصلى على قتلى الجيشين ودفنهم، ومنع جنده أن يرتكبوا مخالفات اخبرهم بها من قبل، وشدد في ذلك كثيراً. كان الامام يرى الانتصار في الحرب، انتصاراً على النفوس التي اعتراها الشك بحقه وصدق نواياه، ولم يكن مهتماً قط بالنصر المادي، لأنه كان يرى ان الطريقة المثلى، معاملة أهل القبلة بالحسنى كي يسلب قلوبهم بالمعاملة الطيبة والتسامح واللين، وقد افلح في مسعاه ذلك اي فلاح، فقد بايعه كثير من أهل البصرة وعسكرُ الجمل، بل جلّهم الا القليل ممن هرب ولاذ بالفرار، وسار معه من بايعه الى صفين آمناً مطمئناً.

ـ هذا مافعله الامام مع أهل الجمل والبصرة، فكيف فعلوا هم بعد أن تمكنوا من البصرة وعاملها عثمان بن حنيف، وانصاره وشيعته، قبل ان يصل الامام اليها وينهي فتنة أهل الجمل على ابوابها؟، لقد نكث أهل الجمل بالعهد الذي عهدوه الى والي البصرة من قبل الامام، وكان «غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف اول غدر كان في الاسلام»[3]، ولما امسكوا به، «ضُرِبَ ضَرب الموت ونتفا حاجبيه واشفار عينيه وكل شعرة في راسه ووجهه»[4]، ثم أخذوا السياجة[5] وهم حرس والي البصرة، فقتلوهم، وكانوا سبعين رجلاً، وعرضوا أمر عثمان بن

---

(١) الجمل، الشيخ المفيد، ص ٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧ .

(٣) و(٤) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ص ٥٠١ و ٥٠٠ .

(٥) السياجة: قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة وحراس سجن.

حنيف على عائشة، فقالت لأبان بن عثمان بن عفان أخرج واضرب عنقه «لكن أهل الجمل اشفقوا على اهلهم في المدينة من أخيه سهيل بن حنيف، فتركوه وارسلت عائشة الى الزبير ان اقتل السياجة فانه قد بلغني الذي صنعوا بك»[1]، فأمر الزبير ابنه عبد الله بذبحهم، ثم توجهوا الى بيت المال، حيث كان يقوم على حراسته عدد آخر من السياجة، فاخذوا منهم خمسين رجلاً وقتلوهم صبراً، حتى وصل عدد الذين قتلهم أهل الجمل من الحراس اربعمائة رجل، وقتل اصحاب الجمل حكيم واخوته مع ثلثمائة من قبيلة عبد القيس، وبعد ان استتب الأمر لطلحة والزبير في البصرة، طلبوا كل من فرّ من بين ايديهم، وكل من اشتبه به بأنه من شيعة وأنصار الامام فقتلوهم صبراً، بدم عثمان بن عفان، ولا أحد يعلم بان الذين قتلوا كان لهم بأمر مقتل الخليفة صلة. لقد أوغل اصحاب الجمل في القتل وسفك الدماء دون ان يصونوا حرمة أو يمنعهم دين، وكان ما اسسوا بناءهم عليه هو الغدر والمكر بالذين عاهدوهم واطمأنوا اليهم، ومع كل ذلك، لم ينتقم الامام، فلم يَقتل عبد الله بن الزبير، ولا أخاه طلحة، ولم يقتل ولدي عثمان سعيد وابان، وكلهم اشتركوا بسفك دماء انصاره واتباعه في البصرة، قال الامام علي: «اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»[2].



(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، مجلد ٣، ص ٥٠١ .
(٢) المصدر نفسه، مجلد ٤، ص ٢٤٥ .

تعامله مع الأسرى

ـ تعامل الامام علي مع الأسرى من بطريقة لم يتعامل بها اعداؤه مع الأسرى من جيشه لديهم، وكان الامام يهدف من طريقة تسامحه مع الأسرى، أن يوضح للمسلمين - كما هي عادته - ان حربه ليست للتشفي والانتقام، انما كان يستهدف تنقية النفوس مما اصابها من أدران، ودرء الشبهات التي كانت تثار حول سلوكه مع الذين يقعون بيده عند انتصاره، او عند وقوع اسرى من جيوش خصمه، ولقد اشاع طلحة والزبير مثل هذه الشائعات بين جند أهل الجمل، وكان القصد منها دفع المقاتلين الى الصراع حتى الموت يقيناً منهم بان لاخلاص امامهم سوى القتال حتى النهاية، الموت او النصر، ولا طريق ثالث غيرهما، الا أن الامام تعامل مع الأسرى بكل لطف، وباستثناء واحد منهم، كان قد قتل ثلاثة أمام الاشهاد في البراز، ثم أُسر بعد ان جرح في آخر مبارزة له، باستثناء هذا، لم يقتل الامام احدا من الأسرى، وهو مايقرّه الشرع له، بل عاملهم بكل لطف وعطف، ضارباً بذلك مثالاً للنبل والشهامة.

ـ وفي معركة صفين، «أسر علي أسرى يوم صفين، فخلّى سبيلهم، فأتوا معاوية، وقد كان عمر بن العاص يقول لأسرى اسرهم معاوية: اقتلهم، فما شعروا الا باسراهم قد خلّى سبيلهم علي، فقال معاوية ياعمر لو أطعناك في هؤلاء الأسرى لوقعنا في قبيح من الأمر، الا تراه قد خلّى سبيل اسرانا، فأمر بتخلية من في يديه من اسرى عليّ، وكان علي اذا أخذ اسيراً من أهل الشام خلّى سبيله، الا أن يكون قد قتل احداً من اصحابه فيقتله، فاذا خلّى سبيله فان عاد الثانية قتله ولم يخل سبيله»[1]، لقد كان معاوية على وشك ان يقتل الأسرى من جيش الامام بنصيحة عمر بن العاص، بينما سبقهم الامام الى اطلاق سراح الأسرى لديه من جيش معاوية، دون تفاوض حتى بينه وبين معاوية، وتلك القوانين التي يطبقها الامام مع الأسرى منذ مايقرب من ١٤٠٠ سنة، والتي تلتزم به القوانين الدولية المتعلقة باسرى الحرب في ايامنا هذه، قد حدث مراراً أن لم تلتزم الكثير من دول العالم التي وقعت عليها، وخرقتها باستمرار، وملفات

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٥١٨ .

مجلس الأمن وهيئة الامم المتحدة تمتلىء بالشكاوى المتعلقة بخرق المواثيق الدولية، والتي قدمت من دول عديدة خاضت الحرب ضد دول أخرى، ان مايدفع الامام للالتزام بالاعراف المتبعة في التعامل مع الأسرى، التزامه بما ينص عليه الشرع، واستلهامه للقيم والمبادىء الانسانية التي كان يدعو اليها، ويجهد نفسه في سبيل ترسيخها.



الوفاء بالعهد

ـ ان الوفاء بالعهد صفة يندر ان يتصف بها الناس، الا القليل منهم، ونقض العهود طالما كان الغالب على صفة الوفاء بها، ولطالما كتبت المعاهدات واتفاقيات الصلح عبر التاريخ، فلم يلبث طويلاً الا القليل منها، بل ان الموقعين عليها غالباً مايتبادر الى اذهانهم التفكير بالطريقة التي سينكثون بها وعودهم في اللحظة التي يسيلون بها مداد اقلامهم على اوراق العهد بالامضاء، والامام كان نادراً في وفائه بالوعود، فعندما قبل بوثيقة التحكيم بين أهل العراق والشام، ظل ملتزماً بها، على الرغم من عدم قناعته بالتزام الطرف الآخر بها، والتمسك بما ورد فيها، وعندما طالبه بعض قادة جيشه ورؤساء القبائل التي شاركت في حربه في صفين، بأن يواصل القتال، ذكرهم بالعهد الذي ارتضاه مرغماً، وعندما صاح الخوارج. ان لاحكم الا لله، مطالبين الامام بالاستمرار بالقتال، قال القراء ومنهم عبد الله بن وهب الراسبي الذي اصبح فيما بعد راس الخوارج: «اتق الله، فانك قد اعطيت العهد، واخذت منا، لنفنين انفسنا او لنفنين عدونا، او يفيء الى امر الله، وانا نراك قد ركنت الى امر فيه الفرقة والمعصية لله، والذي في الدنيا، فانهض بنا الى عدونا، فلنحاكمه الى الله بسيوفنا، حتى يحكم الله بيننا وبينهم»[1]، ولم يوافق عمر بن الحمق وعدي بن حاتم الطائي، ومالك الأشتر، وعبد الرحمن بن الحارث، وآخرون، وطالبوا الامام ان يواصل قتاله، لان معاوية لم يكن يفعل ذلك لولا اشرافه على الهزيمة، قال الامام مخاطباً الخوارج «وَيْحكم، أبَعْد الرضا والميثاق والعهد نرجع، او ليس الله تعالى قال: (أوفوا بالعقود)، وقال (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ماتفعلون)، وأبى علي ان يرجع»[2]، وقام الى الامام محرز بن جريش سائلاً فيما اذا كان ممكناً الخروج على ماكتب، فاجابه الامام «أبعد ان كتبناه ننقضه، ان هذا لايحل»[3]، وكان محرز هذا من أكثر اهل العراق شهرة باخلاصه للامام ودفاعاً عنه، وجمع سعيد بن قيس قومه من همدان، وكان

(١) الامامة والسياسية، ابن قتيبة، ج١، ص ١٢٨ .
(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٥١٤ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٥١٩ .

بطلاً من أصحاب الامام مشهوداً له ولقومه جلدهم وصبرهم في القتال، وجاء الى الامام يشير عليه بمواصلة القتال، فقال له الامام: «أما لو كان ذلك قبل رفع المصاحف»[1]، وظل الامام يرفض كل الدعاوى التي القيت اليه بمواصلة القتال، ونقض العهد، الا أنه ظل رافضاً لتلك الدعوات، متمسكاً بما امضى عليه بنفسه.

ــ لم يكن موقف الامام هذا ناجماً عن احساسه بالضعف، وعدم القدرة على مواصلة القتال، كما قد يتصور البعض، بسبب الانشقاق الذي حصل في صفوف جيشه، لان اهل الشام كانوا ايضاً قد وصلوا الى ادنى مرحلة من الضعف، ولم تعد لهم الطاقة على القتال والصبر له، وكانوا يتوسولن باهل العراق، ويخاطبونهم راجين ان ينظروا الى ما آلت اليه اوضاعهم والشفقة عليهم.

ــ كما ان الامام عندما عاد الى الكوفة انتظر انقضاء مدة العهد وهي ثمانية أشهر، ثم انتهاء التحكيم، وكان بمقدوره ان يعيد تنظيم جيشه وتسليحه وتجهيزه، قبل ان يظهر الخوارج بدعوتهم، ولازالت تحت يديه امصار عديدة، مصر، الحجاز، اليمن، وفارس، وله فيها انصار ومؤيدون كثيرون، يستطيع ان يستنفرهم خلال مدة وجيزة والعودة بهم نحو الشام، لكنه لم ينادِ الى النفير الا بعد انقضاء مدة العهد، وافتضاح لعبة التحكيم التي قادها عمر بن العاص الى نهايتها، بعد ان اضمر الغدر بالامام والخديعة لأبي موسى الأشعري، الذي كان أميل الى التواطؤ منه الى النزاهة، وهو المعروف بمواقفه المناوئة للامام قبل حرب الجمل، ولو كان الامام قد نقض العهد، وهو مالم يكن يفعله، بعد عودته بوقت قصير، لأمكنه تلافي مشاكل كثيرة اعترضته في الدعوة الى النفير بعد مضي حوالي السنة من معارك صفين، الأولى، فخلال فترة التوقف، استفحل امر الخوارج، وبعد انتهاء التحكيم نشطت جهود معاوية في اغراء قسم من جيش الامام وبعض قادته وشخصيات العراق بترك الامام والتوجه الى الشام، او الاعتزال. لقد كان الامام وفياً لعهوده، امام خصوم لايعرفون للوفاء أية قيمة، فهذا معاوية يدوس العهد الذي ارتضاه مع الامام الحسن، حالما بويع بالخلافة وجاء خطيباً في الكوفة قائلاً لهم بانه انما قاتلهم ليس من أجل الصلاة او على امور الدين الأخرى، بل انه انما قاتلهم ليأتمر عليهم وصاح: وهذه وثيقة الصلح أضعها تحت قدمي، مطلقاً زياد بن

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٥٢٠ .

ابيه بانصار الامام مُشِيعاً فيهم القتل والنفي والحرمان من الاعطيات ، وهو ما اشارت وثيقة الصلح الى الامتناع عنه، وتأمين كل من كان مع الامام على انفسهم واهليهم واموالهم، وكان مقتل الصحابي الجليل حجر بن عدي الكندي صبراً بعد جلبه من الكوفة الى الشام مع قسم من اصحاب الامام من أهلها، وكان معاويه يطلب منه البراءة من الامام علي فلم يفعل فقتله صبراً وقسماً من اصحابه ممن لم يشهروا البراءة.



عدم البدء في القتال

ـ على رغم ما عرف به الامام من شجاعة واقدام في الحرب، الا انه لم يخرج مرة أمام جيشه طالباً البراز، لكنه لم يتراجع مرة عن الخروج لكل الذين طلبوا برازه، كما كان يخرج للفرسان من جيوش خصومه من الذين يظهرون طغياناً وتجبراً فيقتلهم، ولم يطلب البراز الا مرة واحدة، وذلك عندما خاطب معاوية ان يبرز له، فايهما يغلب غريمه تكون له الأمرة، فرفض معاوية ذلك خوفاً، «ارسل الى معاوية ان ابرز لي واعف الفريقين من القتال، فاينا قتل صاحبه كان الأمر له، قال عمر: لقد انصفك الرجل، فقال معاوية: اني لأكره ان ابارز الأهوج الشجاع، لعلك طمعت فيها ياعمر»[1]، وكان عمر بن العاص قد اشار على معاوية أن يخرج للبراز.

ـ كان الامام ينهى اصحابه عن البغي والابتداء بالحرب والبراز ايضاً، وقد روي عنه انه قال «مانُصرت على الاقران الذين قتلتهم الا لأني ما ابتدأت المبارزة»[2]، وكان الامام يوصي جيشه قبل بدء الحرب الا يبدأوا القوم بالقتال، فقد اوصى الأشتر عندما امّره على طليعة جيشه «واياك ان تبدأ القوم بقتال، الا أن يبدؤوك، حتى تلقاهم وتسمع منهم»[3]، وعندما انسلخ شهر محرم وجاء صفر استعد الامام للحرب، وجال بين جيشه يحضه على القتال ويذكره الثواب. لكنه لم يهاجم جيش الشام الا بعد ان ارسل «نفراً من اصحابه، حتى اذا دنوا من معسكر معاوية حيث يُسمعونهم الصوت»[4]، أخبروهم بان صباح الغد سيشهد الحرب، وقد اعذر من أنذر، وكان الامام علي يخطب في المقاتلين عند كل لقاء ويقول: «لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فانكم بحمد الله على حجة، وتركك اياهم حتى يبدؤوكم حجة اخرى لكم عليهم، فاذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل»[5]، ورحم الله محمد بن أبي بكر، فقد قتله عمر بن العاص ومعاوية بن خديج عندما

---

(١) وقعة صفين، نصر ابن مزاحم، ص ٣٨٨ .
(٢) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج٢، ص ٤١٨ .
(٣) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٥١ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٢ .
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٣ .

ظفروا به في مصر، ووضعت جثته في جيفة حمار واحرقت[١]، والفرق بين اخلاقهم واخلاق الامام بعيد، بعد السماء عن الأرض.

ـ قال الامام لابنه الحسن «لاتدعونَّ الى مبارزة، فان دعيت لها فاجب، فان الداعي اليها باغٍ، والباغي مصروع»[٢].



(١) القصة كاملة في شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، المجلد ٢، ص ٣٣ .
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٤٤ .

الفصل السابع

التوجيه المعنوي في الحرب

التوجيه المعنوي

ــ لم يفت الامام ماللتوجيه المعنوي من أهمية في رفع الروح المعنوية وبثها في نفوس المقاتلين وثباتهم على المبدأ الذي آمنوا به، والهدف الذي تمسكوا به، وبذلهم مهجهم ودماءهم في سبيل تحقيقه. ونرى الجيوش في عصرنا الحالي تعتني اعتناء كبيراً بالتوجيه المعنوي لمقاتليها، وتوظف الكثير من الامكانيات والطاقات في هذا المجال، فتعهد الى مؤسسات كبيرة داخلها بأمر التوجيه المعنوي وتدرب الأفراد، ضباطاً ومراتب، وتزودهم بالمعلومات الضرورية والخطط الكفيلة بانجاح عملية رفع الروح المعنوية داخل الجيش، ومنع تأثير دعايات العدو عليها، حتى ان الجيش الأحمر السوفيتي، كان يمتاز بعنايته الفائقة في هذا المجال الى الدرجة التي وصل فيه وجود الموجهين السياسيين في تنظيمه الى مستوى السرية المقاتلة، او بطرية المدفعية[1]، وهو تنظيم مكلف جداً.

ــ والامام اضافة الى خطبه التي كان يلقيها على المقاتلين، في مناطق تحشدهم، وقبل بدء القتال، او خلال المعارك، كلما كان الموقف يستدعي ذلك، فانه كان يحث قادته ان يتحدثوا الى جنودهم باستمرار، وهو ما يعرف اليوم بـ«تنظيم المحاضرات»، يرفعون عزيمتهم مؤكدين لهم وضوح القضية التي يحاربون من أجلها، عكس خصومهم الذين انما يقاتلون على متاع الدنيا، فبعد ان استشار الامام قادته حول المسير الى صفين، وتأكد بان من معه قد عقدوا العزم على المسير معه للقاء جيش الشام قال: «الطريق مشترك، والناس في الحق سواء، ومن اجتهد رأيه في نصيحة العامة، فله مانوى، وقد قضى ماعليه»[2]، فالامام هنا يحث القادة والقادرين على التأثير في المقاتلين في خطبهم واحاديثهم، ان يهتموا بتقديم النصح للعامة وارشادهم الى الطريق الصحيح، وتثبيت قلوبهم على الحق، وتوضيح الأهداف التي يسعى الى تحقيقها، واظهار زيف وبطلان دعاوى خصومه وتهافتها، ومن المؤكد ان الجنود والمقاتلين كانوا يتأثرون تأثراً مباشراً بهذا التوجيه الاعلامي، وقد رأينا قسماً منهم، يتحدثون مع بعض بان الامام على حق،

(١) [أ] يتألف الفوج عادة من أربع سرايا مشاة.
[ب] البطرية تنظيم حجمه دون كتيبة المدفعية، والكتيبة تتألف من ثلاث بطريات.
(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٩٥ .

وخصومه على باطل، وان عليهم نصرة الحق الذي يقف مع الامام، وخذلان الباطل الذي رفع رايته خصومه، والامام هنا يجعل مسؤولية التوجيه المعنوي مسؤولية عامة، لاتنحصر بفرد بعينه او جهة خاصة، وهذا ماتنادي به الجيوش الحديثة أيضاً، وتعمل به.

ـ اتخذ التوجيه المعنوي لدى الامام علي ثلاث مراحل متتالية، كل مرحلة منها تختص بزمان ومكان يمتد خلال فتره الحرب كلها، ابتداءً من مرحلة التحشد والتهيؤ الكائنة في الخلف، الى ماقبل بدء المعارك، في المعسكرات القريبة من ساحات الحرب او المحاذية لمناطق القتال، ثم تستمر خلال المعارك، ويجدر بنا أن نذكر تلك الأدوار ونتحدث عن كل واحدة منها:

١ - التوجيه المعنوي في مناطق التحشد.

٢ - التوجيه المعنوي قبل بدء المعارك.

٣ - التوجيه المعنوي خلال المعارك.

١ - التوجيه المعنوي في مناطق التحشد

ـ التوجيه المعنوي في مناطق التحشد، ذي قار، الكوفة، النخيلة، يتأثر بالأجواء السائدة سياسياً بالدرجة الأولى، ومادام القتال سينشب في مناطق أخرى بعيدة عن مناطق التحشد، وليس بعد مضي فترة معينة - ١٧ شهراً قبل بدء معركة صفين مثلاً - فان التوجيه المعنوي سوف يتركز على قضايا تهتم بالتأكيد على احقية الامام ومشروعية تسلمه السلطة، ودفع التهم التي يحاول خصومه الصاقها به، كمقتل عثمان والتأليب عليه، والتشكيك بماضيه الزاخر بالكفاح والجهاد في سبيل الاسلام، وصحبته للرسول الكريم والتصاقه به، وصحة بيعة من بايعه على الأشهاد، ورفع التهم عنه بانه كان قد اجبر قسماً ممن بايعه على البيعة، كالزبير وطلحة، وهذا التوجيه لايشمل المقاتلين فقط، بل انه يشمل الناس كافة، في مدنهم وقراهم وبواديهم، ومن ضمن اهدافه ترسيخ الجبهة الداخلية في الأمصار التي تخضع لسلطة الخلافة الجديدة، وغالباً مايكون هذا التوجيه خالياً من العبارات التي تدعو الى القتال والبطولة والاستبسال والثبات، او اية توجيهات خاصة بالمعركة، الا بعض التلميحات العامة المتعلقة

بها، والتي لاتحمل خصوصية واضحة.

ــ في معركة الجمل، عندما قرر الامام المسير الى ذي قار، التي كانت منطقة تحشد لقواته، نحو البصرة، خطب في جنوده خطبة، أكد فيها على نقطتين رئيسيتين، الأولى ان القوم قد اجبروه على تولي الخلافة، بعد ان اوضح لهم بانه كاره لها، وقد بايعه فيمن بايع طلحة والزبير، اللذان انكرا بيعته، دون سبب، وخرجا عليه متواطئين، والثانية، هي انه كان بريئاً من دم عثمان، وان قَتَلَته هم من يطالبون بدمه وثأره الآن، طلحة والزبير وعائشة التي حرضت عليه كثيراً، وكان طلحة ابن عم الخليفة ابي بكر، وعائشة تريد الخلافة له، وقد ورد في تلك الخطبة: «ان الله عزوجل بعث محمداً للناس كافة ورحمة للعالمين، وصدع بما أمر به، وبلّغ رسالات ربه، فلما ألمّ به الصدع، ورتق به الفتق، وأمّن به السبيل، وحقن به الدماء، وألّف بين ذوي الأحقاد، والعداوة الواغرة، في الصدور، والضغائن الكامنة في القلوب، قبضه الله عزوجل اليه حميداً، وقد ادى الرسالة، ونصح الأمة، فلما مضى صلى الله عليه وآله لسبيله، دَفَعنا عن حقنا مَن دفعنا، وولوا من ولوا سوانا، ثم ولاها[1] عثمان بن عفان فنال منكم ونلتم منه، حتى اذا كان من أمْرِه ماكان، اتيتموني فقلتم بايعنا، فقلت لكم لا أفعل، فقلتم بلى لابد من ذلك، فقبضتم[2] يدي، فبسطتموها، وتداككتم علي تداك الابل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتى لقد خفت انكم قاتلي، او بعضكم قاتل بعض، فبايعتموني، وانا غير مسرور بذلك ولا جذل، وقد علم الله سبحانه اني كنت كارهاً للحكومة بين أمة محمد»[3]، ثم يضيف قائلاً «ثم اجتمع عليّ ملؤكم، وبايعني طلحة والزبير، وأنا اعرف الغدر في وجهيهما، والنكث في عينيهما، ثم استأذناني في العمرة، فاعلمتهما ان ليس العمرة يريدان، فسارا الى مكة، واستخفا عائشة وخدعاها، وشخص معها ابناء الطلقاء، فقدموا البصرة، وهتكوا بها المسلمين، وفعلوا المنكر، ويا عجباً لاستقامتهما لأبي بكر وعمر، وبغيهما عليّ، وهما يعلمان اني لست دون احدهما، ولو شئت أن اقول لقلت، ولقد كان معاوية كتب اليهما من الشام كتاباً يخدعهما فيه، فكتماه عني، وخرجا يوهمان الطغام انهما يطلبان بدم عثمان،

(١) يبدو ان الصواب وليها.

(٢) يبدو ان الصواب قَبضْتُ .

(٣) الجمل، الشيخ المفيد، ص ١٤٣ .

والله ما أنكرا علي منكرا، ولا جعلا بيني وبينهما نَصَفاً، وان دم عثمان لمعصوب بهما، ومطلوب فيهما، ياخيبة الداعي الى ما ادعا، وبماذا أجيب، والله انهما لفي ضلالة صماء، وجهالة عمياء، وان الشيطان قد دبر لهما حزبه، واستجلب منهما خيله ورجاله ليعيد الجور الى اوطانه ويرد الباطل الى نصابه»[1]، وفي هذه الخطبة نظهر جلية احقية القضية التي عرضها الامام امام جنده، وحرصه الشديد على توضيحها، وبيانها في تسلسلها التاريخي والمنطقي، مما يثير حقاً الاشجان في قلوب سامعيه، والحمية والعزم في نفوسهم من أجل نصرة الحق، والوقوف معه، فقد قام مالك الأشتر، بعد ان سكت الامام فقال: «خفض عليك يا أمير المؤمنين، فوالله ما أمر طلحة والزبير علينا بمحيل، لقد دخلا في هذا الأمر اختياراً، ثم فارقانا على غير جور عملناه، ولا حدث في الاسلام أحدثناه، ثم اقبلا يثيران الفتنة علينا تائهين حائرين، ليس معهما حجة ترى ولا اثر يُعرف، لقد لبسا العار، وتوجها لمحور الديار»[2]، وقد توعد الأشتر الناكثين ببؤس المصير والنهاية، وكان بقوله هذا يمثل ضمير المقاتلة ووجدانهم، واستعدادهم لتلبية اوامر الامام وطاعته.

ـ ومن خطبة له عند خروجه لقتال اهل الجمل من ذي قار «ان الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة، فساق الناس حتى بوأهم محلتهم، وبلّغهم منجاتهم، فاستقامت قناتهم، واطمأنت صفاتهم، اما والله ان كنت لفي ساقتها، حتى ولت بحذافيرها ما ضعفتُ ولا جبنتُ، وان سيري لمثلها، فلانقبنّ الباطل حتى يخرج الحق من جنبه، مالي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين، ولاقاتلنّهم مفتونين، واني لصاحبهم بالأمس كما انا صاحبهم اليوم، والله ماتنقم منا قريش الا ان الله اختارنا عليهم، فادخلناهم في حيزنا، فكانوا كما قال الأول:

أدمت لعمري شربك المحض صابحاً ... واكلك بالزبد المقشرة البجرا
ونحن وهبناك العلاء ولم تكن ... علياً وحطنا حولك الجُرْد والسمرا[3]

وهنا يذكّر الامام رؤوس قريش بانه لايزال كما هو، علي، الذي عرفوه ايام الجاهلية مجاهداً ذاباً صابراً، عندما قاتلهم وهم كفرة، وهو اليوم كما هو عليه

(١) و(٢) الجمل، الشيخ المفيد، ص ١٤٣ .
(٣) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، المجلد ١، ص ١٧٦ .

بالأمس صاحبهم الذي يعرفون، لن يتنازل عن الحق، وبيت الشعر يذكر بعدم وفاء القوم لآل بيت النبي الذي مكنهم من المنزلة التي هم فيها، والمجد الذي حصلواعليه.

ــ وخطب في الكوفة عند قدومه اليها من البصرة «اما بعد يا أهل الكوفة، فان لكم في الاسلام فضلاً مالم تبدلوا وتغيروا، دَعَوْتكم للحق فاجبتم، وبدأتم بالمنكر فغيرتم، الا ان فضلكم فيما بينكم وبين الله في الاحكام والقسم، فأنتم اسوة من اجابكم ودخل فيما دخلتم فيه، الا ان اخوف ما اخاف عليكم اتِّباع الهوى، وطول الأمل، واما اتباع الهوى فيصد عن الحق، واما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا أن الدنيا قد ترحّلت مدبرة، والآخرة ترحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، الحمد لله الذي نصر وليه، وخذل عدوه، وأعز الصادق المحق، واذل الناكث المبطل، عليكم بتقوى الله وطاعة من اطاع الله من أهل بيت نبيكم، الذين هم أولى بطاعتكم فيما اطاعوا الله فيه، من المنتحلين المدعين المقابلين الينا، يتفضلون بفضلنا، ويجاحدونا امرنا، وينازعونا حقنا، ويدافعونا عنه، فقد ذاقوا وبال ما اجترحوا فسوف يلقون غياً، ألا أنه قد قعد عن نصرتي منكم رجال فأنا عاتب زارٍ، فاهجروهم وأسمِعوهم مايكرهون حتى يعتبوا، ليُعرف بذلك حزب الله عند الفرقة»[1]، وهذا الخطاب يلائم المرحلة التي تلت انتصار الامام في البصرة، وما اسفرت عنه معركة الجمل، فقد ذكر الامام بان الناكثين قد نالوا جزاءهم، وكان حقاً عليهم، كما اشار الى انه ناقم على من تخلّف عنه في البصرة، وهو يلفت الانظار هنا الى المعركة المقبلة، التي يجب ان لايتخلف عنها أحد.

٢ - التوجيه المعنوي قبل بدء المعارك

ــ في هذه المرحلة يقتضي تهيئة اذهان المقاتلين الى المعركة المقبلة والتهيؤ لها، والأقدام في المعارك، كما يمكن أن تتضمن بعض اساليب القتال الفردية، وبعض التوصيات الهامة المتعلقة بها. قبل بدء معركة الجمل قام الامام خطيباً في جيشه متوكئا على قوس عربية، كي يُظهر امام جنده عزمه على القتال واستعداده

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٣ .

له، وهو طالما فعل ذلك في مواقف مشابهة، مما يبعث في نفوسهم الثقة، فقال: «اما بعد فان الموت طالب حثيث لايفوته الهارب ولا يعجزه، فاقدموا ولا تتكلموا، وهذه الأصوات التي تسمعونها من عدوكم فشل واختلاف، انا كنا نُؤمر في الحرب بالصمت، فعضوا على الناجذ، واصبروا لوقع السيوف، فوالذي نفسي بيده، لألف ضربة بالسيف اهون عليّ من ميتة على فراش الموت، فقاتلوهم صابرين محتسبين، فان الكتاب معكم والسنة معكم، ومن كنا معه فهو القوي، اصدقوهم بالضرب، فأي امرء أحسّ من نفسه شجاعة واقداماً وصبراً عند اللقاء فلا يبطرنه، ولا يرى ان له فضلا على من هو دونه، وان رأى من أخيه فشلاً وضعفاً فليذب عنه، كما يذبّ عن نفسه، فان الله لو شاء لجعله مثله»[1].

ـ لقد اوجز الامام في خطبته كل مايريد ان يوجه به المقاتلين قبل بدء القتال، فقد ذكرهم ان الموت حق، وانه ملاقيهم، كي يبعث في نفوسهم حب لقاء الله، ويعزز في قلوبهم الاقدام، كما زودهم ببعض المعارف القتالية الفردية، وكان حقاً قادراً ان يهز نفوسهم ويجعلها معلقة بالهدف الذي ينشده.

ـ في معركة النهروان، خطب امام الخوارج، وجيشه يسمع خطابه، قبل ان يبدأهم بالقتال، يوضح لهم مافيه من غفلة من أمرهم، وتأويلهم الخاطىء الذي ساروا عليه، واضعاً الحجة عليهم، مظهراً بطلان دعواهم، وهو بهذا يكون قد أوضح لجنوده ايضاً بانهم انما يقاتلون عن بينة وحق «فانا نذريكم ان تصبحوا صرعى باثناء هذا النهر وباهضام هذا الغائط، على غير بينة من ربكم وسلطان مبين معكم، قد طوحت بكم الدار، واحتبلكم المقدار، وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة، فابيتم عليّ اباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأيي الى هواكم، وأنتم معاشر اخفاء الهام، سفهاء الأحلام، ولم آت لا أبا لكم بُجْراً ولا أردت بكم ضرّاً»[2]، وكان أن تفرق منهم قوم كثير، والتحق به عدد منهم، فضعفت قوتهم، فتمكن منهم بسهولة.

ـ خاطب الامام جنوده قبل معركة صفين قائلاً:

«ايها الناس، هذا موقف من نُطِف فيه نطف يوم القيامة، ومن فلج فيه، فلج

---

(١) الجمل، الشيخ المفيد، ص ١٩٠ .

(٢) شر نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، مجلد ١، ص ٢٠١ .

يوم القيامة»[1]، ونطف، علم، ونُطِفَ بالبناء للمجهول، اي اتهم بريبة، وهو يريد ان يذكّر المقاتلة بان من شك فيه هذا اليوم، فانه كذلك يوم القيامة، ومن نصح اليوم، فانه سينصح يوم القيامة.

٣ - التوجيه المعنوي خلال القتال

ــ في هذه المرحلة، حيث القتال على اشده، وقد تزاحمت الخيل واشتبكت الأسنة، فلا يسمع الا صليل السيوف وطعن الرماح، وضرب الحديد على الحديد، وحيث الموقف لايمكن التأكد منه بوضوح، فربما تبدل من حسن الى سيء، او العكس، وربما كنتَ منتصراً في بداية القتال، ثم اصبحت على وشك الهزيمة عند نهايته، فالتوجيه خلال المعركة يأخذ بكل ظروفها واحتمالاتها، فيأخذ طابع الصرامة والشدة، وربما يصل الى حد التأنيب، والتشديد على الوصول الى الهدف وادامة القتال بكل ما اوتي المقاتلون من قوة، وفي بعض الأحيان يضطر القائد الى مخاطبة وحدة قتالية معينة دون غيرها، كرجاء وأمل فيها، او قبيلة من القبائل، يشيد بها وباصولها ومواقفها السابقة، كي تثبت في القتال، لأن مصير المعركة كله يتوقف عليها، وكان لمالك الأشتر والأشعث بن قيس دور كبير في شحذ الهمم اثناء المعارك. حرّض الأشتر خلال معركة صفين المقاتلين قائلاً لهم وهو يجمعهم، بعد أن فرّ قسم منهم من المعركة «عضوا على النواجذ من الأضراس، واستقبلوا القوم بهامكم، فان الفرار من الزحف فيه سلب العز، والغلبة على الفيء، وذل المحيا والممات، وعار الدنيا والآخرة»، وهذا التوجيه يظهر فيه التأكيد على نواحي شخصية، كالعار الذي سيلحق بالفارين، وفقدانهم عز الدنيا والآخرة، وضياع الفيء، اي مايقسم على المقاتلين. ان ظروف احتدام المعركة تقتضي هذا النوع من التوجيه، لأنه أكثر تأثيراً في الانسان من أي توجيه آخر، ففي مثل تلك اللحظات الحرجة الرهيبة، لايوقف الانسان عن اتخاذ قرار سلبي، سوى تذكيره بعاقبة عمله ونتائجه المخزية عند جلاء الشدة.

ــ لقد ساعد القادة، مالك الأشتر، عمار بن ياسر، الأشعث بن قيس، الامام الحسن وغيرهم الامام في جهد التوجيه المعنوي خلال كافة المراحل، ونحن هنا

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١٥٩ .

لانريد ان نطيل البحث فخطبهم موجودة في كتب التاريخ.

ــ كان الامام يدرك ما للكلمة من أثر فعال في نفوس السامعين وعقولهم، فقد مرّ في معركة صفين على راية من رايات أهل الشام ثابتة في مكانها لاتزول «فحرض الناس على قتالهم - وذُكر انهم غسان - فقال: ان هؤلاء القوم لن يزولوا من موقفهم، دون طعان دراك، يخرج منه النسيم، وضرب يفلق الهام، ويطيح العظام، وتسقط منه المعاصم والأكف، حتى تصدع جباههم، وتثور حواجبهم على الصدور والأذقان، اين اهل الصبر وطلاب الخير؟ اين من يشري وجه الله عزوجل؟»[1]، «فثابت اليه عصابة من المسلمين فدعا ابنه محمداً فقال له: امشِ نحو هذه الراية مشياً رويداً على هنيتك، حتى اذا اشرعت في صدورهم الرماح فامسك يدك حتى تأتيك اوامري، ففعل وأعدّ علي عليه السلام مثلهم مع الأشتر، فلما دنا منهم واشرع الرماح في صدورهم، امر عليّ الذين أُعدوا فشدوا عليهم، ونهض محمد في وجوههم، فزالوا عن مواقفهم، واصابوا منهم رجالاً»[2].

ــ وهاهو عمار بن ياسر، يحرض جيش الامام والقتال محتدماً اشد الاحتدام، «يا أهل الاسلام، أتريدون ان تنظروا الى من عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين، فلما اراد الله ان يظهر دينه وينصر رسوله اتى النبي صلى الله عليه، فأسلم وهو والله فيما يرى راهب غير راغب، وقبض الله رسوله صلى الله عليه وإنّا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم؟ الا انه معاوية، فالعنوه لعنه الله، وقاتلوه فانه ممن يطفىء نور الله، ويظاهر أعداء الله»[3]، فكيف سيكون حال من يسمعه من جيش الامام؟، الم يكن توجيهه هذا كافياً لخوض غمار الحرب والقتال واستعذاب الموت؟

ــ والتوجيه المعنوي لايقتصر على التثقيف السياسي والخطابات، بل يعتمد ايضاً، اعتماداً كبيراً على اسلوب التعامل بين القادة والجنود، بين الجيش وقائده، ووضع التوجيهات الخاصة بذلك، وقد ورد في عهد الامام لمالك الأشتر عند توليته مصر، توجيهات وتوصيات غاية في الدقة والروعة، تصلح لأن تكون دليلاً لكل الجيوش في التعامل مع الجنود والمقاتلين، تؤدي الى حفظ تماسك

---

(١) و(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٣٩١ و٣٩٢ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٤ .

الجيش، والتفافه حول قائده، وحرصه على تنفيذ اهدافه وخططه، «ثم تفقد من امورهم مايتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به، ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وان قل، فانه داعية الى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك، ولا تدع تفقد لطيف امورهم اتكالاً على جسيمها، فان لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم موقعاً لايستغنون عنه، وليكن آثر رؤوس جندك من واساهم في معونته، وافضل عليهم من جدته، بما يسعهم ويسع مَن وراءهم من خلوف اهليهم، حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدو، فان عطفك عليهم، يعطف قلوبهم عليك، وان افضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية، وانه لاتظهر مودتهم الا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم الا بحيطتهم على ولاة امورهم، وقلة استثقال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم، فافسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما ابلى ذوو البلاء منهم، فان كثرة الذكر لحسن افعالهم تهزّ الشجاع، وتحرض ا لناكل ان شاء الله تعالى، ثم اعرف لكل امرىء منهم ما ابلى، ولا تضيعن بلاء امرىء الى غيره، ولا تقصرن به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امرىء الى ان تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرىء الى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً»[1].

ـ في هذا التوجيه يظهر مدى ادراك الامام لخفايا النفس البشرية، مدركاً تمام الادراك مايعتمل بها من خلجات، وما يؤثر فيها من كلام او عمل، وهو بايراده ادق التفاصيل، حول اسلوب التعامل مع الجنود، وتأكيده عليها، موضحاً اسباب اهتمامه ذلك، انما يترك لنا علماً و متكاملاً في البحث الاجتماعي والنفسي غاية في التكامل والسمو، يجدر بكل من يهتم بموضوع القيادة ان يضعه نصب عينيه، وكنت أتمنى من الجيوش الاسلامية، في عصرنا الراهن، ان تضع ماورد في هذا التوجيه، في مقدمة «دليل القيادة»[2] للضباط في جيوشها، ان اخلاص الجنود لقائدهم هو بالقدر الذي يظهره قائدهم عليهم من عطف وتحنن وحرص على مساعدتهم، وحل مشاكلهم، وان على القائد ان يدرك ان القيادة الحقيقية هي تلك التي تستند على الاحترام المتبادل والاخلاص، الذي بدونهما لايمكن التأكد بان

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج٤، ص ١٢٨ .

(٢) دليل القيادة، كراسة رسمية يحملها ضباط الجيش العراقي معهم تفيدهم في انجاز اعمالهم لأنها تقدم لهم كافة القياسات المطلوبة في الجيش، سياقات الانفتاح، الأوامر... الخ، وهي موجودة لدى أغلب الجيوش في العالم.

المقاتلين سوف يلبون رغبات قائدهم في تنفيذ خطط القتال باندفاع، عندما تحين الساعة التي يريد منهم فيها ان يبذلوا اقصى مالديهم من جهد وطاقة، بل يقدمون حياتهم رخيصة ثمناً لتحقيق اهدافه، وعلى القائد ان يتفقد حتى صغير أمور جنده باستمرار، ولا يمنعه عن ذلك انشغاله بتفقد كبير امورهم والهام منها، اذ ان ذلك قد يحجب عنه اشياء هامة، تدور بين صفوفهم، على الرغم من ان ظاهرها ليس مهماً او صغيراً، لايستحق العناء، كما ان حل المشاكل الصغيرة قد يؤدي في احيان كثيرة الى التأثير ايجابياً على النتائج المرغوبة في الجهود المبذولة لازالة المشاكل الكبيرة، ويسهل ذلك كثيراً، أن كل اهتمام يظهره القائد بجنوده مهما كان صغيراً، له أثره في نفوس مقاتليه، وعلى القائد ايضا ان يؤثر عنده من بين الجنود، اولئك الذين يقدمون لاخوتهم المساعدة والمعونة، ويشفق على اهليهم وذويهم الذين تركوهم خلفهم، ان عطف القائد على جنوده يؤدي الى تحول قلوبهم نحوه وكسبها، ويستحوذ على اهتمامهم وتقديرهم له وايثاره على أنفسهم.

ــ يوصي الامام من أجل ان يوفى الجند المبرزين في اعمالهم، حقهم من التكريم، ان يجري ذكر ما انجزوا من أعمال قتالية، أو ادارية، او انضباطية متميزة باسمه، او باسمائهم، لا أن يقال للمجموع: انكم تستحقون التقدير، لانكم انجزتم عملاً باهراً، اشكركم، لأن ذلك سوف يساوي بين المتقاعس والمندفع، المضحي والخامل والمتردد، فهذا ليس عدلاً، ان التعامل مع المقاتلين باعلان مآثرهم على الملأ، دون انقاص، يرهف عزم الشجاع، ويحرك الجبان للعمل ويعطيه شحنة من القوة للاندفاع في العمل، كي يحوز ما حاز عليه رفاقه في السلاح، لقد ثبت بان المكافآت الجماعية، او العقوبات الجماعية، اسلوب ليس له مردود عملي، لأن المقاتل الذي اصابه التلطيف ضمن المجموعة، لايحس بان التلطيف له شخصياً، وكذلك المسيء. وهناك جيوش تمارس فيها المكافآت جماعياً، كأن يمنح كافة افراد أحد الألوية رتبة اعلى، لم تستطع ان تحقق في نهاية المطاف اشاعة مفهوم العدالة بين اوساطها، بسبب حصول اشخاص على منح ومكافآت وتلطيفات لايستحقونها على الاطلاق، متساوين مع جنود وضباط آخرين بذلوا جهوداً استثنائية في موقف جرى اثناء معركة معينة. وللعقوبة الجماعية اثر سيء كذلك،

لأنه يضع المسيء والمنضبط في ميزان واحد، فيسخر الأول من الثاني، وربما اعتبره مغفلاً.

ـ يلفت الامام انتباه القائد الى ان الثناء والمديح الذي يظهره لمقاتليه، يجب ان لايقتصر على ذوي الشرف منهم، لا لسبب الا لكونهم من أشراف القوم واعيانهم، بل يجب اعطاء كل ذي حق حقه، اي انه يجب ان لانغفل عظيم بلاء ذوي الأصول العامة، لأن انسابهم ليست من العلية. ان الحقائق يجب أن نذكرها كما هي، واضحةً امام الجميع، ليأخذ كل ذي حق حقه، ومتى حدث ذلك، فان المقاتلين والجنود سوف يسمو قائدهم في نظرهم، ويزداد احترامهم له، ويدفعهم الى العمل والتنافس من أجل انجاز الواجبات بصورة أكثر دقة وحرصاً واتقاناً، وفي حال العكس، وعدم نجاح القائد في ذلك، فان الشك والريبة والاحساس بالغبن سوف تحيط بصورة القائد في اذهان جنوده، وربما يعتقدون بانه سيفرق بينهم عند توزيع الواجبات القتالية، للاعتبارات نفسها التي حدته ان يميز بينهم في امور اقل أهمية. ويعمد بعض القادة والضباط في بعض الجيوش الى الاهتمام بالجنود الأغنياء او الذين ينحدرون من عوائل ثرية، طمعاً في مالهم، فيلبون مطالبهم الكثيرة، ولا يعيرون اهتماماً لمطالب جنودهم الآخرين حتى المشروعة منها، مما يضع هذا النوع من القادة والضباط موضع الاحتقار بأعين جنودهم، الأمر الذي تترتب عليه آثار خطيرة عند اصدارهم اوامرهم لهم حينما يكونون بحاجة الى كل واحد منهم على حد سواء، عندها سيكون لصورة القائد او الضابط في اذهانهم اثر على طريقة تنفيذهم لاوامره، خاصة في اللحظات التي لايكون فيها قادراً على دفعهم للعمل بالقوة، اثناء القتال الحقيقي.

ـ وأخيراً فان الوعود التي يقطعها القائد لجنوده، يجب ان يفي بها، سواء تلك المهمة منها، التي لها تاثير كبير فيهم، أو تلك الصغيرة منها، لأن الجنود يظلون ينتظرون وفاء قائدهم لهم بكل الوعود التي قطعها امامهم، لأن الكثير من الجنود - ان لم يكن اغلبهم - لايفرق بين القضايا المهمة وتلك الأقل اهمية، فربما كانت اهتمامات المقاتلين متساوية في الكثير من المسائل، واتجاه الكثير من القضايا والمطالب، وربما كانت بعض المطالب الشخصية والبسيطة لدى المقاتلين تفوق من ناحية اهميتها تلك القضايا التي تبدو مهمة في نظر القائد.

ـ لقد كان من بين جنود الامام علي من هم على استعداد ان يقدم حياته رخيصة تنفيذاً لاوامره، وهو يعلم بانه سوف يموت لامحالة، في معركة الجمل طلب الامام رجلاً يرسله الى اهل الجمل «من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم اليه وهو مقتول، وانا ضامن له على الله الجنة، فلم يقم احد الا غلام عليه قباء أبيض حدث السن من عبد القيس يقال له مسلم كأني اراه، فقال: انا اعرضه يا أمير المؤمنين عليهم وقد احتسبت نفسي عند الله، فأعرض عنه اشفاقاً، ونادى ثانية، من يأخذ هذا المصحف ويعرضه على القوم، وليعلم انه مقتول، وله الجنة، فقام مسلم بعينه، وقال أنا أعرضه عليهم، وادعوهم الى مافيه، فأقبل الغلام حتى وقف بازاء الصفوف ونشر المصحف، وقال هذا كتاب الله وأمير المؤمنين يدعوكم الى مافيه»[1]، فلم يسمعوا له وبادروه بالرماح فطعنوه من كل جانب من جسمه حتى مات. وفي معركة صفين قال الامام علي: «من يذهب بهذا المصحف الى هؤلاء القوم فيدعوهم الى مافيه؟، فاقبل فتى اسمه سعيد فقال: انا صاحبه، ثم اعادها فسكت الناس واقبل الفتى فقال: انا صاحبه فقال علي: دونك، فقبضه بيده ثم اتى معاوية فقرأه عليهم ودعاهم الى مافيه فقتلوه»[2]، هكذا كان من بين رجال الامام، من يضعون ارواحهم على اكفهم ويسيرون الى الموت الماثل امامهم دون وجل او تردد مؤمنين بنبل القضية التي يقاتلون من أجلها ويبذلون دونها مهجهم رخيصة، ولم يعرف لجيوش خصوم الامام اناس وقفوا كمواقف اولئك الفتية الذين آمنوا بربهم، فزادهم ايماناً.

ـ لم يكتف الامام بالارشاد والخطب، وتقديم النصائح في معاملة الجنود من قبل قادتهم، بل انه عمد ايضاً الى تقديم المال لهم، كجزء من وسائل رفع المعنويات، واراحة الجنود والترفيه عنهم، فقد اعطى كل واحد منهم خمسمائة درهم عندما انتهت حرب الجمل ودخل البصْرة فوزع مافي بيت المال من الأموال، كما «جعل للناس ان فتحت الشام ان يقسم بينهم البر والذهب - وهما الأحمران - وان يعطيهم خمسمائة كما أعطاهم بالبصرة»[3]، والشام تمتلىء بالكنوز والأموال وما فيها يغري المقاتلة ويشجعهم على استعجال النصر وحسم

(١) الجمل، الشيخ المفيد، ص ١٨١ .
(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ٢٤٤ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٨ .

الموقف، املاً بالحصول على مرضاة الله، ثم الحصول على المغانم الكثيرة.

والحمد لله رب العالمين

☆ ☆ ☆

كتب صدرت للمؤلف:

- □ البناء المعنوي للقوات المسلحة العراقية دار الروضة ـ بيروت
- □ ازمة القيادة في العراق دار الرافـد ـ لنـدن
  «دراسة عسكرية»

الفهرست

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

ـ تناول الكثير من الكتّاب مختلف جوانب حياة الامام علي بالبحث والدراسة، واكتشفوا خلال مسيرة البحث الطويلة تلك - والتي لن تنتهي أبداً - الكثير من الصفات النادرة النبيلة التي كان يتمتع بها الامام، واخرجوها للعالم على شكل كتب، صدرت منها العشرات، أصبحت تُتداول في كل بيت ومكتبة، تشهد للامام بالحجة الواضحة بما يمتلكه من تلك المواهب والصفات، فمنهم من كتب عن شجاعته، ومنهم من كتب عن عدالته، ومنهم من كتب عن زهده، وفصاحته، بحيث لم يبق مما هو معروف من الصفات الحميدة الا ووجد بأنه المبرز والمتقدم فيها، وعلى كثرة ماكُتب عنه (عليه السلام)، فإن جانبا آخر مهماً من حياته لم تتم معالجته بالصورة التي تُبرز مايملكه من قدرات وامكانيات كبيرة وفهمٍ واسع في هذا المجال، أعني به مجال القيادة العسكرية والقدرة على ادارة الحرب والتخطيط لها، وربما كان سبب ذلك يعود الى ان كل من تناول صفاته وقدراته الأخرى في البحث والدراسة، لم يكن يمتلك الخبرة والقدرة المهنية التي تؤهّله لأن ينعطف على هذا الجانب، فيبحث فيه مكتشفا كنوزه الرائعة، أي أن كل من كتب عن الامام علي، استطاع أن يبرز في الجوانب التي يمتلك فيها خبرة أو اختصاصاً مكّنه من أن يخوض في ما خاض فيه، خارجاً بنتائج وآراء مهمة وجيدة، أما الجانب العسكري في حياة الامام علي فانه يحتاج هو الآخر الى من يمتلك الخبرة في هذا المجال، لتمكّنه من البحث والدراسة، منتهياً الى إبراز هذا الجانب الهام من حياة الامام الزاخرة المليئة بالكفاح والجهاد المتواصل حتى آخر يوم من حياته الشريفة، دفاعاً عن المُثل والقيم الاسلامية والانسانية التي نذر حياته من أجلها، ولنقف على الدروس والعبر الغنية المستخلصة من جهاده هذا، الذي عُمّد بالدم والكفاح والمعاناة.

